



عبد الرحمن ابن خلدون

المقدمة

حققتها وقدم لها وعنى عليها
عبد السلام الشنّادي
الطبعة الخاصة في خمسة مجلدات

الجزء الثاني

خزانة ابن خلدون
بيت الفنون والعلوم والآداب

هذا العمل نشر بدعم من وزارة التربية الوطنية والتعليم العالي وتكوين الأطر والبحث العلمي بالمغرب في إطار الميزانية التي يديرها المركز الوطني للبحث العلمي والتقني.

إن المركز الوطني للبحث العلمي والتقني لا يتحمل مسؤولية محتوى هذا الكتاب إضافة إلى ذلك إن المركز غير مسؤول عن أي تغيير أو تجديد يطرأ على هذا الكتاب مستقبلاً.

© ابن خلدون - المقدمة

كل الحقوق محفوظة، سوله تعلق الأمر بالنسخ أو الاقتباس جزئياً أو كلياً، أو بالاستعمال الفردي أو الجماعي، وكذا بالنسبة لترجمة أو غيرها.

© الطبعة الأولى : الدار البيضاء 2005

الإيداع القانوني : 1912 / 2005

ردمك : 9954-8607-0-3

کتاب
الکتاب

۸۶۳



.

محتويات الكتاب

الجزء الثاني

XIV

لائحة الرسوم

الفصل الثالث من الكتاب الأول : في الدول والملك والخلافة والمراتب السلطانية، وما يعرض في ذلك كله من الأحوال، وفيه قواعد ومتممات
(تابع)

1

3

34

36

55

67

69

71

74

79

80

86

89

92

94

99

103

105

[32] في مراتب الملك والسلطان وألقابها

[33] في التفاوت بين مراتب السيف والقلم في الدول

[34] في شارات الملك والسلطان الخاصة به

[35] في الحروب ومذاهب الأمم في ترتيبه

[36] في الجباية وسبب نقصها ووفورها

[37] في ضرب المكوس في آخر الدول

[38] في أن التجارة من السلطان مضرّة بالرعايا مفسدة للجباية

[39] في أن ثروة السلطان وحاشيته إنما تكون في وسط الدولة

[40] في أن نقص العطاء من السلطان نقص في الجباية

[41] في أن الظلم مؤذن بخراب العمران

[42] في الحجاب كيف يقع في الدول وأنه يعظم عند الهرم

[43] في انقسام الدولة الواحدة بدولتين

[44] في أن الهرم إذا تزل بالدولة لا يرتفع

[45] في كيفية طروق الخلل للدول

[46] في اتساع نطاق الدولة إلى نهايته ثم تضايقه ضوّرًا بعد ظور

إلى فناء الدولة وضمحلانها

[47] في حدوث الدول وتجددها كيف يقع

[48] في أن الدولة المستجدة إنما تستولي على الدولة المستقرة

بالمطاولة لا بالمناجزة

- [49] في وفور العمران أواخر الدول وما يقع فيها من كثرة الموتان
109 والمجاعات
- [50] في أن العمران المبشري لا بد له من سياسة ينتظم بها أمره
111
- [51] في أمر الفاطمي وما يذهب إليه الناس في شأنه وكشف الغطاء عن ذلك
124
- [52] في الحدثان في الدول والأمم وفيه الكلام على الملاحم والكشف
149 عن مسمي الجفر

- الفصل الرابع من الكتاب الأول : في البلدان والأمصار والمدن وسائر
العمران الحضري، وما يعرض في ذلك من الأحوال، وفيه سوابق ولواحق
171
- [1] في أن الدول أقدم من المدن والأمصار وأنها إنما توجد ثانية عن الملك
173
- [2] في أن الملك يدعو إلى نزول الأمصار
175
- [3] في أن المدن العظيمة والهيكل المرتفعة إنما يشيدها الملك الكبير
177
- [4] في أن الهياكل العظيمة جلا لا تستقل بيناتها الدولة الواحدة
179
- [5] فيما يجب مراعاته في أوضاع المدن وما يحدث إذا أغفل عن المراعاة
182
- [6] في المساجد والبيوت المعظمة في العالم
186
- [7] في أن الأمصار والمدن بإفريقية والمغرب قليلة
199
- [8] في أن المباني والمصانع في الملة الإسلامية قليلة بالنسبة إلى قدرتها
201 ومن كان قبلها من الدول
- [9] في أن المباني التي تختطها العرب يسرع إليها الخراب إلا في الأقل
203
- [10] في مبادئ الخراب في الأمصار
205
- [11] في أن تفاضل الأمصار والمدن في كثرة الرزق ونفاق الأسواق
207 إنما هو بتفاضل عمرانها في الكثرة وانقلة
- [12] في أسعار المدن
211
- [13] في قصور أهل البادية عن سكنى المصر الكثير العمران
214
- [14] في أن الأقطار في اختلاف أحوالها بالرفه والفقر مثل الأمصار
216
- [15] في تأثر العقار والضياع في الأمصار وحال فوائدها ومستغلاتها
219
- [16] في حاجة الممولين من أهل الأمصار إلى الجاه والمدافعة
221

- [17] في أن الحضارة في الأمصار من قبل الدول، وأنها ترسخ
 222 باتصال الدولة ورسوخها
 236 [18] في أن الحضارة غاية للعمران ونهاية لعمره وأنها مؤدنة بفساده
 231 [19] في أن الأمصار التي تكون كراسي للملك تخرب بخراب
 الدولة وانتقاضها
 235 [20] في اختصاص بعض الأمصار ببعض الصنائع دون بعض
 237 [21] في وجود العصبية في الأمصار وتغلب بعضهم على بعض
 240 [22] في لغات أهل الأمصار

- التنصل الخامس من الكتاب الأول : في المعاش ووجوه من الكسب
 243 والصنائع وما يعرض في ذلك كله من الأحوال
 [1] في جقيقة الرزق والكسب وشرحهما، وأن الكسب هو قيمة
 245 الأعمال البشرية
 249 [2] في وجوه المعاش وأصنافه ومذاهبه
 251 [3] في أن الخدمة ليست من المعاش الطبيعي
 253 [4] في أن ابتغاء الأموال من الدفائن والكنوز ليس بمعاش طبيعي
 259 [5] في أن الجاه مفيد للمال
 [6] في أن السعادة والكسب إنما تحصل غالباً لأهل الخضوع والملق،
 261 وأن هذا الخلق من أسباب السعادة
 [7] في أن القائمين بأمور الدين من القضاء والفتيا والتدريس والإمامة
 266 والخطابة والأذان ونحو ذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب
 268 [8] في أن الفلاحة من معاش المستضعفين وأهل النعافية من البدو
 269 [9] في معنى التجارة ومذاهبها وأصنافها
 270 [10] في نقل التاجر للسلع
 272 [11] في الاحتكار
 274 [12] في أن رخص الأسعار مضر بالمحترفين بالرخيص
 276 [13] في أي أصناف الناس ينتفع بالتجارة وأيهم ينبغي له تركها

- 278 [14] في أن خلق التجارة نازلة عن خلق الرؤساء وبعيدة عن المروءة
- 280 [15] في أن الصنائع لا بد لها من العلم
- 282 [16] في أن الصنائع إنما تكمل بكمال العمران الحضري وكثرته
- 284 [17] في أن رسوخ الصنائع في الأمصار يرسوخ الحضارة وطول أمدّها
- 286 [18] في أن الصنائع إنما تستجد وتكثر إذا كثر طلبها
- 287 [19] في أن الأمصار إذا قاربت الحراب انتقصت منها الصنائع
- 288 [20] في أن العرب أبعد الناس عن الصنائع
- 290 [21] في أن من حصلت له ملكة في صناعة فقل أن يجيد بعدها ملكة أخرى
- 291 [22] في الإشارة إلى أمهات الصنائع
- 293 [23] في صناعة الفلاحة
- 294 [24] في صناعة البناء
- 299 [25] في صناعة النجارة
- 302 [26] في صناعة الحياكة والخياطة
- 304 [27] في صناعة التوليد
- 308 [28] في صناعة الطب وأنها محتاج إليها في الحواضر والأمصار دون البادية
- 312 [29] في أن الخط والكتابة من عداد الصنائع الإنسانية
- 321 [30] في صناعة الوراقة
- 324 [31] في صناعة الغناء
- 332 [32] في أن الصنائع تكسب صاحبها عقلاً وخصوصاً الكتاب والخساب
- الفصل السادس من الكتاب الأول : في العلوم وأصنافها، والتعليم
- 335 وضرره، وما يعرض في ذلك كله من الأحوال، وفيه مقدمة ولوائح
- المقدمة : في الفكر الإنساني الذي تميز به البشر عن الحيوانات واهتدى
- به لتحصيل معاشه والتعاون عليه بآبناء جنسه وانظر في معبوده وما
- جاءت به الرسل من عنده، فصار جميع الحيوانات في طاعته ومنكة
- قدرته، وفضله به على كثير من خلقه
- 337 [1] في الفكر الإنساني

- 339 [2] في أن عوالم الحوادث الفعلية إنما تتم بالفكر
- 341 [3] في العقل التجريبي وكيفية حدوثه
- 343 [4] في علوم البشر وعلوم الملائكة
- 346 [5] في علوم الأنبياء عليهم السلام
- 348 [6] في أن الإنسان جاهل بالذات وعالم بالكسب
- 350 [7] في أن تعلم العلم من جملة الصنائع
- 356 [8] في أن العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة
- 358 [9] في أصناف العلوم الواقعة في العمران بهذا العهد
- 361 [10] علوم القرآن من التفسير والقراءات
- 367 [11] علوم الحديث

لائحة الرسوم

VII

عنوان مخطوطة الظاهري في العبر

الفصل الثالث

(تابع)

[32] في مرتب الملك ولسلطان والقباها

اعلم أن السلطان في نفسه ضعيف يحمل أمراً ثقیلاً فلا بد له من الاستعانة بأبناء حسبه وإذا كان يستعين بهم في ضرورة معاشه وسائر مؤنه ، فما صلت بسياسة بوعه ومن سترعه ، أنه من حشده وعياده ، وهو محتاج إلى حماية لكافة من عدوهم بالرافعة عنهم ، وإلى كف عدوان بعضهم على بعض في أنفسهم بمصء لأحكام ، ولو رعة فيهم ، وكف عدوانهم عليهم في مؤلهم حتى بمصالح سببهم ، وإلى حميتهم على مصالحهم وما نعمهم به السدي في معاشهم ومعاملاتهم من تقيد المعيش والمكايل والمنورين حدرًا من لطيف ، وإلى سطر في سكة حفظ النفود التي يتعمدون بها من العشر ، وإلى سببهم بما يريد من لا تحيد له ولرصى بمقدصه فيهم ويعرذه بالحد دوحهم ، فيتحم من ذلك فوق العاية من معدة القنوب ، قال بعض الأشراف من الحكماء : للمعدة نقل الحبال من أماكها ، فهو علي من معدة قنوب في حال

* نفسه بشر مستضعف يحمل [] د

مهة [ا] د

ثم إن لاستعانة إذا كانت بأولي القربى من أهل النسب أو التربية أو الاصطناع القديم للدولة كانت أكمل لما يقع في ذلك من محاسنة خلقهم خلقه في الاستعانة. قال تعالى: "اجعل لي وزيراً من أهلي، هرون أخى، أشد به زري وأشركه في أمري"¹²².

وهو إما أن يستعين في ذلك بسيفه، أو قلمه، أو برأيه ومعارفه، أو بحجابه عن الناس أن يزدحموا عليه فيشغلوه عن النظر في مهماتهم، أو بدفع النظر في الملك كله إليه ويعول على كفايته في ذلك واضطلاعه به. فلذلك قد توجد لرجل واحد، وقد تتفرق في أشخاص.

وقد يتفرع كل واحد منها إلى فروع كثيرة. كالقلم يتفرع إلى الرسل، والمحاصن، وقلم الصكوك والإقطاعات. وإلى قلم المحاسبة، وهو صاحب خباية والعطاء وديوان الجيش. وكالسيف يتفرع إلى صاحب الحرب، صاحب الشرطة، وصاحب البريد، وولاية الثغور.

ثم اعلم أن الوظائف السلطانية في هذه الملة الإسلامية مندرجة تحت الخلافة لاشتغال منصب الخلافة على الدين والدنيا، كما قدمناه. ولأحكام الشرعية متعينة بجمعها، وموجودة لكل واحدة منها في سائر وجوهها لعموم تعمق أحكام الشرعي بجميع أفعال العباد. فالفقيه ينظر في مرتبة الملك والسلطان وشروط تقليدها استبعاداً على الخلافة، وهو معنى السبب، أو تفويضاً منها، وهو معنى الوزارة عندهم كما يأتي، وفي حدود نظره في الأحكام والأموال وسائر السياسات مطلقاً أو موقيداً، وفي موجبات العزل إن عرضت، وغير ذلك من معاني الملك والسلطان. وكذا في سائر الوظائف لتي تحت الملك والسلطان من وراثة أو جباية أو ولاية، لا بد للفقهاء من النظر

122 بيت 28-32 من سورة طه.

* مهماتهم، قلنك [1]، [ب].

** من هذا، أي آخر تقدم العام لتخصص يختلف النص في [1] و [ب] عن الروايات ملاحقة، طر لصحة الخاصة للمقدمة، ج 4، ص 283 وما بعدها.

في جميع ذلك ، قدمناه من اسجحات حكمه الخلافة شرعية هي المدة
لإسلامية على رتبة لمك والسلطان.

إلا أن كلامنا في وظائف الملك والسلطان ورتبه بما هو بمقتضى طبيعة
لعمران ووجود لشعر، لا بما يخصها من أحكام الشرع. فليس من غرض
كتابتنا، كما علمت، فلا يحتاج إلى تفصيل أحكامها الشرعية. مع أنها مستوفدة
في كتب الأحكام لسلطانية، مثل كتاب القاضي أبي الحسن الماوردي وغيره
من أعلام الفقهاء. فإن أردت استيعابها فعيث بمطالعتها هنالك. وإنما نكمننا
على الوظائف خلافه وأفردها لنميز بينها وبين الوظائف السلطانية فقط، لا
لتحقيق أحكامها الشرعية. فليس من غرض كتابنا، فإننا إن نتكلم في ذلك بما
نقتضيه طبيعة العمران في الوجود الإنساني. والله موفق.

الوزارة

وهي أم لحصص استصحية ولرتب سنوكية. لأن سمها يدل على مُصنق
لإعدة من الوزارة مأخوذة إما من موارد، وهي المعاونة، أو من النورر. وهو
لثقل، كأنه يحمل مع مدعنه ورره وثقله. وهو راجع إلى معاونة لمطبعة.
وقد كما قدمنا في أول الفصل أن حجاب لسيص وتصرفاته لا تعدو أربعة
نحاء. لأنها

- إما أن تكون هي أمور حمية لكافة وأسبابها من النظر في الجند
ولسلاح ولحروب، وسائر أمور الحماية والمطالبة. وصاحب هذا هو الوزير
المتعارف في الدول القديمة بالمشرق ولهذا العهد بالمغرب.
- وما أن يكون في أمور مخاطباته لمن بُعد عنه في المكان أو في الزمان،
وتنفيذه لأوامر فيمن هو محجوب عنه. وصاحب هذا هو الكاتب.
- وإما أن يكون في أمور جبايته للمال وإبقاه، وضبط ذلك من جميع

* نهاية خمسة في [١] و [٢] وصاحب هذا هو لوربري متعارف

وحومه أن يكون عصبية، وصاحب هذا هو صاحب المال والجباية وهو المسمى بالوزير لهذا العهد بالمشرق.

- وإما أن يكون في مداعة الناس ذوي الحاجات عنه أن يزدحموا عليه فيشغوه عن مهمه، وهذا راجع لصاحب الباب الذي يحجبه.

فلا تعدو أحواله هذه الأربعة بوجه، وكل خطة أو رتبة من رتب الملك ولسلطان فيلها ترجع. إلا أن الأرفع منها ما كانت الإعانة فيه عامة فيما تحت يد لسلطان من ذلك المصنف، إذ هو يقتضي مباشرة السلطان دائماً ومشاركته في كل صنف من أحوال ملكه. وأما ما كان خاصاً ببعض الناس أو بعض الجهات فيكون دون الرتبة الأخرى كقيادة ثغر، أو ولاية جباية خاصة، أو اضطر في أمر خاص كحسنة الطعام والنظر في السكة. فإن هذه كلها نظر في أحوال خاصة فيكون صاحبها نوعاً لأهل النظر العام. وتكون رتبته مرفوعة لأولئك

وما زال الأمر في الدول قبل الإسلام هذا، حتى إذا جاء الإسلام وصار الأمر خلافة، فذهبت هذه الخطط كلها بذهاب رسم الملك إلا ما هو صميمي من المعاونة بالرأي والمفاوضة فيه، فلم يمكن زواله، إذ هو أمر لا بد منه فكان صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه ويفاضهم في مهماته العامة والخاصة، ويحتص مع ذلك أبي بكر بخصوصيات أخرى. حتى كان العرب الذين عرفوا الدول وأحوالها في كسرى وقيصر والنحاشي يسمون أبا بكر وزيره. ولم يكن لفظ الوزير يُعرف بين المسلمين لذهاب رتب الملك بسداجة الإسلام. وكذا عمر مع أبي بكر، وعلي وعثمان مع عمر.

وأم حال الجباية والإنفاق والحسبان، فلم يكن عندهم برتبة، لأن القوم كانوا عرباً أميين لا يحسنون الكتاب ولا الحساب. فكانوا يستعملون في

* هذا ينتهي خثرة في [أ] و [ب]

** هم [ج]. [د]

*** الدول ويشأروا أحوالها [أ]. [ب]

احسبوا أهل الكتاب أو أفراداً من موالي العجم من يجيده. وكان فضلاً فيهم وأما أشراهم، فلم يكونوا يجيدونه، لأن الأمية كانت صفتهم التي متروا بها.

وكذا حال المخاطبات وتنفيذ الأمور لم تكن عندهم رتبة خاصة للأمية التي فيهم، والأمانة العامة في كتمان القول وتأديته. ولم تحوج السياسة إلى احتيازه، لأن الخلافة إنما هي دين وليست من السياسة الملكية في شيء. وأيضاً، فلم تكن الكتابة صناعة، فيستجد للخليفة أحسنها. لأن لكر كانوا يعبرون عن مقاصدهم بأبلغ العبارات. ولم يبق إلا الخط. فكان أخيفة يستيسب في كتابه متى عزَّ له من يُحسنه. وأما مدافعة ذوي أخاحات عن أبوابهم، فكان محظوراً بالشريعة، فلم يفعلوه.

وبما انقضت الخلافة إلى الملك، وجاءت رسوم السلطان وألقابه، كان أول شيء يُدعى به في الدولة شأن الباب وسده دون الجمهور لما كانوا يحشون على أنفسهم من اغتيال الخوارج وغيرهم، كما وقع بعمر وعلي. وبمعاوية وعمر بن العاصي وغيرهم. مع ما في فتحه من ازدحام الناس عليهم وتعبهم بهم عن المهمات. فاتخذوا من يقوم لهم بذلك، وسموه الحاجب. وقد جاء أن عبد الملك لما ولى حاجبه قال له: "وليتك حجابة بابي إلا عن ثلاثة: المؤذن للصلاة فإنه داعي الله، وصاحب البريد فأمر ما جاء به، وصاحب الطعام لئلا يفسد".

ثم ستفحل الملك بعد ذلك، فظهر المشاور المعين في أمور القبائل والعصائب واستيلائهم، وأطلق عليه اسم الوزير. وبقي أمر الحسين في الموالي والذميين. واتخذ للسجلات كاتب مخصوص حوطة على أسرار

* السياسة في [1]. [ب]

* أحسنها فكان [1]. [ب]

** مدولة الأمية شأن [1]. [ب]

استطاع أن تشتته، فتفسد سياسته مع قومه ولم يكن ممثاله الوزير، لأنه إما احتج له من حيث حظ والكتاب، لا من حيث للسان الذي هو الكلام، إذ السان بذات العهد على حاله لم يفسد فكانت الوزارة لذلك أرفع رتبتهم يومئذ هذا سائر دولة بني أمية فكان للنظر لوزير عام في أحوال التمييز والمواضات وسائر أمور حديات ومطالع وم يتبعها من النظر في ديون الحدد وفرص لعضيات لاهلة وغير ذلك.

فقد جاءت دولة بني العباس، واستفحل الملك، وعظمت مرتبه ورتبته، عظم شأن الوزير، وصار إليه ليلية في ينفذ الخل والعقد، وتبعته مرتبه في دولة، وعنت لها لوجوه وحصعت الرقاب، وخُجِّل به النظر في ديون الحسد لما تحتج إليه حصه من قسم الأعطيات في الحدد، فاحتج إلى النظر في جمعه وتفريقه، وأضيف إليه النظر فيه ثم جعل به النظر في القلم والترسيل بصور أسرار لستطاع وحفظ البلاغة، كان لسان قد فسد عند احمهور وخُجِّل خاتم لستطاع ليعطفه من الديار والشباع ودفع إليه

فصدر اسم الوزير حامد خطتي سيف والقلم وسائر معاني الوزارة والمعونة، حتى لقد دُعِيَ جعفر بن يحيى باستطاع أيام الرشيد، إشارة إلى عموم نظره وقيامه بالدولة ولم يخرج عنه من لرب السطانية كما لا خجده التي هي القيام على كتاب ولم يكن له، لاستكفه عن مثل ذلك

ثم جاء في دولة العباسية شأن لاستند على الخلفاء، وتعود فيها استناد لوزراء مرة والاستطاع أخرى، وصار الوزير إذ سنده محتجاً إلى سنية حبيفة إياه لذلك لتصح الأحكام شرعية وتحري على حاله، كما تقدم فقسمت لوزراء حيث إلى وزارة تنفيذ، وهي حاله يكون استطاع فتمت على نفسه ولوزير كالوكيل في تنفيذ حكمه، وإلى** وزارة تمويل،

ص لغيره شمة جعفر عن ص لرد في [] و[ب] ص صعه خصه للمقدمة،
ج 1، ص 286
** نفسه وإلى [د] [ب]

وهي حار ما يكون نورير مستند عليه وفد فوَص إليه ختيقة جميع أمور
خلافتة وجميعه نظره واحده وحري حشد خلاف في العقد نوريرين معا
نوردة لتعويض مثل ما حري من لعقد لاموس. وقد تقدم في حكم
خلافة

ثم استمر لاستند دوصد الأمر لموك لعجم، وعصل رسم خلافة. ولم
يكن بولانث متغلب أن يتحلو ألقاب خلافة، واستكفوا من مشاركة
النورير في القبط، لأنهم حول لهم فتسمو بالاماره و سبند وكان
مستند على لدولة يُسمى أمير الأمر، أو بالنبط، إلى ما يحبه به
الختيقة من ألقابه كما نره في ألقابهم ويركو اسم نوردة إلى من يولاه
نخيفة في حاضته و به يزل هذا لشأن عندهم إلى حر دوتهم

وفسد النبط خلال ذلك كده، وصار صمعة يتنحبه بعض الناس
فانتهت، وترفع نوردة عنها ذلك ولاهم عجم، ونسب ذلك الملاعة هي
المقصودة من نسبهم فتحير لها من سائر صفت، وحصلت به، وصارت
خادمة لنورير و حنص اسم لأمر بصاحب خربة و خدمه ما يرجع إليها
ويده مع ذلك عالية على هن برتب، وأمره قد في كل، ما سانه و
استنداد واستمر الأمر على هذا

ثم جاءت دبة لترك آخر مصر، في نوردة قد شبلت ترفع ولانث
عنها ودفعها لمن يقوم بها نخيفة المحجور، ونظره مع ذلك معقب نظر
الأمير، وصارت مرفوعة فصة وستكف هن هذه ألبته العالية في الدولة
عن اسم نوردة، وصار صاحب لأحكام والنظر في احد يُسمى عندهم
بالبائ لهذا العهد، وحنص اسم نورير عندهم بنظر في حدة

* متفق من هذا في خربة + دفي []، []، []

* ه تنتهي حمه في []، []

* الأمر، إلى [] []

* * وصار يسمى []، []

و ما دونه بي متي لانداس. و هو سمه لوزير في مدونه أو سلطنة. ثم قسموا حصته أصافه فردو لكل صنف وزير. فجمعوا حسنات أمير وزير. وبتس ووزير. ولسطري في حو ح تنظيمين وزير. ولسطري في أحو ل أهل شعور وزير. و جعل لهم بيت بحسول فيه على فرش مضادة لهم. وبقدر من لسطار هديت. كل فرد جعل له وأفراد لسطر دسهم وبن حشفه و حد منهم رجع عنهم كاشرة لسطار في كل وقت. وارتفع محسسه عن محاسنهم. وحصوه سمه حاجب وسم يزن لسطار هديت ح دونههم ورتفعت حطة الحاجب ومرتبه على سائر الرتب. حتى صدر منوك لطوائف متحجب عنهم وكرهم يومئذ سني حاجب. كما يذكره

ثم جاءت دولة الشيعة بعرفته و لقبه ن. و كان مخلصين لها رسوخ في سدوده. فجمعوا أمر هذه الخطط. أولا وبتقريب أسمائها حتى أدركب دونههم خصبة. وصور يتي تقيد. لدونتي عنهم في وضع أسمائها. كما مره في أخبار دونههم

ولما جاءت دولة موحديين من بعد ذلك. أعقت لأمر أولا سدوده. ثم صارت يتي تتحالي الأسماء و الألقاب. وكان سمه لوزير في مدونه ثم اسمو دونه لأمويين وفتدوها في مذهب لسلطان. وأصدروا اسم لوزير من يحجب لسطار في محسسه ويعف بالوفود و لداخلين على السلطان عند الحدود في تحيهم و حصتهم و لأدب سني تنزم في النكوب بين يديه. ورفعوا حطة حجابة عنه ما شاءه. وسمه برن الشان دنش يتي هذا العهد

وأم في دولة تبرك بالشرق. فسموهم هذا الذي يقف بالندس على حدود لأدب في قضاء واتحبة في مجلس لسلطان و التتبع بالوفود بين

ليرسني ١٠١. [ب]

* فذكرهم كاسم [أ] [ب]

في دونههم [أ] [ب]

* الأسماء. وكان [أ] [ب]

* هذه سمه و ردي [أ] [ب]

سديه، سمويه ال واد ر، ويصيفون بيه كتب اسير و أصحاب الترد المتصرفين
في حجات لسنط رفاصيه وفي خضرة و حاتم على دنت لهذا العهد

الحجابه

قد قدمنا هذا نقب كتاب مخصوص في الدوله لأموية و لعديسه عن
يحبب لسنط عن العامة و يعق به دولهم و يفتح لهم على قدره وفي
موفيه و كانت هذه منزله يومه عن حطط، مرفوعة سبه، إذ نور
مصرف فيها ما يره و هكذا كنت ستر أيام بني عباس و بني همد العهد
فهي عصر مرفوعة لصاحب الحجة لعبي يسمى بالمائ

و ما في دولة بني أمية لأندنس، فكاتب الحجة من يحبب لسنط عن
الحصه و لعدي، و يكمل و سطة سبه و من نور و فصل دولهم فكاتب في
دولهم ربيعة عده، كما تره في أخبارهم، كاس خذير و غيره من حجابهم
ثم لما جاء الاستداد على الدولة و حصص المستد اسم حجه لشرقي،
فكاتب منصور بن أبي عمير و سبه كدلت و بدأ في مطهر الميث و أصره
حاء من بعدهم من موك تطوئف فم يتركه فقه، و كبر عدوه شرف
لهم و كان عصمهم مكنج عهد تتحال نقب ميث و أسمائه لأندسه من ذكر
خاحب و دي نور رين، بعد به لسيف و القلم و يدون راحجه على
حجه لسنط عن العامة و خاصة، و دي نور رين على جمعه خطني
السيف و القلم

ثم لم يكن في دول انعرب و فريقة ذكر لهذا الاسم سداوة التي كتب
فيهم و رما يوحد في دولة لعيديين عصر عند ستهلاطيه و حصارنها، إلا أنه

[١] دولة عباسيه [٢]

١١٠٠ سنة في [٢] المائ و رما خاحب عندهم هو مصرف بن بني سبطر
لقاله على رأسه في ستهلاطيه و الحاس العامة و خاصة

وأنساه [١] [٢]

قبيل، ولم جاءت دولة الموحدين لم تستمكن فيها الحضارة الداعية إلى 'تنحال' الألقاب وتغيير الخطط وتعيينها بالأسماء إلا آخراً، فلم يكن عندهم من لرتب إلا لوزير. فكانوا أولاً يخصصون بهذا الاسم الكاتب المنتصرف المشترك لسلطان في خاص أمره، كاتب عطية، وعبد السلام الكومي. وكان له مع ذلك النظر في الحساب والأشغال المالية. ثم صار بعد ذلك اسم الوزير لأهل نسب الدولة من الموحدين، كاتبين جامع وغيره. ولم يكن اسم الحاجب معروفاً في دولتهم يومئذ.

وأم بنو أبي حفص بإفريقية، فكانت الرياسة^١ في دولتهم أولاً وانتقدم سوربر^٢ لرئي المشورة، وكان يُخصّ باسم شيخ الموحدين. وكان له الطربي 'الولات والعزل وقود العساكر والحروب'. واختص الحسن والديون برتبة 'أحرى سُمِّيَ مُتَوَلِّئُهَا بصاحب الأشغال'. ينظر فيها المظهر المطلق في 'مدخل والخرج، ويحاسب ويستخلص الأموال ويعاقب على التعريض'. وكان من شرطه أن يكون من الموحدين. واختص عندهم القلم أيضاً عن يحيى الترسييل ويؤمن على الأسرار، لأن الكتابة لم تكن من متحل القوم. ولا ترسييل بسانتهم. فلم يشترط فيه النسب. واحتاج السلطان لاتساع ملكه وكثرة المترقيين في داره إلى قَهْرَمَان خاص بداره في أحواله بحريها على قدرها وترتيبها من رزق، وعطاء، وكسوة، ونفقة في المطبخ والإصطبلات وغيرها، وحصر للذخيرة، وتنفيذ ما يحتاج إليه في ذلك على أمر جباية. فخصَّوه باسم الحاجب. وربما أضافوا له كتاب العلامة على السجلات إذ تفق أن يحسن صناعة الكتابة، وربما جعلوه لغيره. واستمر الأمر على ذلك. وحجب السلطان نفسه عن الناس، فصار هذا الحاجب واسطة بين الناس وبين

^١ "هذه تنتهي حصة في [أ] و [ب]

^٢ "وعند استعماله بني حفص، كانت الرياسة [ب]

^٣ "الحساب برتبة [] . [ب]

^٤ "وترتيبها من رزق وإعطاء وحصر للذخيرة والإصطبلات وتنفيذ [أ] [ب]

أهل نرب كلهم. ثم جُمع له أحر الدولة السيف وأخرب، ثم لرأي
والمشورة، فصارت خطة أرفع الرتب وأوعها للخضط ثم جاء الاستبداد
والحجر مدة من بعد السلطان الثاني عشر منهم. ثم استند بعد ذلك حرفة
السلطان أبو العباس على نفسه، وأذهب آثار الحجر والاستبداد بإذهاب خطة
حجابة التي كانت سُلماً إليه. وبأثر أموره كلها بنفسه من غير استعانة بأحد.
والأمر في ذلك لهذا العهد.

وأما دول زناتة بالمغرب، وأعظمها دولة بني مرين. فلا أثر لاسم الحجاب
عندهم. وأما رئاسة الحرب والعساكر، فهي للوزير. ورثة القنم هي الحسب
والمسائل راجعة إلى من يحسنها من أهلها، وإن احتضت بعض سيوت من
المصطنعين في دولتهم. وقد تجمّع عندهم، وقد تفرّق. وأما باب السلطان
وحججه عن العامة، فهي رتبة عندهم يُسمى صاحبها بالميزوار^(١). ومعه
مقدم على اجتادة المتصرفين بباب السلطان في تنفيذ أوامره وتصريف
عقوباته وإنزال سطواته وحفظ المعتقلين في سجنونه، والعريف عليهم
ذلك. فالباب له، وأخذ الناس بالوقوف عند الحدود في دار العامة راجع إليه
فكلها وزارة صغرى.

وأما دولة بني عبد الواد، فلا أثر عندهم لشيء من هذه الألقاب ولا تميز
أخضط لبداءة دولتهم وقصورها، وإنما يخصون باسم الحجاب في بعض
الأحوال متفّذ الخاص بالسلطان في داره، كما كان في دولة بني أبي حفص.
وقد يجمعون له الحسان والسجل كما كان فيها. حمّتهم على ذلك تقيد
الدولة بما كانوا في بيعتها وقائمين بدعوتها منذ أول أمرهم.

من بعد مولانا السلطان أبي يحيى. ثم استبد السلطان ياسره وأذهب [ب]

^(١) دون زناتة، فلا [أ]. [ب].

^(٢) من أهلها، وأما [أ]، [ب]

^(٣) من بكنته الأربعة أميزوار، بمعنى الأول.

^(٤) ومعه المروزر على أحسن واختادة، العريف عليهم [أ]. [ب]

وأما دوة لأندلس لهذا العهد. فالمنصوص عندهم بالחסان وتفيد حار
السطن وسائر الأمور المالية يسموه بالوكيل. وأما الورير، فكالوزير، إلا أنه
قد يُجمع له الترسيل. والسلطان عندهم يضع خطه على السجلات كلها،
فليس هناك خط للعلامة كما لغيرهم من الدول.

وأما دولة لترك بمصر، فاسم الخاجب عندهم موضوع خاكيم من أهل
الشوكة، وهم الترك. ينفذ الأحكام بين الناس في المدينة. وهم متعددون. وهذه
الوظيفة عندهم تحت وظيفة النيابة التي لها الحكم في أهل الدولة وفي العامة على
الإطلاق. وللنائب التولية والعزل في بعض الوظائف على الأحياء. ويتضع
النفس من لأوراق ويستنها، وتُنفذ أوامره ومراسمه كما تنفذ المراسم السلطانية.
وكان له نيابة المطلقة عن السلطان. وللمحجب الحكم فقط في حُبقات نعمة
وخدم عند الترافع إليهم وإجبار من لا يتقاد للحكم. وطورهم تحت طور نيابة
وورر في دوة الترك هو صاحب جباية الأموال في الدولة على اختلاف
صدها من حراح او مكس أو جزية. ثم في تصرفها في الإنفاقات السلطانية
وجرايات المظلة. وله مع ذلك التولية والعزل في سائر العما المباشرة لهذه
الحاية والتنفيذ على اختلاف مراتبهم وتباين أصنافهم. ومن عوائدهم أن يكون
هذا ورير من صنف الميط الفاتمين على ديوان الحسبان والحاية لاحتصاصهم
بذلك في مصر منذ عصور قديمة. وقد يوئىها السلطان بعض الأحياء لأهل
الشوكة من رجالات الترك أو أبنائهم على حسب الداعية لذلك.
والله مدبر الأمور ومصرفها بحكمته، لا إله إلا هو.

ديوان الأعمال والجبايات

هذه الوظيفة من الوظائف الضرورية للملك، وهي القيام على أعمال
جبايات وحفظ حقوق الدولة في الدخل والخرج، وإحصاء العساكر

هذه بقية من [أ] في [ب]

بحر هذا من [أ] في [ب] عوار الأشغال. وأني بعد مقطع عنوانه: الكتابة والعلامة
هذه بقية من [أ] في [ب] عوار الأشغال. وأني بعد مقطع عنوانه: الكتابة والعلامة

أسماهم . وتقدير أذواقهم وصرف أعطياتهم في إبنائهم ، والرجوع في ذلك إلى القوانين التي يرتبها قومة تلك الأعمال وقهارة الدولة وهي كنه مسطورة في كتاب شاهد بتفاصيل ذلك في الدخل والخرج مبني على جزء كبير من حسابان لا يقوم به إلا المهرة من أهل تلك الأعمال ، ويسمى ذلك لكتاب بالديوان ، وكذلك مكان جلوس العمال والمباشرين لهم .

ويقال إن أصل هذه التسمية أن كسرى نظر يوماً إلى كتاب ديوانه وهم يحسبون مع أنفسهم كأنهم يحادثون . فقال : " ديوانه " أي مجدين سعة لفرس . فسمي موضعهم بذلك ، وخذفت الهاء لكثرة الاستعمال تخفيفاً ، فكتب ديوان . ثم نقل هذا الاسم إلى كتاب هذه الأعمال المتضمن للقوانين وحسابات .

وقيل إنه اسم للشياطين بالنعازية ، وسمي الكتاب بذلك لسرعة تبدلهم في فهم الأمور ووقوفهم على الجلي منها والخفي ، وجمعهم لما شذو وتفرق ثم نقل إلى مكان جلوسهم بباب السلطان على ما يأتي بعد .

وقد ندر هذه الوظيفة بناظر واحد ينظر في سائر هذه الأعمال ، وقد يفرق كل صنف منها بناظر كما يفرق في بعض الدول المنظر في العساكر وقضائهم وحسان أعطياتهم وغير ذلك على حسب مصطلح الدولة ومقره وتوهم .

وعنه أن هذه الوظيفة إنما تحدث في الدول عند تمكن اللعب والاستيلاء ونظر في أعطاف الملك وفنون التمهيد . وأول من وضع الديوان في لدولة لإسلامية عمر رضي الله عنه ، يقال بسبب ما أتى به أبو هريرة من البحرين استكثروه وتعبوا في قسمه . فسموا إلى إحصاء الأموال وضبط لعضاء والحقوق ، فأشار خالد بن الوليد بالديوان وقال : " رأيت ملوك الشام يدبون " ، فقبل منه عمر .

وقيل إن أشار عليه به الخمران لما رآه يبعث البعوث بغير ديوان ، فقال له : " ومن يعلم بعية من يغيب منهم ، فإن من تخلف منهم أحل بمكانه ، وإذا بصبط ذلك الكتاب ، فثبت لهم ديواناً " . وسأل عمر عن اسم الديوان ، ففسر

له. ولما أجمع على ذلك أمر عقيل بن أبي طالب، ومخرمة بن نوفل، وجثير بن
مُطْعِم، وكنو من كتّاب قريش، فكتبوا ديوان لعساكر الإسلامية على ترتيب
لأسباب متبداً من قرنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وما بعدها، الأقرب
ولأقرب. هكذا كان ابتداء ديوان جيش²⁴ وروى الزُّهري عن سعيه من
المسيب أن ذلك كان في المحرم سنة عشرين.

وأما ديوان الخراج والجلبيت، فبقي بعد الإسلام على ما كان من قبل،
ديوان العراق بالفرسية، وديوان لشام بالرومية، وكتب لدواوين من أهل
لعهد من الفريقين. فلما جاء عبد الملك بن مروان واستحال الأمر ملكاً،
وانتقل يقوم من غصاصة البدوة إلى رونق الحاضرة، ومن سداجة لأمية إلى
حنق لكتانة، وظهر في العرب ومواليهم مهرة في الكتب والحساب، فأمر
عبد الملك سيمان بن سعد، والي الأردن لعهد، أن ينقل ديوان لشام إلى
العربية، فكمه لسنة من يوم بتدأه. ووقف عليه سرحون²⁵، كتب عبد
ملك، فقال لكتب الروم: صبو العيش في غير هذه الصناعة، فقد قطعها
الله عنكم. وأما ديوان العراق، فأمر الحجاج كتبه صالح بن عبد الرحمن -
وكان يكتب بالعربية والفرسية، ولقن ذلك عن زاذان فروخ، كتب حجاج
قبه. ولم يزل زاذان في حرب عبد الرحمن بن الأشعث، استخف الحجاج
صالحاً هذا مكنه - أن ينقل ديوان من العربية إلى الفارسية، ففعل، ورعى
لذلك كتاب الفرس. وكان عبد الحميد بن يحيى يقول: "الله در صالح،
مأعظم مثته على لكتب".

ثم جُعيت هذه لوظيفة في دولة بني لعباس مضافة إلى ما كان له النظر
فيه كما كان شأن بني برمك، وبني سهل بن سوخت، وغيرهم من وزراء تلك
الدولة.

24. على بن حيدر - أحد معلمي مائة عن تأسيس ديوان عن ما ودي - هو الأحكام استعمله،
مرويات، 1298، 378، ص 22.
25. هكذا يقرأ في ديوان هذا الاسم، ويعده سرحون، سرحيوس بن حواسة

فأما ما يتعلق بهذه الوظيفة من الأحكام الشرعية مما يختص بالجيش، أو بيت المال في الدخل والخرج، أو تمييز النواحي بالصنح والعنوة، وفي تقدير هذه الوظيفة عن يكون، وشروط الناظر فيها والكتاب، وقوانين الحسابات، فأمر راجع إلى كتب الأحكام السنطانية، وهي مسطرة هنالك، وليست من عرص كناسا، وإنما نتكلم فيها من حيث طبيعة الملك الذي نحن بصدد الكلام فيه. وهذه الوظيفة جزء عظيم من الملك، بل هي ثلاثة أركانه، لأن الملك لا بد له من لحد والمال والمخاضة لمن غاب عنه، فاحتاج صاحب الملك إلى الأعوان في أمر السيف وأمر القلم وأمر المال. فينفرد صاحبها لذلك بجزء من رئاسة الملك.

وكذلك كان الأمر في دولة بني أمية بالأندلس والطوائف بعدهم. وأما دولة الموحدين، فكان صاحبها إما يكون من الموحدين، مستقل بالنظر في استخراج الأموال وجمعها وضبطها وتعبت نظر الولاة والعمل فيها ثم تنفيذه على قدرها وفي مراقيتها. وكان يُعرف بصاحب الأشغال. وكان ربي يليها في الجهات غير الموحدين من يحسنها.

ولما استبد بنو أبي حفص بإفريقية وكان شأن الجالية من الأندلس، فقدم عليهم أهل البيوتات وفيهم من كان يُستعمل في ذلك بالأندلس مثل سي سعيد، أصحاب القلعة جوار غرناطة المعروفين ببني أبي الحسين، فاستكفوا بهم في ذلك وجعلوا ينظر لهم في الأشغال كما كان لهم بالأندلس، ودأبوا فيها بسبهم وبن الموحدين. ثم استقل بها أهل الحسبان والكتاب، وحررت عن الموحدين. ثم استغلف أمر الحاجب ونفذ أمره في كل شأن من شؤون الدولة، فتعرض لرسم وصار صاحبه مرؤوسا للحاجب، وأصبح من حمة حمة، وذهبت تلك الرئاسة التي كانت له في الدولة.

١٠ من هذا إلى آخره يفرق بين [١] و [٢]

وأما في دولة سي مزين لهذا العهد، فحسب الخراج و إعطاء مجموع لواحد. وصاحب هذه الرتبة هو الذي يصحح حسابات كدنها ويُرجم إلى ديوانه. وطره معقَّب سطر السلطان أو وزير، وحصه معتر في صحة الحسابان في اخراج والعطاء.

هذه أصول الرتب والخطط للسليمانية وهي الرتب العلوية التي هي عامة للنظر ومباشرة لسلطان.

وأما هذه الرتبة في دولة الترك، فمتنوعة، وصاحب ديوان العطاء يُعرف بنظر الجيش، وصاحب لمان مخصوص باسم الوزير. وهو الناظر في ديوان الجببة العامة للدولة، وهو على رتب الناظرين في الأموال، لأن النظر في أموال عندهم يتنوع إلى رتب كثيرة لانفساح دولتهم وعظم سلطانهم واتسع الأموال والجبايات عن أن يستقل بضبطها لو حد من الرجال ولو بلغ في الكيفية مبالغه. فتعين للنظر العام منها هذا لمخصوص باسم الوزير، وهو مع ذلك رديف لمولى من موالى السلطان وأهل عصبية وأرباب السيوف في الدولة يرجع نظر الوزير إلى نظره ويجتهد جهده في متابعته، ويُسمى عندهم أستاذ الدار، وهو أحد الأمراء الأكبر في الدولة من الجند وأرباب السيوف. ويتبع هذه الخطة عندهم خطط أخرى كلها رجعة إلى الأموال وحسابان مقصورة للنظر على أمور خاصة مثل ناظر خاص، وهو المباشر لأموال السلطان الخاصة به من إقطاعه أو سهمانه من أموال الخراج وبلاد الجببة مح ليس من أموال المسمين العامة لتي لنظره، وهو تحت يد الأمير أستاذ الدار. وإن كان الوزير من الجند، فلا يكون لأستاذ لدار نظر عيه، وناظر الخاص أيضًا تحت يد خازن لأموال السلطان من مملوكه المسمى خازن دار، لاختصاص وظيفتهما بمجال لسلطان خاص به.

هذه تسمى هذه الخطة في دولة لترك بمشرق بعد ما قدمه من مره بالمغرب.

وله مصرف الأمور لارب غيره.

ديوان الرسائل والكتابة

هذه لوظيفة غير ضرورية في الملك بطبيعته لاستغناء كثير من الدول عنها رأساً كما في الدول العريقة في البدو التي لم يأخذها تهديد احصارة، ولا استحكام الصنائع.

ويعني^١ أكد الحاجة إليها في الدولة الإسلامية شأن اللسان العربي ولبلاغة في العبارة عن المقاصد، فصار الكتاب يؤدي كنه الحاجة بأبلغ من العبارة اللسانية في الأكثر وكان الكاتب للأمير يكون من أهل نسبه ومن عظماء قبيله كما كان للمخلفاء وأمرء الصحابة بالشام والعراق ولعظم أمانتهم وخصوص أسرهم. فلما فسد اللسان وصار صناعة، اختص بمن يحسنه.

وكانت عند بني العباس ربيعة^٢. وكان الكاتب يصدر السجلات مطلقاً ويكتب في آخرها اسمه ويختتم عليها بخاتم السلطان، وهو طابع منقوش فيه اسم السلطان أو شارته، يُغمس في طين أحمر مضاف بالماء، ويسمى 'طين الختم'. ويطبع به على طرفي السجل عند طيّه والصاقه. ثم صارت السجلات من بعدهم تصدر باسم السلطان، ويضع الكاتب فيها علامته أولاً أو آخرًا على حسب الاختيار في محلها وفي لفظها.

ثم قد تنزل هذه الخطة بارتفاع المكان عند السلطان لغير صاحبه من أهل المراتب في الدولة أو استبداد^٣ وزير عليه، فتصير علامة هذا الكتب ملغاة الحكم بعلامة الرئيس عليه كما وقع آخر الدولة الخفصية، لما ارتفع شأن الحجابة وصار أمرها إلى التفويض ثم الاستبداد صار حكم لعلامة لتي لذلك ملغى وصورتها ثابتة، اتباعاً لما سلف من أمرها. فصار الحجاب يرسم

* ك س س ' أشير إلى ذلك، هذا الفصل ورد في [١] و [ب] فل الفصل المتعلق بالوصائف 'مأية ويحس بموار تنهي: الكتابة والعلامة.

** هذه الخطة غير ضرورية في الدول لاستغنائها [١] و [ب]

*** عرّض حص هذه الفترة، نحد نصاً مخالفاً في [١] و [ب] انظر الطمة الخاصة للمقدمة، ح ٤، ص 290 291

**** عند بني أمية وبني العباس من بعدهم ربيعة [١]، [ب].

***** لغير صاحبها واستبداد [١]، [ب]

ليكتب 'مضاء' كتابته ذلك بخط يصعه ويتخير له من صيغ الإنشاء ما شاء،
فيأتمر الكاتب له ويضع العلامة المعتادة¹²⁶. وقد يختص السلطان بنفسه
بوضع ذلك إذا كان مستبداً بأمره، قائماً على نفسه، فيرسم الأمر للكاتب
ليضع علامته.

ومن خطط الكتابة التوقيع¹²⁷، وهو أن يجلس الكاتب بين يدي السلطان
في مجالس حكمه وفصله ويوقع على القصص المرفوعة إليه أحكامها
والفصل فيها متلفاة من السلطان بأوجز لفظ وأبلغه. وإما أن تصدر كذلك،
ويبدأ أن يحذو الكاتب على مثالها في سجل يكون بيد صاحب لقصة.
ويحدث الموقع إلى عارضة من البلاغة يستقيم بها توقيعه. وقد كان جعفر بن
يحيى يوقع في القصص بين يدي الرشيد ويرمي بالقصة إلى صاحبها، فكانت
توقيع ينفذها السلافة في تحصيلها للوقوف فيها على أساليب البلاغة
ومنها، حتى قيل إنها كانت تباع كل قصة منها بدينار. وهكذا كان شأن
الردون

واعلم أن صاحب هذه الخطة لا بد وأن يتخير من أرفع طبقات الناس
وأهل المروءة والحشمة منهم وزيادة العلم وعارضة البلاغة. فإنه معرض لسطر
في صور العلم لما يعرض في مجالس الملوك ومقاعد أحكامهم من أمثال
ذلك، مع ما تدعو إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتحقيق
بلفظائهم، ومع ما يضطر إليه في الترميل وتطبيق مقاصد الكلام من بلاغة
وأمرارها.

126) وعن هذا الاحتفاظ الذي طرأ على خصة العلامة هو الذي كان السبب في تحييل من حدود عن
حيثه ككتاب العلامة للسلطان أبي إسحاق الذي كان في كفاية الحاجب من تأويل كبير يعبر لتعريف

بين حدود ورحلته غربا وشرقا، ص 55-56

127) وهذه الطريقة هي الأخرى استخدم فيها ابن خلدون، وذلك عندما وفد على السلطان أبي عثمان
يعرب يعرب عن ترجم - ص 56-57

منه، [أ] [ب]

128) هذه الطريقة تسمى كذلك تنبأها له ترد في [أ] و [ب]. و نجد عوضها، ص مخالفاً. انظر الصفة
الحاصلة للمعلمة، ح 4، ص 292-293

وقد تكون ترتيبه في بعض الدول مستندة إلى آداب السيوف، يقتصبه طبع للدولة من البعد عن معاناة العلوم لأجل سداجة العصبية، فيختصر السلطان أهل عصبية بحطط دولته وسائر رتبة، فيقلد المأل والسيف والكتابة منهم. فأما رتب السيف، فتستغني عن معاناة العلم، وأما المال والكتابة فيضطر إلى لبلاغة في هذه والحساب في الأخرى. فيختارون لها من هذه لطيفة لم دعت إليه الضرورة ويقلدونه، إلا أنه يكون يد آخر من أهل العصبية عالية على يده، ويكون نظره متصرفاً عن نظره كما هو في دولة لتترك لهذا العهد بالشرق. فإن رئاسة الكتابة عندهم، وإن كانت لصاحب الإنشاء، إلا أنه تحت يد أمير من أهل عصبية السلطان يُعرف بالدويدار، تعين لسلطان ووثوقه به واستقامته في غالب أحواله إليه، وتعييله على الآخر في أحوال لبلاغة وتطبيق المقاصد وغير ذلك من توابعها.

وأما الشروط المعتبرة في صاحب هذه الرتبة التي يحفظها السلطان في اختياره وانتقائه من أصناف الناس فهي كثيرة. وأحسن من استوعبها عبد الحميد^٥ الكاتب في رسالته إلى الكتاب وهي هذه :

ما بعد حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة، وحافظكم ووفقكم وأرسلكم فإن الله عز وجل جعل الناس بعد الأنبياء المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين. ومن بعد الملوك المكرمين أخيراً وإن كانوا في الحقيقة سوء، وصرفهم في صوف الصناعات وضروب المحاولات إلى أسباب معاشهم وتواب رزقهم. فجعلكم معشر الكتاب في شرف الجهات، أهل الأدب والمروءة والعلم والرواية. بكم تنتظم للخلافة محاسنها وتستقيم أمورها، وببصالتكم يصلح الله للخلق سلطانهم ويعمر بلادهم، لا يستغني الله عنكم، ولا يوجد كاف إلا منكم. فموقعكم من الملوك موقع أسماعهم نبي

٥ هذه رسالة مشهورة لعبد الحميد (توفي سنة ١٣١٢ هـ) بوقائع التي حثرت حرأيم بدوة لأموه) يوجد مع بعض الاختلافات النسخة في كتاب الورداء والكتاب المحشورى ص ٥٥٠
برس، در فكر صناعة وانشاء، بيروت، ١٩٨٨، ص ٥٩ ٥٨

بها يسمعون، وأبصارهم التي بها يبصرون، وألستهم التي بها ينطقون، وأيديهم التي بها يبطشون. فأمتعكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم، ولا نزع عنكم ما أضفاه من النعمة عليكم.

وليس أحد من أهل الصناعات كلها أحوج إلى اجتماع خلال خير المعمدة وخصال الفضل المذكورة والمعدودة منكم أيها الكتاب، إذا كنتم على ما يأتي في هذا الكتاب من صفتكم. فإن الكاتب يحتاج من نفسه ويحتاج منه صاحبه الذي يثق به في مهمات أموره أن يكون حليماً في موضع الحلم، فهماً في موضع الحكم، ومقدماً في موضع الإقدام، ومحجماً في موضع الإحجام، وموثراً للعفاف والعدل والإنصاف، كتوماً للأسرار، وفياً عند الشدائد، عالماً بما يأتي من النوازل، يضع الأمور مواضعها والطوارق أمكنها قد نظر في كل فن من فنون العلوم فأحكمه، فإن لم يحكمه أخذ منه بمقدار ما يكفي به. يعرف بغريزة عقله وحسن أدبه وفضل تجربته ما يرد عليه قبل وروده، وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره. فيعُدُّ لكل أمر عدته وعتاده، ويهيء لكل وجهه هيأته وعادته.

فتنافسوا يا معشر الكتاب في صنوف الأداب، وتفقهوا في الدين، واسدؤا بعلم كتاب الله عز وجل، والفرائض، ثم العربية، فإنها ثفاف ألسنتكم ثم أجيءوا، الخط. فإنه حلية كتبكم. وارووا الأشعار، واعرفوا غريبها ومعانيها، وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها، فإن ذلك معين لكم على ما تسموا إليه هممكم. ولا تضيعوا النظر في الحساب، فإنه قوام كتاب الخراج. وارعوا بأنفسكم عن المطامع، سننها ودنيها، وسفساف الأمور وصحافها، فإنها مدلة للرقاب، مفسدة للكتاب. ونزوها صناعتكم عن الدناءات، وأزبوا بأنفسكم عن السعاية والنميمة وما فيه أهل الجهالات. وإياكم والكبر والسخف والعظمة، فإنها عداوة مجتنبه من غير إحنة. وتحابوا في الله عز وجل في صناعتكم، وتواصلوا عليها بالذي هو أليق بأهل الفضل والعدل والنبس من سنفكم.

وإن بها الزمان برجل منكم فاعظفوا عليه وواسوه حتى ترجع إليه حاله
ويثوب إليه أمره. وإن أقعد أحدكم الكبر عن مكسبه ولقاء إخوانه، فزوروه
وعظموه وشاوروه واستظهروا بفضل تجربته وقديم معرفته. وليكن الرجل
منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته إليه أحوط منه على ولده
وأخيه. فإن العيب إليكم معشر الكتاب أسرع منه إلى القراء^١، وهو لكم
أفسد منه لها. فقد علمتم أن الرجل منكم إذا صحبه من يبذل له نفسه ما يجب
له عليه من حقه، فواجب عليه أن يعتقد له من وفاته وشكره واحتماله وصبره
ونصيحته وكتمان سره وتدبير أمره ما هو جزاء لحقه، ويصدق ذلك بفعله
عند حاجة إليه والاضطرار إلى ما لديه. فاستشعروا ذلك، وفقكم الله. من
أنفسكم في حالة الرخاء والشدّة والحرمان والمواساة والإحسان والسراء
وبضراء. فتمت الشيمة هذه لمن وسم بها من أهل الصاعقة الشريفة. وإذا
وُني لرحل منكم أو صيّر إليه من أمر خلق الله وعباله أمر، فليراقب ربه عز
وجل، وليؤثر طاعته، وليكن على الضعيف رفيقاً وللمظلوم منصفاً. فإن
خلق عيال الله، وأحبهم إليه أرفقهم بعياله. ثم ليكن بالعدل حاكماً،
وللأشراف مكرماً، وللقيء موقراً، وللبلاء عامراً، وللرعية مثاقفاً، وعن أداهم
متحلفاً. وليكن في مجلسه متواضعاً حليماً، وفي سجلات خراجه و ستقصاء
حقوقه رفيقاً.

وإذا صحب أحدكم رجلاً فليختبر خلّاقه، فإذا عرف حسبه وقبيحها
أعانه على ما يوافق من الحسن، واحتال لصرفه عما يهواه من القبيح بالطف
حيلة وأجمل وسيلة. وقد علمتم أن سائس البهيمة إذا كان بصيراً بسياسته
التمس معرفة أخلاقها. فإن كانت رموحاً لم يهجمها إذا ركبتها، وإن كانت شبوباً
اتقاه من قبل يديها، وإن خاف منها شروداً توقاها من ناحية رأسها، وإن كانت
حروناً قمع برفق هواها في طرفها، فإن استمرت عطفها يسيراً فيستس له
قيادها. وفي هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعملهم

(129) عد خيشاري المرأة، ويبدو أن هذه القراءة أصح من قراءة ابن خلدون

وخدمهم وداخلهم. والكتب بعصل ذبه وشريف صنعته ونظيف حيشته
ومعامته لمن يحوره من الدس ويدطره ويفهم عنه أو يخاف سطوته أو ي
بإرفق لصاحبه ومدارانه وتقويمه، يؤده من سائس لهيمة التي لا تحير جوانا،
ولا تعرف صوتا، ولا تفهم حظا، لا بقدر ما يصيرها إليه صاحبها لراكب
عبيها. ألا فارفقوا رحمكم الله في النظر، وعمو فيه ما أمكنكم من ترويه
والفكر تأمنو بإذن الله ممن صحبتهموه لنبوة ولاستقل ولجفوة، ويصير
منكم إلى الموافقة، وتصيرو منه إلى المؤخة ولشفقة، إن شاء الله.

ولا يجوز أن لرجل منكم في هيئة مجلسه ومبسه ومركبه ومطعمه ومشربه
وبذله وخدمه وغير ذلك من فنون أمره قدر حقه. فإنكم، مع ما فطسكم الله به
من شرف صنعته، خذمة لا تحمرون في خدمته على التقصير، وحفظة
لا تحتل منكم أفعال لتضييع والتبذير، وستعينو على عفافكم بالقصد في
كل ما ذكرته لكم وقصصته عليكم. واحذروا متالف السرف وسوء عتبة
لترف، فإنيهما يعقبان الفقر ويدلان لرقاب ويفضحان هلهما، ولا سيما
لكتب وأرباب الأدب.

وللأمور أشبه وبعضها دليل على بعض. فاستدلوا على مؤتلف أعمالكم
بما سبقت إليه تجربتكم. ثم اسدكوا من مسالت التدبير وضحها محجة
وأصدقها حجة وأحمدها عتبة. وعموا أن للتدبير آفة متلفة، وهو الوصف
لشغل لصاحبه عن إنقاذ عمه ورويته. فليقص الرجل منكم في مجلسه
قصد الكافي من منطقه، وليوجز في تدبئه وجوبه، وليأخذ بمجمع حججه.
فإن ذلك مصدحة لفعده ومصدحة لمتشاغل عن إكثاره. وليضرع إلى الله في
صلة توفيقه ومدده سسديده مخافة وقوعه في لعنط المصير بيده وعقبة
وإدبه. فإنه إن ظن منكم ضار أو قل قاتل إن لذي برز من جميل صنعته وقوة
حركته بما هو حصص حيشته وحسن تدبيره فقد تعرض بصره أو مقالته إلى أن
يكفه لئنه عز وجل إلى نفسه، فبصير منها إلى غير كاف، وذئب على من تأمنه

غير حاف

ولا يقل أحد منكم إنه أبصر بالأمور وأحمل نعب التدبير من مرافقه في صناعته ومصاحبه في خدمته، فإن أعقل الرجلين عند ذوي الأكتاف من رمى بالحب وراء ظهروه ورأى أن صاحبه أعقل منه وأحمد في طريقته وعسى كل واحد من العريقين أن يعرف فضل نعمة الله جل ثناؤه من غير اعتراضه، ولا تزكية لنفسه، ولا تكاثر على أخيه ونظيره وصاحبه وعشيرته وحمد الله واحب عسى الجميع . وذلك بالتواضع لعظمته والتذلل لعزته والتحدث بنعمته .

وَأَقُولُ فِي كِتَابِي هَذَا مَا سَبَقَ بِهِ الْمَثَلُ : "مَنْ تَنَزَّاهُ النَّصِيحَةُ يَنْزِمَهُ الْعَمَلُ". وَهُوَ جَوْهَرُ هَذَا الْكِتَابِ وَغَرَّةُ كَلَامِهِ بَعْدَ الَّذِي فِيهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . فَلِذَلِكَ جَعَلْتُهُ آخِرَهُ وَتَمَّمْتُهُ بِهِ . تَوَلَّاهُ اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ يَا مَعْشَرَ الطَّبَقَةِ وَالْكِتَابَةِ بِمَا يَتَوَلَّى بِهِ مِنْ سَبْقِ عِلْمِهِ فِي إِسْعَادِهِ وَإِرْشَادِهِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ إِلَيْهِ وَيَدُهُ . وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

الشرطة

وُسِّمَتْ صَاحِبُهَا لِهَذَا الْعَهْدِ بِإِفْرِيقِيَّةِ الْحَاكِمِ ، وَفِي دَوْلَةِ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ صَاحِبُ الْمَدِينَةِ ، وَفِي دَوْلَةِ الْتُرْكِ الْوَالِي . وَهِيَ وَطِيقَةُ مَرْفُوسَةٍ لَصَاحِبِ السِّيفِ فِي الدَّوْلَةِ ، وَحُكْمُهُ نَافِدٌ فِي صَاحِبِهَا بَعْضَ الْأَحْيَانِ . وَكَانَ قَدْ صُلِّ وَضَعُهَا فِي الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ لِمَنْ يَقِيمُ أَحْكَامَ الْجَرَائِمِ فِي حَارِ سِتْرَانِهَا أَوَّلًا ثُمَّ الْخُدُودِ بَعْدَ اسْتِيفَائِهَا . فَإِنَّ التُّهَمَ الَّتِي تُعْرَضُ فِي الْحَرَائِمِ لَا نَظَرَ لِمَشْرِعٍ إِلَّا فِي اسْتِيفَاءِ حُدُودِهَا ، وَلِلْمُسَيَّسَةِ النَّظَرَ فِي اسْتِبْرَاءِ مَوْجِبَاتِهَا بِقَرَرٍ يَكْرَهُهُ عَلَيْهِ الْحَاكِمُ إِذَا احْتَفَتْ بِهِ الْقَوَائِنُ لِمَنْ تَوَجَّهَ الْمَصْلَحَةُ الْعَامَّةُ فِي ذَلِكَ فَكَانَ لَدِي يَقُومُ بِهَذَا الْاسْتِبْرَاءِ وَبِاسْتِيفَاءِ الْحُدُودِ بَعْدَهُ إِذَا تَنَزَّاهُ عَنْهُ الْقَاضِي يُسَمَّى صَاحِبَ الشَّرِطَةِ . وَبِمَا جَعَلُوا إِلَيْهِ النَّظَرَ فِي الدِّمَاءِ وَالْحُدُودِ

* وُسِّمَتْ لِهَذَا الْعَهْدِ الْحُكُومَةُ [١] ، [ب]

** مُنْطَبِعٌ مِنْ هَذَا بَنَى آخِرَ اقْتِرَافِهِ لَمْ يَرِدْ فِي [١] وَ[ب]

بإطلاق، وفرديه من نظر القاضي ونوهو بهذه لئلا وقبوه كابر نقواد
وعظماء خاصة من مواليهم. ولم تكن عامة السعيد في طبقات الناس، بل
كان حكمه على لدهماء وأهل الربيع. ونصرت على أيدي الدعاة
والفجرة.

ثم عظمتم نبهتهم في دولة بني أمية بالأندلس ونوعت إلى شرطة كبرى
وشرطة صغرى. وجعل حكم الكبرى على الخاصة ولدهماء، وجعل له حكم
على ذوي المراتب السلطانية والضرب على أيديهم في الظلمات وعلى أيدي
أقاربهم ومن إليهم من أهل جهه. وجعل صاحب الصغرى مخصوصاً
بالعامة. ونصب لصاحب الكبرى كرسي بباب دار لسلطان. ورجل يتبوؤون
المقاعد بين يديه، فلا يبرحون عنها إلا في تصريفه. وكنت ولايتها للأكابر من
رجال الدولة حتى كانت ترشيحاً للوزارة وخجابه.

وأما في دولة الموحدين بالمغرب، فكان لها حظ من لتنويه، وإن لم
يجعوه عامة. وكان لا يبيها إلا رجالاً الموحدين وكبراهم، وبه يكن له
التحكم على أهل المراتب السلطانية. ثم فسد ليوم منصبها، وخرجت عن
ولاية رجال الموحدين وصارت ولايتها لمن قام به من المصطنعين.

وأما في دولة بني مرين لهذا العهد بالمغرب، فولايتها في بيوت من
مواليهم وأهل اصطناعهم.

وفي دولة الترك بالمشرق في رجالاً لترك وأعقاب أهل الدولة قبهم من
الكرد، يتخيرونهم لها في القطرين^{٣٠} بما يظهر منهم من الصلابه والمضاء في
الأحكام لقطع مود الفساد وحسم أسباب الدعرة وتخريب مواطن الفسوق

^{٣٠} الشرطة ونوهوا [ب].

^{٣١} وقبوه مواليهم الخاصين بهم ولم [ب].

^{٣٢} هذا تنتهي حكمة في [ب].

^{٣٣} نصرت على أيدي الدعاة في شرطة [ب].

^{٣٤} الموعود على أيديهم مود الفساد وحسم أسباب الدعرة وتخريب مواطن الفسوق
نشر في سنة ١٢٠٠

وسيريق مجامعه، مع إقامة الحدود الشرعية والسياسية كما تقتضيه رعية المصالح العامة في المدينة. والله مقلب الليل والنهار^(١).

قيادة الأساطيل

وهي من مراتب الدولة وخضطها في ملك المغرب وإفريقية، ومروسة لصاحب السيف وتحت حكمه في كثير من الأحوال. ويُسمى صاحبها في عرفهم باسم أُلُنْد، بتفحيم اللام، منقولاً من لغة الإفرنجية^(٢)، فإنه اسمها في اصطلاح لغتهم.

وإنما اختصت هذه الرتبة بملك إفريقية والمغرب لأنهما جميعاً على ضفة لبحر الرومي من جهة الجنوب. وعلى عدوته الجنوبية بلاد البربر كهم من سبتة إلى إسكندرية إلى الشام، وعلى عدوته الشمالية بلاد الأندلس والإفرنجية والنصقلية والروم إلى بلاد الشام أيضاً. ويسمى البحر الرومي ولشامي، نسبة إلى أهل عدوته والساكنون سيف هذا البحر وسواحلها من عدوتية، يعانون من أحواله ما لا تعانيه أمة من أمم البحار.

فقد كانت الروم والإفرنجية والقوط بالعدوة الشمالية من هذا البحر لرومي، وكانت أكثر حروبهم ومتاجرهم في السفن، فكانوا مهرة في ركوبه والحرب في أساطيله.

ولما أسف منهم من أسف ملك العدو الجنوبية مثل الروم إلى إفريقية، والقوط إلى المغرب، أجازوا في الأساطيل وملكوها وتغلبوا على البربر بها، ونزعوا من أيديهم أمرها. وكان لهم بها المدن الحافلة مثل قرطاجنة،

(١) ٢٣١ هـ ٨٤٤ م سورة البقرة.

(٢) وإفريقية ويسمى [أ]، [ب]

(٣) باللغة القبطية - calmarant، وباللغة القشتالية - almirante، انظر

R. Brunschwig, *La Berbérie orientale sous les Hafsides*, Paris, 1947 II 94

** مثل الإفرنجية بإفريقية [أ] - [ب]

وسُيْطَلَّة، وِخْلُولَا، ومِرْثَاق، وشرشال، وِطْنَجَة. وكان صاحب قرطاجنة من قبلهم يحارب صاحب رومة ويبيح الأساطيل بحربه مشحونة بالعساكر ولعدد. فكانت هذه عادة لأهل هذا البحر الساكنين حفافيه، معروفة في القديم والحديث.

ولما مكث المسلمون بمصر، كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص أن صيف لي لبحر. فكتب إليه: "إن البحر خلق عظيم يركبه خلق ضعيف، دود على عود، فأوعز حينئذ بمنع المسلمين من ركوبه. ولم يركبه أحد من العرب إلا من هتت على عمر في ركوبه ونال من عقابه، كما فعل بَرْقَجَة بن هَرْثَمَة لأردى، سيد بَجِيلَة لما أغراه عُثْمَان، فبلغه فأنكر عليه وعنفه أنه ركب البحر لعزو. ولم يزل الشأن ذلك حتى إذا كان لعهد معاوية أذن للمسلمين في ركوبه والجهاد على أعواده.

والسبب في ذلك أن العرب لبداوتهم لم يكونوا أول الأمر مهرة في ثقافته وركوبه والروم والفرنجة لمارسهم أحواله ومرباهم في انقلب على أعواده مَرُونَا عليه وأحكموا الدرية بثقافته.

فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم وصارت أم العجم حولاً لهم وتحت أيديهم، وتقرب كل ذي صنعة إليهم بمبلغ صناعته، واستخدموا من لنوائية في حاجاتهم البحرية أُمَمَاء وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته، ستحدثوا بَصَرًا بها فشرهوا إلى الجهاد فيه، وأنشؤوا السفن والشواري وشحنوا لأساطيل بالرجال والسلاح. وأمطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أُمَمٍ أنكر^(١). واختصوا لذلك من ممالكهم وغورهم ما كان قرب إلى هذا البحر وعلى صفته مثل الشام وإفريقية، والمغرب، والأندلس.

^(١) فبلغه غزوه في البحر فأنكر [١]، [ب]

^(٢) وأمطوها المقاتلة [١]، [ب].

١٤٦١ استعمل العرب أولاً المنشآت البيزنطية، فوجوده في سورية ومصر. وبعد عدد من الانتصارات، تمكن المسلمون من انتزاع السيطرة على شرق البحر الأبيض المتوسط من يد البيزنطيين. وكانت دفعة ذات السواري في ساحل ليبيا في سنة 655/34 م أبرز هذه الانتصارات

وأوعز الخليفة عبد الملك إلى حسد بن النعمان، عامل إفريقية، باتخاذ در صندعة بتونس لإنشاء الآلات البحرية حرصاً على مرسوم الجهاد. ومنها كان فتح صقلية أيام زيادة الله الأول ابن إبراهيم بن الأغلب على يد أسد بن الفرات، شيخ الفتية. وفتح قوصرة^١ أيضاً في أيامه بعد أن كان معاوية بن حديج غزى صقلية أيام معاوية بن أبي سفيان فلم يفتح له على يده، وفتحت على يد بن الأغلب وقائده أسد بن الفرات. وكانت من بعد ذلك أساطيل إفريقية ولأندلس في دولة العبيديين ولأمويين تتعاقب إلى بلادهما في سبيل الفتن، فتجوس خلال السواحل بالفساد والتخريب. وانتهى أسطول الأندلس أيام عبد الرحمن الناصر إلى مائتي مركب ونحوها، وأسطول إفريقية كذلك مثله أو قريب منه وكان قائد لأساطيل الأندلس ابن رُمحيس، ومرفؤها يُلحظ والإقلاع بحدة والمربة وكست أساطيلها محتمة من سائر السمات، من كل بد تتحد فيه سفر أسطول يرجع بطره إلى قائد من لوبية يدبر أمر حربه وسلاحه ومقننته، ويس يدبر أمر حربيته بالريح أو بالحدوف وأمر رسائه في مرفئه. فإذا حتمت لأساطيل لغزو محتفل أو عرص سلطاني مهم، عسكرت بمرفتها المعلوم. وشحنها لسفن رحائه واتحاد عساكره وموابيه، وجعلهم لطر أمير واحد من أعلى صفات أهل مملكته يرجعون كلهم إليه. ثم يسرحهم بوجههم وينتظرونهم بالفتح والغنيمه. وكان المسلمون لعهد لدولة الإسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه^٢، وعظمت صولتهم وسطنتهم فيه، فلم يكن للأمم النصرانية قبل

^١ ولأندلس. فكانت لأساطيل إفريقية لعهد الأغالبة وأوعز [١]، [ب].

^٢ حسد بن النعمان، باتخاذ [١]، [ب].

[34]، هي Pante, era، واسمه عربي قوصرة من Cusya، وهو لاسم القديس لهد، جزيرة

^٣ هـ تنتهي جمعة في [١] و [ب]

^٤ بالمجادل فاد [١]، [ب]

^٥ ثم يسرحهم بوجههم وينتظرونهم [١]، [ب]

[١٦٩]، في حقيقة، رغم عدد كبير من الهجمات على روما وسببية وجودة أنه يمكن لسمو في أي وقت أن يسير سيرة زامة على لصلته لشده

بأساطيلهم في شيء من جوانبه. وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم وكانت لهم لقامات المعلومة من الفتح والغنائم. وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن لسو حل فيه مثل مَبُورَقَة، ومَبُورَقَة، وبَابِسة، وسَرْدَانِيَة، وصِقْلِيَة، وقَوْصَرَة، ومَالُصَة، وإقْرِيطُش، وقُبْرُص، وسائر عمالك الروم والفرنج. وكان أبو القاسم لشيعة وأبناءؤه يغزون أساطيلهم من المَهْدِيَة جزيرة جَنْوَة، فتقلب بالظفر والغنيمة. وأفتح مُجَاهِد العُمري، صاحب دَانِيَة من ملوك الطوائف، جزيرة سَرْدَانِيَة في أساطيله سِتة خُمس وأربع مائة. وارتجعها النصارى لوقتها.

والمسيون خلال ذلك كله قد تغنَّبوا على الأكثر من لجة هذا البحر وسارت أساطيلهم فيه جائية وذاهبة، والعساكر الإسلامية تُجيز البحر في الأساطيل من صقلية إلى البر الكبير المقابل لها من العدو الشمالية، فتوقع عموك الفرج وتشنخ في ممالكهم كما وقع في أيام بني أبي الحسين، منوك صقلية لقايمين فيها بدعوة العبيديين. وانحازت أم النصرانية بأساطيلهم إلى الجانب الشمالي الشرقي منه من سواحل الإفرنجية والصقلية وجزائر الرومانية. لا يعدونها. وأساطيل المسلمين قد ضريت عليهم صري الأسد فريسته. وقد ملأت الأكثر من بسيط هذا البحر عدة وعديدا، واحتشفت في طرقه سلما وحربا. فلم تسبَح للنصرانية فيه ألواح.

حتى إذا أدرك الدولة العبيدية والأموية الفشل والوهن وطرقه الاعتلال، مدَّ لنصارى أيديهم إلى جزائر البحر الشرقية مثل صقلية وإقْرِيطُش وملطة فمدكوه، ثم أخوا على سواحل الشام في تلك الفترة وملكوا طرابلس وعسقلان وصور وعكا، واستولوا على جميع الثغور بسواحل الشام، وغلبوا على بيت المقدس، وبنوا^{١١١} كنيسة لمظهر دينهم وعبادتهم، وغلبوا بني

* وداهبة وأساطيلهم من صقلية قد صيرت على أهل البر الكبير من العدو الشمالية وانحازت [١]، [ب]

** يظهر [١]، [ب]

١١١ النصر، فاستولوا عليها. وغلبوا على بيت المقدس، وسوا [١]، [ب]

حرزوا على طرابلس، ثم على قايس وصفاقس، ووضعوا عليهم حزى ثم منكو لمهدية. مقرر ملك العبيدين من يد أعقاب بُنْكِيَّ بن ريري وكنت لهم في المائة الخامسة الكرة بهذا البحر. وضعف شأن الأساطيل في دولة مصر والشام إلى أن انقطع. ولم يعنوا بشيء من أمره لهذا العهد بعد أن كن لهم به في الدولة العبيدية عناية تجاوزت الحد كما هو معروف في أخبارهم. وبطل رسم هذه الوظيفة هنالك، وبقيت بإفريقية والمغرب، فصارت مختصة بها.

وكن الجانب الغربي من هذا البحر لذلك العهد موفور الأساطيل، ثبت القوة، لم يتحيفه عدو، ولا كانت لهم به كرة. فكان قائد الأسطول له العهد لتوبة بنو ميمون. رؤساء جزيرة قادس، ومن أيديهم أحدهم عبد المؤمن تسليمهم وطاعتهم. وانتهى عدد أساطيلهم إلى المائة من بلاد العدو بن جميعا

ولما استفحلت دولة الموحدين في المائة السادسة وملكوا العدو بنين. أقامو حطة هذا الأسطول على أتم ما عُرِف وأعظم ما عُمِد. وكان قائد أساطيلهم أحمد النصلي من صدغيان، المولدين بجزيرة جربة من سبثويكش. أسرهم النصاري من سواحلها وربى عندهم، واستخلصه صاحب صفيية واسكنه. ثم هلك وولي ابنه، فأسخطه ببعض النزعات، وخشي على نفسه، فحق بتونس ونزل على السيد بها، من بني عبد المؤمن. وأجار إلى مراکش. فتلقيه الخليفة يوسف العسري بن عبد المؤمن بالميرة^{***} والكرامة، وأجزل له الصنة، وقلده أمر أساطيله. فجل في جهاد أم النصراية، وكانت له آثار ومقامات مذكورة في دولة الموحدين.

* من يد بني ملوكي [أ]، [ب]

** انقطع من هنا إلى آخر الميزة له يرد في [أ]، [ب]

*** الموحدين وملكوا [أ]، [ب].

**** العسري بالميرة [أ]، [ب]

و انتهت أساطيل لمسلمين على عهده في الكثرة والاستحداة ما لم تدعه من قبل ولا من بعد فيما عهدها. ولما قام صلاح الدين يوسف بن أيوب، ملك مصر واشام لعهد، باسترجاع شعور لشام من يد الأحم الصراية وتصهير بيت المقدس من رجس الكفر وبذائه، تابعت "أساطيلهم الكفرية بالمدد لتلك لشغور من كل ناحية، قرية لبنت المقدس الذي كانوا قد استولوا عليه فأمدوهم بالعدد والأقوات، ولم تقاومهم أساطيل الإسكندرية لاستمرار الغلب لهم في ذلك لجنب لشرقي من البحر وتعدد أساطيلهم فيه وضعف المسلمين منذ زمن طويل عن ممانعتهم هنالك، كما أشرنا إليه قبل. فؤوفد صلاح الدين على يعقوب المنصور، سلطان مغرب لعهد من الموحدين، رسوله عبد الكريم بن مُقْدَد، من بيت بني منقذ، موك شيرز³⁶، وكان مكمها من أيديهم وأبقى عليهم في دولته. فبعث عبد الكريم هذا منهم إلى ملك مغرب طالبا "مدد الأساطيل لتحول في البحرين أساطيل الكفرة وبين مرادهم من إمداد لنصرانية بشغور الشام. وأصحبه كتابه إليه في ذلك من إنشاء الفضل لببساني يقول في افتتاحه : فتح الله لحضرة سيدن بوب المناجح وليامن، حسبما نقله العماد الإصبهاني في كتاب الفتح القدسي³⁷، فنقم عليهم المنصور تجفيفهم عن خطابه بأمر المؤمنين، وأسرّها في نفسه، وحبسهم³⁸ على مناهج البر والكرمة، وردّهم إلى مرسلهم، ولم يجبه إلى حاجته من ذلك. وفي هذا اختصاص³⁹ ميث المغرب بالأساطيل.

* صلاح الدين بن أيوب [ب]، [ب]

** توفرت [أ]، [ب]

36 يشير بن حمدون إلى نفس موضوع في التعريف.

*** عبد الكريم بن منقذ، طالبا [ب]، [ب]

37 الفتح القدسي لى لفتح لقدس، بهر محمد محمود صبح، القاهرة، 969. لأن هذه السنة

سي ذكرها ابن حمدون، لا توجد في كتاب

نفسه. وم يدها لهم، وحبسهم [ب]، [ب]

*** وردهم دون حاجته، وفي هذا دليل على اختصاص [ب]، [ب]

وما حصل لسبب انية في الجانب الشرقي من هذا البحر من الاستطانة ، وعدم
عناية الدول بمصر والشام لذلك العهد وما بعده بشأن الأساطيل البحرية
والاستعداد منها للدول .

و هـ هـك يعقوب المنصور واعتلت دولة الموحدين واستولت ثم خلافة
على لأكثر من بلاد الأندلس وأجأوا المسلمين إلى سيف البحر ومنكروا الجزائر
التي بالجانب الغربي من البحر الرومي ، قويت ربحهم في سيطر هذا البحر
واشدت شوكتهم وكثرت فيه أساطينهم ، وتراجعت قوة المسلمين فيه إلى
لمساواة معهم ، كما وقع لعهد السلطان أبي الحسن ، ملك زناتة بالمغرب . فبن
أساطينه كانت عند مرأه الجهاد في مثل عدة انتصراية وعبيدهم . ثم
تراجعت عن ذلك قوة المسلمين في الأساطيل . لضعف الدولة ونسب عوائد
البحر بكثرة العوائد البدوية بالمغرب وانقطاع العوائد الأندلسية . ورجع
النصري فيه إلى دينهم المعروف من اندرة فيه والمران عليه والبصر بأحواله ،
وغيب الأهم في لجته وعلى أعواده ، وصار المسلمون فيه كالأحزاب لإقبلا
من أهل البلاد الساحلية لهم المران عليه لو وجدوا كثرة من الأنصار ولأعون ،
أو قوة من الدول تستجيش لهم أعوانا وتوضح لهم في هذا الغرض مسنكا .
وبقيت الرتبة لهذا العهد في الدول المغربية محفوظة الرسم في معدة
الأساطيل بالإنشاء والركوب ، معهودا لما عماء تدعو إليه حاجة من
لأغراض السلطانية في البلاد البحرية ، والمسلمون يستهينون الرياح على الكفر
وأهله . فمن المشتهر بين أهل المغرب عن كتب الخدثان أنه لا بد للمسلمين من
الكرة على نصراية وافتتاح ما وراء البحر من بلاد الإفريقية . وأن ذلك
يكون في الأساطيل .

والله ولي المؤمنين .¹³⁸

هـ هـك يعقوب المنصور في [1] د [ب]

138 الأمم . وصار [1] ، [ب]

139 محروطة هـ عماء [1] ، [ب]

140 من ملادهم . وأن [1] ، [ب]

138 هـ 68 من سورة آل عمران

[33] في التفاوت بين مراتب السيف والقلم في الدول

عدم أن السيف والقلم كلاهما آلة لصاحب الدولة يستعين بها على أمره. إلا أن الحاجة إلى سيف في أول الدولة ما دام أهلها في تمهيد أمرهم ثم من الحاجة إلى لقلم، إذ لقلم في تلك الحال خدام فقط، منفذ للحكم لسلطاني، ولسيف شريك في المعونة.

وكذلك في آخر الدولة حيث تضعف عضبيتها كما ذكرناه، ويقل أهميتها ينالهم من الهرم الذي قدمناه. فتحتاج لدولة إلى الاستظهار بأرباب السيوف، وتقوى الحاجة إليهم في حماية لدولة والمدافعة عنها كما كان الشأن أول الأمر في تمهيدها. فتكون للسيف منزلة في الحالتين على لقلم، ويكون أرباب السيف حينئذ أوسع جهات وأكثر نعمة وأسمى إقطاعاً. وأما في وسط الدولة، فيستغني صاحبها بعض الشيء عن السيف، لأنه قد تمهّد أمره ولم يبق همه إلا في تحصيل ثمرات الحكمة من الجباية، ولضبط، ومساهمة الدول، وتنفيد الأحكام ولقلم هو معين له في ذلك فتعظم حاجته إلى تصريفه، وتكون السيوف مهمة في مصاحبه عموده إلا إذا دب دمه، أو دُعيت إلى

سد فرجة وما سوى ذلك، فلا حاجة إليها فيكون أرباب الأعلام في هذه
حالة واسع حائها وعنى رتبة وعظم نعمه وثروته، وأقرب من لسطار
مجلس وأكثر إسه تردداً وفي خيواته نجياً، لأنه حينئذ أنه نتي يستظهر بها على
تحصيل ثمرات منكه، والنظر في أعطائه، وتثقف طرفه، والمباهة بأحواله.
ويكون الوزراء حينئذ وأهل السيف مستغنى عنهم، مبعدين عن باطن
السلطان، حذرين على أنفسهم من بؤره. وفي معنى ذلك ما كتب به أبو
مسلم لمنصور حين أمره بالقدوم : «م بعد، فإنه مما حفظناه من وصايا
لفرس : أخوف ما يكون للوزراء إذا سككت الذهب»^١ . سنة الله في عباده.

^١ «كتب أبو مسلم» [ب]

١٢٠ مصر مصري، تاريخ، ج ٢، ص ٤٨٦

[34] في شارات الملك والسلطان الخاصة به

اعلم أن للسلطان شارات وأحوالاً تقتضيها الأبهة والبذخ، فيحتصُّ به ويتميَّز بانتحالها عن الرعية والبطانة وسائر الرؤساء في دولته. فلنذكر ما هو مشتهر منها بمبلغ المعرفة. وفوق كل ذي علم عليم⁽¹⁴⁰⁾.

الألة

فمن شارات الملك اتخاذ الألة من نشر الألوية والرايات، وقرع الصول. والنمخ في الأبواق والقرون. وقد ذكر أرسطو في الكتاب المنسوب إليه في لسياسة⁴ أن السرف في ذلك إزهاب النفوس بالروعة. ولعمري إنه أمر وجدني في مواطن الحروب. يجده كل أحد من نفسه. وهذا السبب الذي ذكره أرسطو، إن كان ذكره، فهو صحيح ببعض الاعتبارات. وأما الحق في ذلك فهو أن النفس عند سماع النغم أو الأصوات يدركها الفرح ولطرب بلا

(140) آية 76 من سورة يوسف.

⁴ الملوك الألة (1). [ب]

(141) انظر سر الأسرار، الذي نشره عبد الرحمن بدوي ضمن

150 *Fontes Graecae doctrinarum politicarum Islamicarum*، القاهرة، 1954، ص

ثم إن الملوك والدول يختلفون في اتخاذ هذه الشارات. فمن أكثر ومتنوع بحسب اتساع الدولة وعظمتها.

فأم الرايات، فإنها شعار الحروب منذ عهد الخليفة. ولم تزل كل الأمم تعقده في مواطن الحروب والغزوات، ولعهد النبي صلى الله عليه وسلم ومن بعده من الخلفاء.

وأما قرع الطبول والنفخ في الأبواق، فكان المسلمون لأول مرة متجفين عنه، تنزهًا عن غلظة الملك ورفضًا لأحواله واحتقارًا لأبته التي لبست من الحق في شيء. حتى إذا انقلبت الخلافة ملكًا وتحسحوا زهرة الدنيا ونعيمها، ولا يسهم الموالي من الفرس والروم، أهل الدول السالفة، وأزوتهم ما كان أولئك يتحلون من مذاهب البذخ والترف، فكان مما استحسوه اتحاد الآلة، وادنو العمالهم في اتخاذها تنويهاً بالملك وأهله. فكثيراً ما كان العامل صاحب الثغر أو قائد الجيش يعقده الخليفة من العباسيين أو العبيديين لواء، ويخرج إلى بعثه أو عمله من دار الخليفة أو داره في موكب من أصحاب الرايات والآلة، فلا تميز بين موكب العامل والخليفة إلا بكثرة الألوان وقلة، أو بما اختص به الخليفة من الألوان لرايته، كالسواد في رايات بني العباس. فإن رايتهم كانت سوداء، حزنًا على شهدائهم من بني هاشم، ونعيًا على بني أمية في قتلهم ولذلك سموها "المسودة". ولما افترق أمر الهاشميين. وخرج الضالبيون على العباسيين في كل جهة وعصر، ذهبوا إلى مخالفتهم في ذلك، فاتخذوا الرايات بيضاء وسموها "البيضة" لذلك سائر أيام العبيديين. ومن خرج من الطائفتين في ذلك العهد بالشرق كالداعي بطبرستان، وداعي صعدة، أو من دعا إلى بدعة الرافضة من غيرهم كالقرامطة. ولما نزع المأمون عن لبس السواد وشعاره في دولته عدل إلى لون الخضرة، فجعل راياته خضراء.

* البحث (1)، [ب].

وأما الاستكثار منها فلا ينتهي إلى حد. وقد كانت آلة العبيدين مخرج العزيز نزار إلى فتح الشام خمسمائة من البنود وخمسمائة من الأتوق. ومملوك كبير بالمغرب من صنهاجة وغيرهم، فلم يحتصر بلون واحد، بل وشعروها بالذهب. واتخذوها من الحرير الخالص ملونة، واستمروا على الإذن فيها لعمالهم. حتى إذا جاءت دولة الموحدين ومن بعدهم من زناتة، ففصروا آلة من المطبول والبنود على السلطان. وحظروها على من سواه من عماله، وجعلوها موكبا خاصا يتبع أثر السلطان في مسيره يسمى السقة. وهم فيه بين مكث ومقل باختلاف مذاهب الدول في ذلك. فمنهم من يقتصر على سبع من العدد تبركا بالسبعة، كما هو في دولة الموحدين وبني الأحمر بالأندلس. ومنهم من يبلغ العشرة والعشرين، كما عند زناتة. وقد نعت أيام نسلطان أبي الحسن، فيما أذكرناه، مائة من الطول ومائة من البنود، مائة من الحرير، منسوجة بالذهب، ما بين كبير وصغير. ويأذنون للوالة والعمد والفقود في اتخاذ راية واحدة صغيرة من الكتان بيضاء. وطويل صغير أيام الحرب، لا يتجاوزون ذلك.

وأما دولة الترك لهذا العهد بالمشرق. فيتخذون أولا راية وحدة عظيمة، وفي رأسها خصلة كبيرة من الشعر. ويسمون الجاليش وجرتر. ومع عسكر على عمومته ثم على رأس السلطان راية أخرى تسمى العصبة والشطفة، وهي شعار السلطان عندهم. ثم تتعدد الرايات ويسمونها لسانحق، واحدها سنحق. وهو الراية بلسانهم. وأما المطبول فيبالعون في الاستكثار منها ويسمون الكوسات. ويبيعون لكل أمير أو قائد عسكر أن يتخذ من ذلك ما شاء، إلا العصبة، فإنه خاص بالسلطان.

عبيدين، مخرجوا إلى فتح الشام [ب]

مقصود حول دولة الترك ثم يرد في [أ]، [ب]

(144) الجاليش، والجتر، والكوس، كلمات فارسية.

49. يذكر بنفشندي في صبح الأعشى أن العصبة هي راية من الحرير الأصفر. من كشة بالذهب

(صبح الأعشى، طبعه القاهرة 1331 1338 1913 1919، ج 4، ص 8)

وَأَمَّ خَلِيفَةُ هَذَا الْعَهْدِ مِنْ تَمَّ الْإِفْرَاجَةَ بِالْأَنْدَلُسِ، فَكَثُرَ شَأْنُهُمْ، وَتَحَدَّ
لَأُتُوبَةِ الْقِسْبَةِ ذَهَبَةً فِي أَحْوِ صُعْدًا، وَمَعَهَا قِرْعُ الْأَوْتَارِ مِنَ الطَّبِيرِ وَنَجَّحَ
لِعِطَاتٍ، يَدْهَبُ فِيهَا مَدَّهَبٌ لَعْدًا وَصَرِيفَةً فِي مَوْطِنِ حَرَوِيهِمْ هَكَذَا، سَعْنَا
عَلَيْهِمْ وَعَمَّسَ وَرَأَاهُمْ مِنْ مَبُوكِ الْعَحْمِ وَفِي حَقِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَحَتْلَافِ أُنْسَتِكُمْ وَتَوَاكُمِ أُنْتُ لِلْعَامِينَ .

السريـر

وَأَمَّ السَّرِيرَ وَالْمَرْوَةَ وَنَحْتِ وَالْكَرْسِيَّ، وَهُوَ عُودٌ مَصْنُوعَةٌ وَرُثْكَةٌ
مَصْنُوعَةٌ جُلُوسُ اسْتِطْصَانِ عَيْنِيهَا مَرْتَعًا عَنْ أَهْلِ مَجْدِسِهِ، يُوسَاوِيهِمْ فِي
الْمُصْعِيدِ وَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ مِنْ سِرِّ الْمَلِكِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَفِي دَوْرِ الْعَحْمِ وَقَدْ
كَانُوا يَحْسَبُونَ عَلَى سُورَةِ نَدَبٍ وَكَانَ نَسِيمًا بِنَ دَاوُدَ صَوْتِ اللَّهِ عَلَيْهِ
سَرِيرٌ مِنْ عَرَجٍ مُغْشًى بِالذَّهَبِ . لِأَنَّهُ لَا تَأْخُذُ بِهِ لِدَوْرٍ إِلَّا بَعْدَ الْاسْتِغْنَاءِ
وَيَتَرَفَّ، شَأْنُ الْأَهْلِ كَمَا قَبْلَهُ وَأَمَّ فِي أَوَّلِ الدَّوْلَةِ عِنْدَ الْبِدَاوَةِ، فَلَا
يَتَشَوَّفُونَ إِلَيْهِ .

وَأَمَّ مِنْ تَحْدِهِ فِي الْإِسْلَامِ مَعَاوِيَةَ، وَاسْتَأْذَنَ إِلَيْهِ، وَقَالَ لَهُمْ : إِيَّيْ
قَدْ نَدَيْتَ فَدَبُّوْا لَهُ، فَاتَّحَدَهُ، وَتَعَهُ مَبُوكِ الْإِسْلَامِيِّ فِيهِ وَصَارَ مِنْ مَنَارِعِ
الْأَهْلِ .

وَأَمَّ كَذَلِكَ عَمْرُوسُ الْعَاصِ مَصْبُوحٌ يَجْلِسُ فِي قَصْرِهِ عَلَى الْأَرْضِ مَعَ
الْعَرَبِ، وَيُتَبَّعُهُ مُنَوَقِّسٌ إِلَى قَصْرِهِ وَمَعَهُ سَرِيرٌ مِنَ الذَّهَبِ مَحْمُولٌ عَلَى
لَا يُتَبَّعُهُ خَمْسَةٌ، شَأْنُ الْمَلُوكِ، وَيَحْسَبُ عَلَيْهِ وَهُمْ مُأَمَّةٌ، وَلَا يَعِيرُونَ عَلَيْهِ، وَفَاءٌ
لَهُ مِمَّا عَتَقَتْ مَعَهُمْ مِنْ أَدَمَةٍ، وَظَرَحًا لِأَهْلِهِ الْمَلِكِ ثُمَّ كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ سَيِّ

وَأَمَّ مَعَهُ لِهَذَا الْعَهْدِ مِنْ تَمَّ خَلِيفَةُ، فَأَكْثَرَ []، [ب]

إِي [] و [ب]، خَلِيفَةُ مَحْمُودَاتٍ لَأَحْرَى، يَنْتَعِ هَذَا مَقْطَعٌ مَقْطَعٌ لِدِي حَمَلِ عُودٍ مَصْنُوعَةٍ،
ثُمَّ إِيَّاهُ مَقْطَعٌ مَقْطَعٌ لِدِي حَمَلِ عُودٍ سَرِيرٍ ظَرِيفَةً لِحَاظِهِ لِلْمَقْدَمَةِ، ح 4، ص 1، 2.

** وَالْمَرْوَةَ وَهُوَ عُودٌ []، [ب]

*** هَذِهِ مَقْدَمَةٌ بِدِي []، [ب]

نُعَسِّسُ وَلِغُلَامَيْنِ مِنْهُمْ أَمُوكَ الْإِسْلَامُ شَدِيدٌ وَعَرَبٌ مِنْ الْأَسْرَةِ وَمَسِيرٌ
وَلُنُحُوتٌ مَعَهُ عَنِ الْأَسْكِرَةِ وَتَقْبِصَةٌ وَمِنْهُ مُنْجَبُ الْبَيْلِ وَنَهَارٌ^١

السكة

وهي احتتم على مسير ولدراهم تتعاض بها بين الناس صاع جديد
تُنْقَشُ فِيهِ صُورٌ وَكُتِبَتْ مَعْنُوَّةٌ، وَيُضْرَبُ بِهَا عَلَى الْبَيْدِ وَالدَّرْهِمِ
فَيُخْرِجُ رَسْمَهُ بِكُتُوبِهَا عَشْرُ طَهْرَةٍ مُسْتَقِيمَةٍ، عَدُّهُ يَعْصِرُ عِدْرُ سَفَدٍ
مِنْ ذَلِكَ خُمُسٌ فِي حَبْوَةِ الْبَيْدِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى، وَبَعْدَ تَقْدِيرِ أَشْخَاصٍ
لِلدَّرْهِمِ وَالدَّرَاهِمِ يُولَى مَعْنَى يُضْطَرِّحُ عَنْهُ، فَيَكُونُ تُعَامَلُ بِهَا عَدْدًا، وَإِنْ لَمْ
تُقَدَّرْ أَشْخَاصُهَا يَكُونُ التَّعَامَلُ بِهَا وَرَأَى

وَنُقِطَ سَكَّةٌ كَالسَّكِّ لِلصَّاعِ، وَهِيَ خَدِيدَةٌ بَلْتُ لَمْ تَقْلُ إِلَى
تَرْدِهَا، وَهِيَ تُنْقُوشُ ثَمَنَةً عَلَى الدَّرْهِمِ ثُمَّ تَقْلُ إِلَى التَّجْمَعِ عَلَى
ذَلِكَ وَلِنُقِطَ فِي سَفَدٍ حَاجَتُهُ وَتَقْبِصَةٌ، وَهِيَ تُوصَفُ، فَصَدْرُهَا عَنِهَا فِي
عُرْفِ الدَّرْهِمِ وَهِيَ طَبَقَةٌ صَرُورَةٌ لَمَنْعِهَا، بِهَا يَنْمِيزُ أَحْتَمِلُ مِنْ لُجُوحِ
بَيْنِ الْأَسَاسِ فِي التَّقْوِدِ عَنِ الْمَعْمَلَاتِ وَيَقْبُورُ فِي سَلَامَتِهَا مِنْ أَعْيَاشِ بَحْتِهَا
سَلْبُطٌ عَلَيْهَا بَلْتُ الْقُشُوفِ الْمَعْرُوفِ

وَكُنْ مَبُوكٌ التَّعْجَمُ بِتَحْدِيدِهَا وَيُنْقُشُونَ فِيهَا عَدْلٌ تَكُونُ مَخْصُوصَةً بِهَا
مِثْلَ تَمَازُجٍ نَسْبُطٍ نَعْمَ هَذَا، وَتَمَازُجٍ حَصْنٍ وَحَبْوَةٍ أَوْ مَصْصُوعٍ، وَعَرَبٌ
ذَلِكَ وَلَمْ يَرَلْ هَذَا شَيْئًا عِنْدَ عَجَمِهِ إِلَى حَرِّ أَمْرِهِمْ، وَبِحَاءِ الْإِسْلَامِ،
عَمِلَ ذَلِكَ لِمَسَادِحَةِ الدَّرْهِمِ وَبِدَاوَةِ الْعَرَبِ وَكَتَبُوا بِتَعْمُودٍ بِالْأَدَبِ وَالْقَصَّةِ
وَزُنْ وَكَتَبَتْ دَائِرَةُ الْفَرَسِ وَدَرَاهِمُهُمْ يَبْدُو بِهَا رَدُّوهُ فِي مَعْمَلِهِمْ إِلَى
لَوْرٍ وَيَتَصَدَّقُونَ بِهَا بَيْنَهُمْ إِلَى أَنْ يَفْشَحَ أَعْيَاشُ فِي الدَّرْهِمِ وَالدَّرْهِمِ لَعْنَةُ

١ به 4 من سورة ب

نظر في نسخة في [أ] [ب] حذفت حذفت من عن نظر من نسخة في [ب] لا حذفت نظر
نسخة حذفت نسخة، ح ١٠ ص ١١

الدولة عن ذلك، وأمر عبد الملك الحجاج، على ما نقل سعيد بن المسيب وأبو
لزاد، فصرب الدرهم، وتميز المعشوش من الخالص، وذلك سنة أربع
وسعين، وقال المذنب، في سنة خمس وسعين، ثم أمر بصرها في سائر النواحي
سنة ست وسعين، وكتب عليها "الله أحد لله صمد

ثم ولي ابن هيرة العرق أيام يزيد بن عبد الملك، فحوذ السكة ثم باع
خلد لقسري في تجويدها، ثم يوسف بن عمر بعده

وقبل أول من صرب سبائير والدرهم فصعب بن الربيع بالعرق سنة
سبعين، ثم أخيه عبد الله ما ولي بالحجر وكتب عليها في أحد الوجهين :
بركة، وفي الآخر، اسم لله. ثم غيرها الحجاج بعد ذلك سنة، وكتب عليها
بسم الله الحجاج .

وقد رواها وزنها على ما كانت استقرت أيام عمر، وذلك أن الدرهم كان وزنه
أول لإسلام ستة دوايق، والمثقال وزنه درهم وثلاثة أسباع الدرهم فيكون
عشرة دراهم بسعة مثاقيل وكان نسب في ذلك أن وزن الدرهم أيام
الخمس كانت مختلفة، وكان منها على وزن المثقال عشرون قيراطاً، ومنها ثمانية
عشر، ومنها عشرة، فلما احتجج إلى فديره في الزكاة، أخذ الوسط من
الثلاثة وذلك أربعة عشر قيراطاً، فكان للمثقال درهمًا وثلاثة أسباع درهم.
وقبل من الدراهم كان منها النعني شمالية دوايق، والظري أربعة دوايق،
والنعني ثلاثة دوايق، ولهمي دوايق فأمر عمر أن يطرأ لأعب في التعامل،
فكان النعني والظري، وهما ثمانية عشر دوايق فكان لدرهم ستة دوايق وإن
ردت ثلاثة أسباعه كان مثقالاً، وإذا نقصت ثلاثة عشر المثقال كان درهمًا

فما رأى عبد الملك تحاد السكة لصيانة النقدين في معاملة المسلمين عن
الغش، فعين مقدارها على هذا الذي ستقر عهد عمر رضي الله عنه، واتخذ
طابع الحديد، ونقش فيه كلمات لا صوراً، لأن العرب كان للكلام والملاعة
أقرب من صحتها وأظهرها، مع أن الشرع ينهى عن الصور فلما فعل ذلك
استمر بين الناس في أيام المنة كما

وكان الدينار والدرهم على شكلين مدورين، والكتابة عيهما في دوائر متوالية يكتب فيها من أحد لوجهين أسماء الله تهليلةً وتحميداً وصلاة على النبي وآله، وفي لوجه شبي الناريح واسم الحيفة هكذا أيام لعنانيين والعبيدين ولأمويين أم صنهاجة، فم يتحدو سكة إلا حر الأمر، تحده المنصور، صاحب حدة. ذكر ذلك ابن حماد⁴⁷ في تاريخه

ونما حاءت دوة للموحدين كان مما سنّ لهم المهدي اتحد سكة لدرهم مربع الشكل، ونُرسَم في دائرة الدينار شكل مربعي وسطه، ويُملأ من أحد جانبيه تهليلةً وتحميداً، ومن الجانب الآخر كُتِبَ في لسطور باسمه وسم خلفاء من بعده ففعل ذلك الموحدون، وكانت سكتهم على هذا لشكر لهد العهد، وقد كان المهدي فيما نُقِرَ بُعِثَ قبل ظهوره بصاحب الدرهم المربع، عته بذلك لمتكلمون باخذث من قبله، المحبرون في ملاحمهم عن دولته وأهل المشرق لهد العهد، فسكتهم غير مقدرة، وإم يتعممون بالدينار والدرهم ورنً بانصجات المقدرة بعدة منها، ويصعبون عليها بالسكة عوش الكلمات بالتهليل والصلاة وسم السطر كم يعمله أهل المغرب ذلك تقدير العزيز العليم⁴⁸.

تنبيه

ونحنتم الكلام في السكة بذكر حقيقة لدرهم والدينار لشرعيين، وبيان مقدريهما وذلك أن لدرهم والدينار مختلفا السكة في لمقادير وامورين بالافاق والأمصار وسائر الأعمال، والشرع قد تعرض لذكرهما، وعلق كثيراً من الأحكام بهما في لزكة والأيكحة وخذود وغيرها، فلا بد فيهما عنده من حقيقة ومقدار يتعين في تقديره وبرادته وتحري عليهما، الأحكام دون غير الشرعي مهم

47 محمد بن علي بن حماد، بني كتب تاريخه حوالي سنة 1117 هـ

48 انه 96 من سورة الأندم

واعلم أن الإجماع منعقد منذ صدر الإسلام وعهد الصحابة والتابعين أن درهم شرعي هو الذي يزن العشرة منه سبعة مثاقيل من الذهب، والأوقية منه أربعين درهماً، وهو على هذا سبعة أعشار الدينار. ووزن المثقاب من نذهب خالص ثنتان وسبعون حبة من الشعير الأوسط. فالدرهم الذي هو سبعة عشر خمسون حبة وخمسا حبة وهذه المقادير كلها ثابتة بالإجماع. فإن الدرهم الجاهلي كان بينهم على أنواع، أجودها الصبري، وهو ثمانية دوانق، ولسلي، وهو أربعة دوانق. فجعلوا الشرعي بينهما ستة دوانق. وكنو به وجود الزكاة في مائة درهم بغلبة ومائة درهم طبرية خمسة دراهم وسط.

وقد اختلف الناس هل كان ذلك من وضع عبد الملك واجتماع الناس بعده عليه، كما نقلناه. ذكر ذلك الخطابي في كتاب معالم السنن¹⁴⁹. والماوردي في كتاب الأحكام السلطانية. وأنكره المحققون من المتأخرين لما يلزم منه أن يكون الدرهم والدينار الشرعيان مجهولين في عصر الصحابة ومن بعدهم. مع تعقّل حقوق الشرعية بهما في الزكاة والأنكحة والحدود وغيرها. كما ذكره. واحتج أنهما كانا معلومي المقدار في ذلك العصر، بجريان لأحكام يومئذ يتعلّق بهما من الختوق. وكان مقدارهما غير مشخص في خرج، وإن كان متعارفاً بينهما بالحكم الشرعي المتقرر في مقدارهما ووزنهما.

حتى استفحلت الدولة الإسلامية وعظمت أحوالها ودعا الخال إلى تشخيصهما في المقدار والوزن كما عند الشرع ليستريحوا من كلفة نقدين. وقرن ذلك أيام عبد الملك، فخصر مقدارهما وعيّنهما في الخارج كما هو في لذهن، ونقش عليهما السكة باسمه وتاريخه إثر الشهادتين الإيمانيّتين. وطرح النقود الجاهلية رأساً حتى خفصت ونقشت عليها سكتة. وتلاشى وجودها. وهذا هو الحق الذي لا مّجيد عنه.

149: كتاب معالم السنن لأحمد بن محمد الخطابي هو تيسير كتاب السنن لأبي داود

ثم بعد ذلك وقع اختيار أهل السكة في الدولة على مخالفه المقدار الشرعي في الدينار والدرهم، واختلقت في ذلك الأقطار والأفق، ورجع الناس إلى تصور مقاديرهما الشرعية ذهناً، كما كان في الصدر لأو، وصار أهل كل أفق يستخرجون الحقوق الشرعية من سكتهم بمعرفة النسبة التي بينها وبين مقاديرها الشرعية.

وأما وزن الدينار بشتين وسبعين حبة من الشعير الوسط، فهو الذي نقله المحققون وعليه الإجماع، إلا أن حزم، خالف ذلك ورسم أنه أربعة وثمانون حبة نقل ذلك عنه القاضي عبد الحق. ورده المحققون، وعدوه وهماً أو غلطاً. وهو لصحيح. والله يعق الحق بكلماته.

وكذلك تعلم أن الأوقية الشرعية ليست هي متعارفة بين الناس. لأن معارفه محتلفة باختلاف الأقطار. والشرعية متحدة ذهناً، لا خلاف فيها في حيز كل شيء، فقدرة تقديرًا

الخاتم

وأما الخاتم، فهو من الخطط السلطانية والوظائف المملوكية. واختم على الرسائل والصكوك معروف للملوك قبل الإسلام وبعده. وقد ثبت في الصحيحين أن النبي صني الله عليه وسلم 'رأى أن يكتب إلي قيصراً فقبل له. أن أعجم لا يسلون كتاباً إلا أن يكون مختوماً' فاتحد حتماً من فصة ونقش فيه: 'محمد رسول الله' قال البخاري: 'جعل الثلاث كمات في ثلاثة أسطر، وختم به. وقال: 'لا يقرش أحد مثله'. وقال: 'وتحتم به أبو بكر وعمر وعثمان، ثم سقط من يد عثمان في بئر أريس، وكانت كثيرة الماء، فلم يدرك قعرها بعد. واختم لذلك عثمان وتطير منه. وصنع آخر على مثله وفي كيفية نقش ذلك الخاتم'.

هذا الختم في [أ]، [ب] يأتي بعد تقطع حوز نظار ويختلف في صياغته عن نص سواد
الأخرى. انظر لطبعة الخاصة لمتقدمة، ج ١، ص ٣١٢ و ٣١٣

و الختم به وجوه . وذلك أن الخاتم يُطَلَّق على الآلة التي تُحَقِّل في الأصبع ، ومنه تَحْتَم ، إذا لبسه . ويُطَلَّق على النهاية والتمام ، ومنه "ختمت الأمر" ، بلغت آخره ، و"ختم القرآن" كذلك . ومنه "خاتم النبيين" ، وخاتمة الأمر . ويُطَلَّق على السداد الذي تُسَدُّ به الأواني والدنان ، ويقال فيه "خِتام" . ومنه قوله تعالى : 'خاتمه مسك'⁽¹⁵⁰⁾ . وقد غلط من فسر هذا بالنهاية والتمام . قل لأن آخر ما يجدونه في شراهم ربح المسك ، وليس المعنى عليه . وإنما هو من الختم الذي هو السداد ، لأن الخمر يجعل لها في الدن سداد الطين والقار يحفظها ويطيب عرفها وذوقها . فبولغ في وصف خمر الجنة بأن سداده من المسك . وهو أطيب عرف وذوق من الطين والقار المعهودين في الدب

فقد صح إطلاق الخاتم على هذه كلها صح إطلاقه على أثرها الناشئ عنها . وذلك أن الخاتم إذا نُقِشَتْ فيه كلمات أو أشكال ، ثم غُمِسَ في مذاق من طين أو مداد ، ووضِعَ على صفح القرطاس بقى أثر الكلمات في ذلك لصف وكذلك إذا طُبِعَ به على جسم لَبِن كالشمع ، فإنه يبقى نقش ذلك المكتوب مرتسمًا فيه . وإذا كانت كلمات وارتسمت فقد تُقرأ من الجهة اليسرى إن كان النقش على الاستقامة من اليمينى ، وقد تُقرأ من الجهة اليمينى إن كان النقش من الجهة اليسرى . لأن الختم يقلب جهة الخط في الصفح عما كان في النقش من يمين أو يسار فيُحتمل أن يكون الختم بهذا الخاتم بغمسه في المداد والطين ووضعه على الصفح ، فتنتقل الكلمات فيه ويكون هذا في معنى النهاية ولتمام ، بمعنى صحة ذلك المكتوب ونفوذه ، كأن الكتاب إنما يتم لعمل به بهذه العلامة ، وهو من دونها مُلغى ليس بنام . وقد يكون هذا الختم بالخط آخر الكتاب أو أوله بكلمات منتظمة من تحميد ، أو تسبيح باسم السلطان أو الأمير أو صاحب الكتاب من كان ، أو شيء من نعوته يكون ذلك الخط علامة على صحة الكتاب ونفوذه . ويُسمَّى ذلك في المتعارف علامة ، ويُسمَّى ختمًا ، تشبيهًا له بأثر الخاتم الأصبعي في النقش .

(150) آية 26 من سورة المظفر

ومن هذا خاتم القاضي الذي يبعث به للخصوص، أي علامته وحطه لتي
ينفذ بها أحكامه ومنه خاتم السلطان أو الخليفة، أي علامته. قال لرشيد
ليحيى بن خالد لما أراد أن يستوزر جعفرًا أو يستبدل به من الفضل أخيه، فقال
لأبيهما يحيى: 'يا أبت، إني أردت أن أحول الخاتم من يميني إلى شمالي'.
فكفى له بالخاتم عن الوزارة، لما كانت العلامة على الرسائل والصكوك من
وظائف الوزارة لعهدهم. ويشهد بصحة هذا الإطلاق ما نقه الطبري أن
معاوية أرسل إلى الحسن عند مراوضته إياه في الصلح صحيفة بيضاء ختمه
على أسفلها وكتب إليه أن اشترط في هذه الصحيفة التي ختمت أسفلها ما
شئت، فهو لك^{١٦١}. ومعنى الختم هنا علامة في آخر الصحيفة بخط أو غيره
ويُحتمل أن يُختم به في جسم لئِن، فتنقش فيه حروفه، ويُجعل على
موضع الخزم من الكتاب إذا خُزم، وعلى المودعات وهو من السداد. كما
مر. وهي في الوجهين آثار للخاتم، فيُطلق عليه خاتم.

وَأول من أحدث الختم على الكتب، أي العلامة، معاوية، لأنه أمر لعمرو
بن الربيع عند زياد في الكوفة بمائة ألف. ففتح الكتاب وصُيرت المائة مائتين،
ورفع زياد حسابه، فأكرها معاوية، وطلب بها عمراً وجسه حتى قصه عنه
أخوه عبد الله. واتخذ معاوية عند ذلك ديوان الخاتم. ذكره الصري وقال
أخره: 'وخزم الكتب، ولم تكن تُخزم'^{١٦٢}. أي جعل لها السداد

وديوان الخاتم عبارة عن الكُتَّاب القائمين على إنفاذ كتب السلطان ولختم
عليها، إما بالعلامة أو بالخزم. وقد يُطلق الديوان على مكان جنوس هؤلاء
الكتاب، كما ذكرناه في ديوان الأعمال.

والخزام للكتب يكون إما بدسر الورق، كما عُرف في كُتَّاب المغرب، وإما
بصق رأس الصحيفة على ما تنطوي عليه من الكتاب، كما في عُرف أهل
لمشرق. وقد يُجعل مكان الدسر أو اللصاق علامة يؤمن معها من فتحه

١٦١، ١٥١، مصر المصري. تاريخ، ج ٥، ص ١٦٢

١٦٢، مصر صري. تاريخ، ج ٥، ص ٣٣٠

والاصلاح على ما فيه. فأهل المغرب يجعلون على الدرر قطعة من لشمع يحتمون عبيد، بحاتم نقشت فيه علامة لُدك، فيرتسم النقش في لشمع. وكان في مشرق في الدولة قديمة يُحتَم على مكان النصب بحاتم منقوش بضم قد عُمس في مداف من نطين مقد لذلك، صبغه أحمر، فيرتسم ذلك نقش عبيد، وكان هذا الطين معروف في الدولة العباسية بطين الحاتم. وكان يُجلب من سيرا، فيظهر أنه مخصوص بها.

فهذا الحاتم الذي هو العلامة المكتوبة أو النقش لُسداد أو الخزيم على الكتب خاص بديوان لرسائل، وكان ذلك لوزير في الدولة العباسية، ثم اختلف العرف وصار لمن إليه ترسيل وديوان الكتب في الدول، ثم صاروا في دول المغرب يعدون من علامات الملك وشارته لحاتم للأصبع، فيستجيدون صوغه من الذهب، ويرصعونه بالفصوص من ايقوت ولفيروزج ووزمرد، ويلبسه السطان شارة في عرفهم، كما كانت البردة والقضيب في الدولة العباسية، ومضلة في الدولة العبيدية، وله مصرف لأمر بحكمته.

الطراز*

ومن جهة الملك والسلطان ومذاهب الدول أن ترسم أسماؤهم أو علامات تحتض بهم في طرز أثوابهم المعدة للناسهم من الحرير أو الدباج أو الإبرسم، تعتبر كتابة خطها في نسج الثوب إلخاماً وسدواً بحيط الذهب أو بحالف لون الثوب من أحيوط الملوونة من غير الذهب على ما يحكمه الصانع في تقدير ذلك ووضع في صناعة نسجهم. فتصير الثياب الملوكية معلمة بذلك الطراز قصداً، للتبويه بلايسها من السلطان فمن دونه، أو التبويه بمن يختصه السلطان بملبوسه إذا قصد تشريقه بذلك أو ولايته لوظيفة من وظائف دولته، وكان ملوك المعجم قبل الإسلام يجعلون ذلك الطراز بصور ملوك وشكائهم، أو أشكال وصور معينة لذلك. ثم اعتاص ملوك الإسلام عن ذلك بكتب أسمائهم مع كلمات أخرى تجري مجرى الفان أو السبحات. وكان ذلك في لدولتين من أئبه الأمور وأفخم الأحوال. وكانت الدور، معدة نسج أثوابهم في قصورهم تسمى دور الطراز لذلك. وكان القائم على النظر فيها يسمى صاحب الطراز، ينظر في أمور الصانع والآلة وإخاكة فيها، وإجراء أرزاقهم وتسهيل آلتهم ومسارة أعمالهم. وكانوا يقددون ذلك لخواص دولتهم وثقات مواليتهم وكذلك كان الحال في دولة العبيدين بمصر ومن كان على عهدهم من ملوك المعجم بالشرق.

ثم لما ضاق نطاق الدول عن الترف والتفنن فيه بصيق نطاقها في الاستيلاء، وتعددت الدول، بطلت هذه الوظيفة والولاية عليها من أكثر الدول باجمله. ولم جاءت دولة الموحدين بالمعرب بعد بني أمية أول المائة السادسة، فلم يأخذوا بذلك أول دولتهم لما كانوا يتوزعون عن نسج الحرير والذهب، فسقطت هذه الوظيفة من دولتهم. واستدرك منها أعقابهم آخر لدوله طرفاً لم يكن بثلك النباهة.

* حسب مصر لخصر لطرار في [١] و [٢] عن النص الذي يرد في 'مجموعات الأخرى' مصر
ضمة احاصه للمعدة، ح ٤، ص ٣١٢

أما عهد العهد، فادرك بالمعرب في الدولة مريسة لعمومها وشموعها
رسماً جليلاً نقّوده من دولة بن الأحمر، معاصروهم بالأندلس. واتبع هو في
ذلك دول الطوائف فأتى منه بمسحة شاهدة بالأثر.

وأما دولة الترك بمصر والشام لعهد العهد ففيه من لطراز بحر زاخر على
مقدار ملكهم وعمران بلادهم. إلا أن ذلك لا يصنع في دورهم وقصورهم
وليست من وطائف دولتهم، وإنما ينسج ما تطلبه للدولة من ذلك عند صناعه
من الحرير ومن الذهب الخالص، ويسمونه الزركش، لفظة أعجمية، ويُرسم
سم لسلطان أو الأمير عليه، ويعدّه الصنّاع لهم فيما يعدونه للدولة من طرف
الصناعة اللائقة بها.

والله مقدر النيل والنهار، هو خير الورثين، لا اله غيره.

الفساطيط والسياح^{*}

نعلم أن من شرات الملك وترفه اتخاذ الأخبية ولفساطيط والفزات من
ثياب الكتان والصوف ولقطن. بجدل^{**} الكتان والقطن، يباهى بها في
الأسفدر، وتنوع منها الألوان ما بين كبير وصغير على نسبة الدولة في الثروة
وليست. وإنما يكون الأمر في أول الدولة في بيوتهم التي جرت عادتهم
باتخاذها قبل الملك^{***}. وكان العرب لعهد خلفاء الأوّلين من بني أمية إنما
يسكنون بيوتهم التي كانت لهم خياماً من الوبر والصوف، ولم تزل العرب
لذلك العهد بادين إلا الأقل منهم. فكانت سفارهم لغزواتهم وحروبهم
بضعونهم وسائر حبلهم وأحييتهم من لأهل وأولاد، كما هو شأن العرب

* الفساطيط وأفران^(١)، [ب]

** ولصوف. بجدل [ب]

*** وبم يكون الأمر في أول امدونية على غير ذلك، ويكوب سكس أهل الدولة في بيوتهم فتي حوت
عادتهم باتخاذها قبل الملك [] [ب]

لهد . نعهد فكاتب عساكرهم لذلك كثيرة الحلل ، بعيدة ما بين المنابر . متفرقة الأحياء ، يعيب كل واحد منها عن نظر صاحبه من الأخرى ، كشأن العرب ولذلك ما كان عبد الملك يحتاج إلى ساقه لحشر الناس على ثره أن يقيم يد طعن ونقل أنه استعمل في ذلك الخجاج حين أشد به رزوح بن ربيع وقصته في حراق فساطيط روح وخيامه لأول ولايته حين وحدهم مقيمين في يوم رحيل عبد الملك قصة مشهورة . ومن هذه الولاية تعرف رتبة الخجاج بين العرب ، فإنه لا يتولى إرادتهم على الظعن إلا من يأمن بواحد السفهاء من أحيائهم بما أنه من العصبية الحائلة دون ذلك . ولهذا احتضنه عبد الملك بمثل هذه الرتبة . ثقة بغنائه فيها بعصبية وصرامته .

فله . تفننت الدولة العربية في مذاهب الحضارة والبذخ ، ونزلوا مدن ولأمنصار ، وانتقلوا من سكنى الخيام إلى سكنى القصور ومن ظهر الخف إلى ظهر الحافر ، اتخذوا للسكنى في أسفارهم ثياب الكتان . يستعمنون منها بيوتاً مختفة الأشكال ، مقدرة الأمثال . من القوراء والمستطينة والمربعة ، ويحتفنون فيها بأبلغ مذاهب الاحتفال والزينة .

ويدير الأمير أو القائد للعساكر على فساطيطه وفازاته من بينهم سياجاً من الكتان يسمى في المغرب باللسان البربري اندي هو لسان أهل أفراك . بالكاف التي بين القاف والكاف . ويختص به السلطان بذلك القطر ، لا يكون لغيره . وأما في المشرق ، فيتخذه كل أمير ، وإن كان دون السلطان .

ثم جئنا الدعة بالنساء والولدان إلى المقام بتصورهم ومنارلهم ، فخفف لذلك ظهرهم ، وتقارب السياج بين منازل العسكر ، واجتمع جيش ونسب في معسكر واحد يحضره البصر في بسيطة رهراً ثيقاً

* بـ هـ الجملة في [1] و [ب] . الأخرى ، كما هو شأن العرب لهذا العهد

** ويدبر السلطان على فساطيطه [1] ، [ب]

*** هـ انتهى المقدره في [1] و [ب]

**** هـ انتهى الجملة في [1] و [ب]

لاختلاف أنوائه. واستمر الحال على ذلك في مذاهب الدول في سدخها وترفها.

وكذا كانت دولة الموحدين وزناة التي أظلتنا. كان سفرهم أول أمرهم في بيوت سكناهم قبل الملك من الحيام والقياطين. حتى إذا أخذت لدولة في مذ هب الترف وسكنى القصور، وعادوا إلى اتخاذ الأخبية والفساطيط وبنغوا من ذلك فوق ما أرادوه، وهم من الترف بمكان. إلا أن لعساكر به تصوير عرضة للبيبات لاجتماعهم في مكان واحد تشملهم فيه الصيحة، وخفتهم من الأهل والولد الذي تكون الاستماتة دونهم فيحتاج في ذلك إلى تحفظ آخر، كما نذكره.

والله القوي العزيز¹⁵³.

المقصورة للصلاة والدعاء في الخطبة

وهما من الأمور الخلافية ومن شارات الملك الإسلامي. ولم تعرف في غير دول الإسلام. فأما البيت المقصورة لصلاة السلطان تتخذ سياح عسى لمحراب. فتحوزه وما يليه. فأول من اتخذها معاوية بن أبي سفيان حين طعنه حارحي. وانقصه معروفة. وقيل أول من اتخذها مروان بن الحكم حين طعنه ليماني. ثم اتخذها الخلفاء من بعدهما، وصارت سنة في تمييز السلطان عن الناس في الصلاة. وهي إما تحدث عند حصول الترف في الدولة والاستفحاح، شأن أحوال الأبهة كلها. وما زال الشأن ذلك في الدول الإسلامية كلها وعند افتراق الدولة العباسية وتعدد الدول بالمشرق، وكذا بالأندلس عند انقراض الدولة الأموية وتعدد ملوك الطوائف.

53. آية 66 من سورة هود

"يخصص بن حنود لمقصورة وثخنة والدعاء في [أ] و [ب] مصير محتلين ومشاعرين
لخصر محصين لمقصورة يأتي بعد الفصل المحصين ثلاثة، والفصل المحصين للدعاء في الخصة
رني بعد الفصل المحصين سحاح النص المحصين لمقصورة في [أ] و [ب] يختلف عن نص
رويت لأحمد بطر الطعة الخاصة للمقدمة، ح 4، ص 310 و 313-314.

وأما العرب ، فكان بنو الأعجب يتخذونها بالقيروان ، ثم حلفاء العسديين ، ثم ولاتهم على ، مغرب من صنهاجة ، بنو باديس بالقيروان ، وبنو حماد بالقعدة . ثم ملك لموحدون سائر المغرب والأندلس ، ومحووا ذلك الرسم على طريقة لبدوة التي كانت شعارهم . ولما استغلت الدولة واتخذت بحظها من الترف ، وجاء يعقوب المنصور ، ثالث ملوكهم ، فاتخذ هذه المتصورة ، وبقيت من بعده سنة للملك المغرب والأندلس . وهكذا الشأن في سائر الدول ، سنة الله في عباده .
وأما الدعاء على المنابر في الخطبة ، فكان الشأن أولاً عند الخلفاء ولاية للصلاة بأنفسهم . فكانوا يدعون لذلك بعد الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والرضا عن أصحابه .

وأول من اتخذ المنبر عمرو بن العاص ، لما بنى جامع مصر ، وكتب إليه عمر رضي الله عنه : "أما بعد ، إنك اتخذت منبراً ترقى به على رقب المسلمين ، وما بكفئك أن تقوم قائماً والمسلمون تحت عقيبك ، فعزمت عليك ما كسرتة^٤ .

فما حدثت الأمية وحدث في الخلفاء المانع من الخطبة والصلاة وسند و بهم ، فكان الخطيب يُشيد بذكر الخليفة على المنبر تنويهاً باسمه ودعاءً أنه جعل الله مصلحة العالم فيه ، ولأن تلك الساعة مظنة للإجابة . ولما تمت عن السيف في قولهم . "من كانت له دعوة صالحة فليضعها في السطاب"^٥
وَوُل من دعا للخليفة في الخطبة ابن عباس ، دعا لعلي رضي الله عنهم في خطبته وهو بالبصرة عامل له عليها . فقال : "اللهم انصر علياً حقاً ، وتصل اعمل على ذلك فيما بعد .

وكان الخليفة يُقرئ بذلك . فلما جاء الحजर والاستبداد ، صار المتغلبون على الدول كثيراً ما يشاركون الخليفة في ذلك ويشاد باسمهم عقب اسمه .

^٤ هذه لفظة لا ترد في [أ] و [ب] في الفصل المخصص للدعاء في خطبة
١٩٤٠ ، ردده خلكة عند غلب مورخي مصر مصر على الخصوص فتوح مصر لابن عبد الحكم
صحة سنة ١٩٢٥

ودهب ذلك يذهب تلك الدول، وصار الأمر إلى اختصاص بسبطن
الدعاء له على المتردون من سواه، وحُظِرَ أن يشاركه فيه أحد أو يسمو إليه
وكثيراً ما يغفل الماهدون من أهل الدول هذا الرسم عند ما تكون لدولة
في أسبوب الفضاضة ومساحي البداوة في التعافل والحسونة، ويقنعون
بالدعاء على الإبهام والإجمال لمن ولي أمور المسلمين. ويسمون مثل هذه
الخطبة إذ كانت على هذا المنحى "عباسية"، يعنون بذلك أن الدعاء على
الإجمال إنما يتناول العباسي. تقليدًا في ذلك لما سلف من الأمر، ولا يحفلون
بما وراء ذلك من تعيينه والتصريح باسمه.

يحكى أن يغمراسن بن زياد، ماهد دولة بني عبد الواد، لما علمه الأمير أبو
ركرياء يحيى بن أبي حفص على تلمسان، ثم بدا له في إعادة الأمر إليه على
شروط شرطها كان فيها ذكر اسمه على منابر عمله. فقال يغمراسن: "تلك
أعوادهم يذكررن عليها من شاقوا".

وكذلك يعقوب بن عبد الحق، ماهد دولة بني مزين، حضره رسول
الاستنصر، أخليفة بتونس من بني أبي حفص، وثالث ملوكهم. ونحف
عصر أمامه عن شهود الجمعة، فقبل له: "لم يحضر هذا الرسول لخلو الخطبة
من ذكر سبطه". فأذن في الدعاء له، وكان ذلك سبباً لأخذهم بدعوته

وهكذا شأن الدول في بدايتها وتمككها في الغضاضة والبداوة وقد انتهت
عبور سياستهم ويطروا في أعطاف ملكهم واستتموا شياء الحضارة ومعني
البذخ والأبهة، انتحلوا جميع هذه السمات وتقننوا فيها، ونجروا إلى غايتها،
وأنفوا من المشاركة فيها، وجزعوا من افتقادها وخلو دولتهم من آثارها،
والعلم بستان. والله على كل شيء رقيب.

* الاستنصر، وتخلف [1]. [ب]

** رسول كراهية خلو [1]، [ب]

[35] في الحروب ومذاهب الأمم في ترتيبها

عنه أن الحروب وأنواع المقاتلة لم تزل واقعة في الخليقة منذ بدأها لله. وأصنعه إرادة انتقام بعض البشر من بعض. ويتعصب لكل منهم أهل عصيته. فإذا تدامروا نذلك وتواقعت الطائفتان، إحداهما تطلب الانتقام ولأخرى تدافع، كانت الحرب. وهو أمر طبيعي في البشر لا تحو عنه أمة ولا حيل

وسبب هذا الانتقام في الأكثر إما غيرة ومنافسة، وإما عدوان، وما عصا لله ولدينه، وإما غضباً للملك وسعي في تهديده.

فالأول أكثر ما يجري بين القبائل المتجاورة والعشائر المتناظرة والثاني. وهو العدوان، أكثر ما يكون من الأمم الوحشية الساكنين بالفقر. كالعرب ولترك والتركماني والأكراد^١ وأشباههم، لأنهم جعلوا أرواحهم في رماحهم ومعاشهم فيما بأيدي غيرهم. ومن دافعهم عن متاعه ذنوه بالحرب.

* هذا الفصل يضم في الروايات المتوسطة والمتأخرة تحت عنوان واحد ثلاث فصول ترد مفصلة في محصورتي [١] و [ب] وهي: الحروب ومذاهب الأمم في ترتيبها، الخنادق على المنسكر، أساليب اللعب في الحروب. وهناك اختلاف كبير بين نص [١] و [ب] ونص المحفوظات الأخرى ستورد معها

^١ كالعرب والأكراد [١]، [ب]

ولا عية لهم فيها ورء ذلك من رتبة ولا منك، ورء همهم ونصب أعينهم
عك ناس على ما هي أيديهم

والثالث هو المسمى في شريعة بجهاد.

والرابع هي حروب لدور مع حارحين عديها والمالعين لطاعتها
وهذه أربعة أصناف من حروب مصنفين لأولان منها حروب عي
وفئة، والمصنفين الآخرين حروب جهاد وعدن

وصنة اخروب لوقعة من أهل الحليفة مد أول وحودهم على نوعين .
نوع بالزحف صفوف، ونوع بالكر وعمر وأما الذي بالرحف، فهو قتار
العهمة كنهم على دعاف أحدهم وأما الذي بالكر والعمر، فهو قتال المعرب
والبربر من أهل المعرب وقتل لرحف أو ثق وأشد من قتار الكر والمعرب
ودلت أن قتال الزحف ترتب فيه صفوف وتسوى كما تسوى القدح أو
صفوف الصلاة. ويمشون صفوفهم بني العدو قداماً فذلك أثبت عند المصراع
وأصدق في القتال وأرهق للعدو، لأنه كخبط الممتد ولتقصير المشد، لا
يضعف في إرائته.

وفي التريل إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان
مرصوص، أي يشد عضهم بعضاً بالشد، وفي الحديث : مؤمن لمؤمن
كأسيان شد عضه بعضاً ومن هناك يظهر لك حكمة إيجاب لشد وتحريره
التوي في لرحف، فإن مقصود في لقتل حفظ لنصام، كما أقناه فمن ولي
لعدو ظهره فقد حن بالمصاف وء يتم الهزيمة، كنه حره على المسمين وأمكن
مهم عدوهم فعظم لشد عموم لتسدة ونعديها إلى لذين يحرق سباحه،
فعد من لكثير ويظهر من هذه لأداة أن قتال لرحف اثر عند الشارع .

* في عرف لشريعة [1]، [ب]

** هر خبرد جي سندی من هـ حریف عن مصد لندی بردی [] و [ب] هر صعه حصه

لسمند، ج 4، ص 38

** عدوهم فعظم لشدك الدب وعدن ككاشتر، لما يحرم من حرق سباح الدين وسباح جماعته
ويظهر [1]، [ب]

ثُلُثُ حِجَاحِ بْنِ يُوْسُفَ، كَمَا شَرِبَ إِلَيْهِ، وَكَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي أَحْبَارِهِ وَكَانَ فِي الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ يُضَا كَثِيرٌ مِنْهُ وَهُوَ مَحْجُورٌ فِيمَا نَدَبَ، لِأَنَّهُ إِذْ دُرِكَ دَوْلَا قُنْدِسَ الْعَسَاكِرِ لَا تَنْهِي فِي مَحَلِّ خُرْبٍ إِلَى التَّذَكُّرِ، وَكُنْتُ جِيُوشٍ مِنَ الْعَدُوِّ مَعَ تَجَمُّعِهِمْ لِدَسَاحَةِ أَوْ مَدِينَةٍ، وَيَعْرِفُ كَيْ مَنِهِمْ قَرَبَهُ وَيَنْدِيهِ فِي حَوْمَةِ حَرْبٍ بِاسْمِهِ وَفَقَهُ وَشَتَعِي عَنْ ثُلُثِ التَّعْنَةِ

وَمِنْ مَدَاهِبِ أَهْلِ الْبَكْرِ وَالْمَرْ فِي الْحُرُوبِ صُرْتُ الْمُنَاصِفِ وَرَأَى عَسَاكِرَهُمْ مِنْ حِمْدَتِهِ وَخَوَّسَ الْعَجَمَ، فَسَجَدُوا بِمَنْحِلِ الْحَيَاةِ فِي كَرِهِمْ وَفَرِهِمْ بِضُمُونِهِ ثَابِتِ الْفَتْنَةِ يُكُونُ ثَوْمٌ بِحَرْبٍ وَقُرْبٍ إِلَى الْعَدُوِّ

وَقَدْ فَعَلَهُ أَهْلُ الرِّحْفِ بَعْضُ بَنِيهِمْ ثَابِتٌ وَشَدَّةٌ فَقَدْ كَانِ الْفَرَسُ، وَهَمَّ أَهْلُ الرِّحْفِ، بِمَحْدُونِ لُغْبَةِ فِي حُرُوبٍ وَيَحْمِلُونَ عَلَيْهَا أَرْحَامَ خَشَبٍ تُمَثِّلُ لَصُرُوحٍ، مَشْحُوقَةٌ بِالْمَقْتَنَةِ وَاسْلَاحِ الْوَأَثَرِ وَتَصْنُوعِهَا وَرَأَاهُمْ فِي حَوْمَةِ الْحَرْبِ، كُنْهِ الْخُصُوفِ فَتَقَوَّى بِذَلِكَ نَوَسُهُمْ وَيَزِدُّوهُمْ

وَاطْمَرُوا وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ فِي الْقَدْسِيَّةِ، وَبِالْفَرَسِ فِي أَيَّامٍ ثَلَاثَ أَشْهُدَا بِهِمْ عَنَى مَسْمُومٍ حَتَّى تَسُدَّ رَحَالَاتُ مِنَ الْعَرَبِ وَحَاطُوا هَذِهِ بِهَا بِالسُّوْفِ عَلَى حَرِّ طَمَبٍ، فَفَرَّ وَنَكَصَ عَلَى أَعْقَابِهِ إِلَى مَرَاظِعِهِ بَنِيهِ

فَحَفَّ مَعَ عَسَاكِرِ الْفَرَسِ ثُلُثُ، وَبَهَزَمُوهُ فِي أَيَّامٍ أَرْبَعٍ وَأَمَّا لِرُودِهِ وَمَمْلُوكِ الْفُوقِ بِالْأَنْدَلُسِ، بَلْ وَأَكْثَرَ الْعَجَمِ، فَكَانُوا يَتَحَدَّثُونَ لِدُنْكَ الْأَسِيرَةِ، بِتَصْنُوعِ سَمِّ سَرِيرِهِ فِي حَوْمَةِ الْحَرْبِ، وَيَحْفَظُهُ مِنْ خَدَمِهِ وَحَاشِيَةِ وَخُدُودِهِ مِنْ هُوَ رَعِيمٌ بِالْإِسْتِمَاتَةِ دَوْنَهُ وَتَرْفَعُ رِيَاةٌ فِي رُكْنِ السَّرِيرِ، وَيَحْدِقُ بِهِ سَبِيحٌ أَحْمَرٌ مِنَ الْأَرْمَةِ وَالرَّحَةِ، فَيَعْصَمُ هَكَذَا السَّرِيرَ وَيَصِيرُ فِتْنَةً بِمَقْتَنَةِ وَمَحَالِّ الْبَكْرِ وَالْمَرْ وَفَعَلَ ذَلِكَ الْفَرَسُ بِأَمِّ الْأَنْدَلُسِيِّ، وَكَانَ رَسْمُهُ جَالِسًا فِيهَا عَلَى سَرِيرٍ يَصْنَعُهُ خُلُوسُهُ، حَتَّى حَمَلَتْ صُفُوفُ الْفَرَسِ، وَحَاطَ الْعَرَبُ فِي سَرِيرِهِ ذَلِكَ، فَتَحَوَّلَ عَنْهُ إِلَى الْعَرَبِ وَقِيلَ

«إِنَّ أَهْلَ الْبَكْرِ وَالْمَرْ مِنَ الْعَرَبِ وَكَثُرَ لَأَمِّ سِدُودِهِ أَرْحَالَةً، فَيُصْنَفُونَ ثُلُثُ بِهِمْ وَاطْمَرُوا أَيْ يَحْمِلُ طَعْنَهُمْ فَيَكُونُ فِيهِمْ، وَيَسْمُونَهُ

المحودة وليس ثمة من لأمر إلا وهي تفعل ذلك في حروبها، وبه أوتق من أخوة ومن من العره والهرمة وهو أمر مشاهد وقد أعفته بدول العهد بخمة، واعناصو عنه لظهر حمل للأنتقال والمسايطر بجعلونها ساقية من حنهم، ولا يعي عاء القبة، لايل فصارت لعسكر بدلك عروسة للهنز ثم، مستشعرة للفرز في الموقف.

وكان الحرب أول الإسلام كنه رحقاً، وإن كان العرب بما يعرفون بكر والنز، ولكن حنهم على ذلك أول الإسلام أمرار أحدهم أن عدوهم كانوا مقاتور رحقاً مضطرب إلى مقابلتهم مثل قتلتهم شيء بهم كانوا مستمتين في جهدهم لم أرعو فيه من نصر، وبدرسح فيه من الإيمان والنزحف إلى لاستمارة أقرب.

وأول من نضل النصف في حرب وصر إلى التبعة كرادس مروان بن الحكم في قتل لصحاك الحارحي وأحيري بعد. قال نظري ما ذكر قتل حيري. هوى الخوارح عليهم شيبان بن عبد العزيز ليشكري، وينقب أن الدلاء، وفانهم مروان بعد ذلك بالكرادس وأضل نصف من يومئذ، “ انتهى

فتوسبي قتل الزحف بطلان نصف، ثم توسبي نصف وراء المقاتبة من دخل الدولة من الترف وذلك أنها حين ما كانت بدوية وسكدهم أحياء كانوا يستكثرون من الإبل، وسكنى النساء، وولدان معهم في لأحباء فما حصلوا على نرف الميت ونفوا سكنى القصور والخواص، وتركوا شأن النادية والفر، بسوا بدلك عهد الإبل والظعن، وصعب عليهم اتجده، فخلعوا لساء في الأسفر، وحملهم الميت والترف على اتجاد المساطيط ولأحية، فاقصرو على الظهر أحامل بالأنثاق ولابية، كان ذلك صنعهم في

١٠ تاريخ هجري، ج ١، ص ٦٤٧ عند نكت بن حديد، ص ١٤٧، د حسة يعني بالأمر هو مروان بن الحارثي، لا مروان بن الحكم

الحرب، ولا يغني كل العناء. لأنه لا يدعو إلى الاستماتة كما يدعو إليها لأهل
وادل، فيحلف الصبر من أجل ذلك وتفرقهم ليهيئات وتحرم صفوفهم.
وما ذكره من صرب لمصاف ورء لعسكر وتأكده في قتل الكر والفر،
صار صوت المغرب يستحدمون طوائف من المريح في حدهم واحتصو
بذلك، لأن قتل أهل وطنهم كله بالكر والفر، ونسطن يتأكد في حقه صرب
لمصاف ليكون ردةً للمقاتلة أمامه، فلا بد وأن يكون أهل ذلك الصف من
قوم متعودين للثبات في الزحف، وإلا أضعفوا على طريقة أهل الكر والفر،
فانهزم السلطان والعسكر بانحلالهم. فاحتج الملوك بالمغرب أن يتخذو جنداً
من هذه الأمة المعودة للثبات في الزحف، وهم لإفريخ، ويرتبون مصافهم
المحاذق بهم منها. هذه على ما فيه من لاستعانة بأهل الكفر، وإنما استحقوا
ذلك للضرورة التي أريناها من تخوف الانجفال على مصاف لسلطان،
والفرنج لا يعرفون غير الثبات في ذلك لأن عادتهم في القتال الزحف. فكانوا
أقوى بذلك من غيرهم، مع أن الملوك في المغرب إنما يفعلون ذلك عند الحرب
مع أم العرب والبربر وقتلهم على لضعه. وأما في الجهاد، فلا يستعينون بهم
حذراً من ممالأتهم على المسلمين، هذا هو الواقع بالمغرب لهذا العهد. وقد
أبدينا سببه، والله بكل شيء عليم.⁶⁶

ويبيننا عن أم الترك لهذا العهد قتلهم مناضلة بالسهم، وأن تعبئة الحرب
عندهم بالمصاف، وأنهم يقسمون عسكرهم ثلاثة صفوف يضربون صفاً ورء
صف، ويترجعون عن خيولهم، ويشنون كنانهم بين يديهم. ثم يتناضون
حنوش، وكل صف ردةً للذي أمامه أن يكسبهم العدو، إلى أن يتهاى النصر
لإحدى الطائفتين على الأخرى، وهي تعبئة محكمة غريبة.

وكان من مذهب لأول في حروبهم حفر خنادق على معسكرهم عندما
يتقاربون ليرحف حذراً من معرفة السات والهجوم على المعسكر بالليل، كما في

66 له لا من سورة بقره

67 قد يصح محضه لمصادق موضوع مصر مسير في [] و [ب] كما تشير إلى ذلك سند

ضمته ووحشته من مضاعفة الخوف، فتلوذ الجيوش بالفرار، وتحد النفوس في 'الضمة سترًا من عاره. فإذا تساوا في ذلك أرجف المعسكر، ووقعت 'هزيمة فكسوا لذلك يحتفرون الخنادق على معسكرهم إذا نزلوا وصربوا أنيتهم. ويدبرون 'خفائر نطافًا عليهم من جميع جهاتهم حصانًا يحلصهم لعدو بابيبت ويتخاذلون. وكانت للدول في أمثال هذا قوة وعية، وقد رباح تشاد الرجل وجمع الأيدي عليه في كل منزل من منازلهم مما كانوا عليه من وفور العمران وضخامة الملك. فلما خرب العمران وتبعه ضعف لدول وقلة جنود وعدم المعلنة، نسي الشأن جملة كأنه لم يكن. والله حير القادرين.

وانظر 'وصية علي^{١٤٤} رصي الله عنه وتحريضه لأصحابه يوم صفين، تجد كثيرًا من علم الحرب، ولم يكن أحد أبصر بها منه. قال في كلام له: فسوا صفوفكم كالبنيان المرصوص، وقدموا الدراع، وأخروا المجاسر، وعضوا على الأضراس، فإنه أنب للسيوف عن الهام، والتوا في أطراف الرماح، فإنه أصون للأسنة، وعضوا الأبصار، فإنه أربط للجاش وأسكن لنقوب، وميتوا للأصوات، فإنه أطرد للفشل وأولى بالوقار. وراياتكم فلا تميلوها ولا تزيدها ولا تجعلوها إلا بأيدي شجعانكم. واستعينوا بالصدق والمصر، فإنه بعد المصر ينزل النصر، وقال الأشر^{١٤٥} يومئذ يحرض الأزد: عضوا على النواجذ من الأضراس، واستقبلوا القوم بهامكم. وشدوا شدة قوم موتورين يثرون بأبائهم وإخوانهم حنقًا على عدوهم وقد وضوا على الموت أنفسهم كيلا يسبقوا بوتر، ولا يلحقهم في الدنيا عار.

وقد أشار إلى كثير من ذلك أبو بكر الصيرفي، شاعر متونة وأهل الأندلس في كسمة يمدح فيها تاشفين بن علي بن يوسف، ويصف شانه في حرب شهداه،

^{١٤٤} فتلوذ النفوس بالفرار [١]، [ب].

^{١٤٥} هذه 'هزيمة لم ترد في [١] و [ب]

^{١٤٦} مصر مصر من مزاحم. وقعة صفين. القاهره، ١٣٦٥/١٩٤٥. ص ٦٤، حيث بحسب بعض

نسخ عن بعض النسخ أورده ابن خلدون

^{١٤٧} من 'أمرأة الدين جارية في صفين مع علي الصيرفي المرحوم

^{١٤٨} متونة من أهل الأندلس [١]، [ب]

ويذكره بأمر الحرب في وصايا وتحذيرات تنهت على معرفة الكثير من سياسة الحرب، يقول فيها :

يا أيها الملأ، الذي يتقنع
ومن الذي عذر العدو به دجى
تقضي الفوارس والظعان يصده
واللبس من وضح الترتك إنه
نسى قرعتم بني صنهاجسة
وصددتم عن تاشفين وإنه
نسان عين لم يصبه منكم
ما أنتم إلا أسود خفية
يا تاشفين أقم جيشك عذره
من منكم لمتك الهدم لأروع
فانقض كل وهو لا يتضعع
عنه ويدمره الوفاء فترجع
صبح على هدم الجيوش مدمع
واليكم في الروع كن لفرع
لعقبه لو شاء فيكم موضع
جفن وقلب سلمته لأضع
كن بكل كربة مستضع
بأنيل ولقدر لذي لا يدفع

ومنها في سياسة الحروب :

أهديت من أدب السياسة ما به
لا أنسى درى بها لكنسه
البس من الخلق لمضاعفة التي
والهندواني الرقيق فإنه
وركب من الخيل السوابق عدة
خندق عليك إذ ضرت محنة
كانت موك الفرس قبث تولع
ذكرى تخص المؤمنين وتنفع
وصى به صنع الصنائع تبع
مضى على حد الدلاص وأقطع
حصنا حصينا ليس فيه مدفع
سببان تتع طافراً أو تتع

* يقول في مطلعها [١]، [٢]

** ينزعج [٣]

في محطته [٤] لا بد من لا سير لاوير من هذا المخطوط لأن

** ويرد هذا السبب [٥]

والوؤد لا نعير وانزُر عنده بين العدو وبين جيشك يقطع
واجعل منازل العدو عشية ووراءك النصف الذي هو أمنع
وإذا تضايقت الجيوش بمعرك ضنك فأطراف الرماح توسع
اصدمه أول وهلة لا تكثرت شيئاً فأظهار النكول تضعضع
وحمل من الطلاع أهل شهامة الصدق فيهم شيمة لا تحدر
لا تسمع الكذاب جاءك عرجاً لا رأي للمكدوب فيه يصع

وقوله اصدمه من أول وهلة" مخالف لما عليه الناس من أمر الحرب .
فقد قال عمر لأبي عبيد من مسعود الثقفي لما ولاء حرب فارس والعراق، فقل
له : سمع من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وأشركهم في الأمر، ولا
تجبن مسرعاً حتى يتبين، فإنها الحرب، ولا يصلح لها إلا الرجل المكيث لذي
يعرف الفريضة والكف"، وقال له في أخرى "إنه لم تمنعني أن أومر سليطاً، لا
سرعته في حرب. وفي التسرع في الحرب إلا عن بيان ضياع. والله لو لا
ذلك لأمرت. لكن الحرب لا يصلحها إلا المكيث". هذك كلام عمر. وهو
شاهد بأن التثاقل في الحرب أولى من الخفوف، حتى يتبين حال تلك
لحروب. وذلك عكس ما قاله النصير في. إلا أن يريد أن الصدم بعد لبين،
فيه وجه. والله أعلم.

ولا وثوق في الحرب بالظفر، وإن حصلت أسبابه من العدة والعديد،
وربما الظفر فيها والغلب من قبيل البخت والاتفاق. وبيان ذلك أن أسباب
لغبت في الأكثر محتمة من أمور ظاهرة. وهي الخيوش ووفورها، وكمل

لم يرد هذا البيت في [1]

وحمل مسجدة الجيوش عشية [ب]

سـ لا حرج له برداً في []

وفي هذا لسبب مخالفة لثاني كتاب العرب في الحرب [1]

مفعول اندج يتلوه من هاء وتاء يتصرف إلى أصوات ثعلب في الحرب وحب وحب

كـ فصل متصل في [] تحت عنوان في أسباب الحروب

لأسحة واستحدثتها، وكثرة لشحعب، وترتيب المصاف، وصدق القتال، وما جرى محرى ذلك. ومن أمور حفية، وهي ما حيل لشر وحدعهم في الإرحاف واشتديع التي يقع بها لتحذيل، وفي لتقدم إلى لأمكن المرتعة سيكون حرب من علي فيتوهم المحقق لذئ ويتحادل، وفي لكمون في لغياض ومطمئن الأرض واستواري بالكدي عن لعدو حتى تبدولهم العسكر دفعة وقد تورطوا فيلفتون إلى لنجاة، وأمثل ذلك. وأما أن تكون لأسباب الخفية أمور سموية، لا قدرة لبشر على اكتسابها، تلقى في القلوب فيستولي الرهب عليهم من أجهها، فتختل مراكزهم وتقع لهزيمة. وكثر ما تقع لهزائم عن هذه الأسباب الخفية لكثرة ما يعتمد كل واحد من الفريقين فيها حرصاً على الغلب، فلا بد من وقوع التأثير في ذلك لأحدهما ضرورة. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: 'لحرب خدعة'". ومن أمثال لعرب 'رب حيلة نفع من قبيلة'.

فقد تبين أن وقوع الغلب في الحروب غالباً عن أسباب خفية غير ظاهرة. ووقوع الأشياء عن الأسباب الخفية هو معنى لبخت، كما تقرر في موضعه. فعتبره. وتنفهم من وقوع الغلب عن أمور السماوية، كما شرحه، معنى قوله صلى الله عليه وسلم: 'تُصِرُّ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ'. وما وقع من غبه لمشركين في حياته بالعدد لقين، وغيب المسمين إياهم بعده كذلك في لفتوحات، فإن لله سبحانه وتعالى تكفل لنبيه بإلقاء الرعب في قلوب الكافرين حتى يستولي على قلوبهم فينهزموا، معجزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم. فكان الرعب في القلوب سبباً للهزائم في الفتوحات الإسلامية كلها، لا أنه خفي عن لعيون.

* تبدأ من هـ إلى آخر فصل يتفق نص مع نص محققه [] مع بعض تعديلات حقيقه

(٩٠) نظر

A. J. Wensinck, A Handbook for the Study of Muhammad and Tradition, 1927 II 284

وقد ذكر الطرطوشي⁽⁶⁰⁾ أن من أسباب الغلب في الحرب أن تعصل عدة الفرسان مشاهير من الشجعان في أحد الجانبين على عدتهم في الجانب الآخر، مثل أن يكون أحد الجانبين فيه عشرة أو عشرين من الشجعان لمشهير وفي الجانب الآخر ثمانية أو ستة عشر. فاجانب الزائد ولو بواحد يكون له لغت وأعداد في ذلك وأبدا. وهو راجع إلى الأسباب الظاهرة التي قدمنا وليس بصحيح. وإنما الصحيح المعتبر في الغلب حال العصية، ما تكون في أحد جانبيين عصبية واحدة جامعة لكلهم، وفي الجانب الآخر عصابة متعددة، والجانبان متقاربان في العدة. فإن الجانب الذي عصبته واحدة أقوى وأغلب من الجانب الذي هو عصابات متعددة. لأن العصابات إذ كانت متعددة يقع بينها من التخاذل ما يقع في الوحدات المفترقين الفاقدين للعصية، إذ تنزل كل عصابة منهم منزلة الواحد. ويكون الجانب الذي عصابته متعددة لا يقوم الجانب الذي عصبته واحدة لأجل ذلك. فتفهمه واعلم أنه أصبح في الاعتبار مذهب إليه الطرطوشي. ولم يحمله على ذلك إلا شأن لعصبية في جيشه وبهده. ولأنهم إنما يريدون الدفاع والحماية والمطالبة إلى الوحدات والجماعة الناشئة عنهم، ولا يعتبرون في ذلك عصبية ولا نسب. وقد بينا ذلك في أول الكتاب.

مع أن هذا وأمثاله، على تقدير صحته، إنما هو من الأسباب الظاهرة، مثل اتفاق الجيشين في العدة، وصدق القتال، وكثرة الأسلحة، وما أشبهها. فكيف يجعل ذلك سبباً كفيلاً بالغلب، ونحن قد قدرنا الآن أن شيئاً منها لا يعارض الأسباب خفية مثل الخيل والخنزير، ولا الأمور السماوية من الرعب والخذلان الإنهبي؟ فدعلمه، تفهم أحوال الكون، فأنله مقدر الليل والنهار

(60) انظر سراج الملوك، النص اثني عشر

" اعداد [1]

ويحق معنى العيب في خروب، وأن أسسه حمية وغير طيعية، حُر
الشهرة ولصيت، فقل أن تصدق موضعها في أحد من طبقات الناس من
المبوث أو النعماء، أو لصحين أو مسحين نمصل على العموم فكثير ممن
اشتهر وبعد صيته وليس هناك، وكثير ممن تنتهر بالشرف وهو خلافه، وكثير ممن
تجاوزت عنه الشهرة وهو أحق بها وأهيب. وقد تصادف موضعها وتكون طبقاً
على صاحبها. ونسب في ذلك أن شهرة ولصيت إنما هي بالأخبار.
والأخبار يدخلها الذهون عن المقاصد عند التدقيق، ويدخلها التعصب
والتشيع، وتدخلها الأوهام، ويدخلها الجهل بمطابقة الحكايات للأحوال
خفتها بالتبليس والتصنع أو لجهل الناقل، ويدخلها لتقرب لأصحاب التجارة
والمراتب، والندوية بالثناء والمدح وتحسين الأحوال وإشاعة الذكر بذلك.
والنفوس مولعة بحب الثناء، والناس متناولون إلى لئلي وأسيابها من جاء أو
ثروة، وليسوا في الأكثر برغبين في انفصائل ولا منافسين أهلها. وأين مطابقة
حق من هذه كنه؟ فتحصل الشهرة عن أسباب خفية من هذه، وتكون غير
مطابقة. وكل ما حصل بسبب خفي فهو الذي يُعبر عنه بالبحث، كما تقرر.
والله أعلم.

[36] في الجبابة وسبب نقصها ووفورها

اعلم أن جبابة أول الدولة تكون قليلة الوزائع كثيرة الجملة، وأحر الدولة تكون كثيرة الوزائع قليلة الجملة. والسبب في ذلك أن الدولة، إن كانت على سنن الدين، فليس إلا المغارم الشرعية من الصدقات، والخرج، والجزية. وهي قليلة الوزائع، لأن مقدار الزكاة من المال قليل كما عمت. وكذا زكوت الحبوب والمأشية، وكذا الجزية والخراج وجميع المعرم الشرعية. وهي حدود لا تتعدى. وإن كانت على سنن العصبية والتغيب، فلا بد من البداوة في أولها، كما تقدم. والبداوة تقتضي المسامحة والمكرمة وخفض الحنح والتجافي عن أمور الناس والغفلة عن تحصيل ذلك إلا في النادر. فيقتل لذلك مقدار الوظيفة الواحدة والوزيعة التي تجتمع الأموال من مجموعها. وإذا قلت الوزائع والوظائف على الرعايا نشطوا لعمل ورعوا فيه، ويكثر لاعتمار ويتزايد الحصول الاغنياء بقلة المغرم. وإذا كثر لاعتمار كثر أعداد تلك الوظائف والوزائع، فكثرت الجبابة التي هي حمها.

* في جبابة وسبب قننها وكثرتها [1]، [ب]

** الشرعية، وهي قليلة الوزائع [1]، [ب]

*** الجزية وجمع [1]، [ب]

**** بجمع المال من [1]، [ب]

فإذا استمرت الدولة واتصلت. وتعاقب مدوكها واحداً بعد واحد، وانصفو
بأنكيس، وذهب سر البداوة والسداجة وحلقها من الإغضاء والتجافي، وجاء
لملك العضوص والحضارة الناعية إلى الكيس وتخلق أهل الدولة بهنق
لتحذلق، وتكثرت عوائدهم وحاجاتهم بسبب ما انغمسوا فيه من النعيم
والترف، فيكثرون الوظائف والوزائع حينئذ على الرعايا والأكرية ولفلحين
وسائر أهل المغارم. ويزيدون في كل وظيفة ووزيرة مقداراً عظيماً لتكثر لهم
الجباية. ويضعون المكوس على البياعات وفي أبواب المدينة، كما نذكر بعد. ثم
تدرج لزيادات فيها مقداراً بعد مقدار لتدرج عوائد الدولة في الترف وكثرة
حاجات والإنفاق بسببه، حتى تثقل المغارم على الرعايا وتبهضهم وتصير عادة
معروضة. لأن تلك الزيادة تدرجت قليلاً قليلاً ولم يشعر أحد بمن زاده على
النعمين ولا من هو واضعها، إنما تثبت على الرعايا كأنها عادة مقروضة.

ثم تزيد إلى الخروج عن حد الاعتدال. فتذهب غبطة الرعايا في الاعتماد
لدهب لأمل من تقوسهم بقله النفع إذا قابل بين نفقته ومغارمه وبين ثمرته
وفائده، فيقبض^١ كثير من الأيدي عن الاعتماد جملة، فتتقص جملة احبابه
حينئذ ينقص تلك الوزائع منها. وربما يزيدون في مقدار الوظائف إذا رأوا
ذلك النقص في الجباية، ويحسبونه جبراً لما نقص، حتى ينتهي كل وصيفة
وزيرة إلى عاية ليس وراءها نفع ولا فائدة لكثرة الإنفاق حينئذ في الاعتماد
وكثرة امغارم وعدم وفاء الفائدة المرجوة به. فلا تزال الجملة في نقص ومقدار
الوزائع والوظائف في زيادة لما يعتقدونه من جبر الجملة بها إلى أن ينتقص
العمران بذهاب الآمال من الاعتماد. ويعود ويال ذلك على الدولة، لأن فائدة
الاعتماد عائدة إليها. وإذا فهمت ذلك علمت أن أقوى الأسباب في الاعتماد
تقنين مقدار الوظائف على المعتمدين ما أمكن، فبذلك تنشيط النفوس ليقينها
بإدراك المنفعة فيه. والله مالك الأمور.

^١ احماية، ثم [ب]، [ب]

^٢ "نمرته فيتنقبض" [ب]، [ب]

[37] في ضرب المكوس آخر الدول

اعلم أن الدول تكون في أولها مدوية، كما قلنا. فتكون نذلك قسبة
الحاجات لعدم الترف وعوائده، فيكون خرجها وإنفاقها قليلاً فيكون في
الحياة حينئذ وفاء بأزيد منها، بل يفضل منها كثير عن حاجاتها.
ثم لا يلبث أن تأخذ بدين الحاضرة والترف وعوائدها، وتجرى عنى بهج
دول السالفة قلها، فيكثر لذلك خرج الدولة. ويكثر حرج لسلطان
حصول كثرة بالغة بنفقته على خاصته وكثرة عطائه. ولا تفي بذلك الجباية،
فتحتاج الدولة إلى الزيادة في الجباية لما تحتاج إليه الحامية من العطاء ولسلطان
من النفقة. فتزيد في مقدار الوظائف والنوراع أولاً، كما قلناه ثم يزيد
الخرج والحاجات بالتدريج في عوائد الترف وهي العطاء للحامية. ويدرك
لدولة لهرم، وتضعف عصابتها عن جاية الأموال من الأعمال والقافية،
فتقل الجباية وتكثر العوائد. وتكثر بكثرتها أرزاق الجند وعطاؤهم، فيستحدث
صاحب الدولة أنواعاً من الجباية يضربها على البياعات، ويفرض لها قدرًا

* في ضرب المغارم في الدول [1] : في ضرب المكوس [ب]

** لعطاء، فتزيد [1]، [ب]

** المخرج بالتدريج [1]، [ب]

معلوماً على الأثمان في الأسواق وعلى أعيان السلع في أبواب المدينة وهو مع هذا مضطرب لذلك بما دعاه إليه ترف الناس من كثرة العطاء مع زيادة الجيوش والحامية. وربما يزيد ذلك في آخر الذون زيادة بالغة، فتكسد الأسواق بفساد لأمان، ويؤذن ذلك باختلال العمران، ويعود على الدولة، ولا يزال ذلك يتزايد إلى أن تضمحل.

وقد كان وقع منه بأمصار المشرق في أخريات الدولة العباسية ولعبيدية كثير، وفُرِضَت المفارم حتى على الخاج في الموسم. وأسقط صلاح الدين بن أيوب رحمه الله تلك الرسوم جملة وأعاضها بأثار الخير. وكذلك وقع سالدنس لعهد الطوائف، حتى محي رسمه يوسف بن تاشفين، أمير المرائين. وكذلك وقع بأمصار الجريد بإفريقية لهذا العهد، حين استبد بها رؤساؤها.

والله سبحانه لطيف بعباده.

شند - من هذا، نهاية حملة في [1]، و[2] المهدي. حتى من الله على أهلها بالدوخون في بيانه مولانا أمير المؤمنين أبي المصاح، أبده الله، والرحوع إلى ملكة عدله، ففتنهم عنهم بحق لعمي ودهبت أثار المنكوس والظلم.

[38] في أن التجارة من السلطان مضرّة بالرعايا

مفسدة للجباية

اعلم أن الدولة إذا ضاقت جبايتها بما قدمناه من الترف وكثرة العوائد
و تنفقات، وقصر أخا صل من جبايتها عن الوفاء بحاجاتها ونفقاتها،
و احتاحت إلى مزيد المال والجباية، فتارة بوضع المكوس على يبيعات الرعايا
و سواهم كما قدمنا ذلك في الفصل قبله، وتارة بالزيادة في ألقاب المكوس
كأن قد استحدثت قبل، وتارة بمقاسحة العمال والجباة وامتلاك عصمهم
يرون أنهم قد حصلوا على طائل من أموال الجباية لا يُظهره الحسب، ونزله
باستحداث التجارة و الفلج للسلطان حرصاً على تنمية الجباية لما يرون لتجار
و فلاحين يحصلون على الفوائد والغلات مع يسارة أموالهم وأن الأرباح
تكون على نسبة رؤوس الأموال. فيأخذون في اكتساب الحيوان والنبات
لاستغلاله، وفي شراء البضائع والتعرض بها لحوالة الأسواق، يحسبون ذلك
من إدراج الجباية وتكثير الفوائد.

وهو غلط عظيم، وإدخال للضرر على الرعايا من وجوه متعددة. فأولاً،
مضايقة الفلاحين والتجار في شراء الحيوان والبضائع وتيسير أسباب ذلك.
فإن الرعايا متكاثرون في اليسار أو متقاربون، ومزاحمة بعضهم بعضاً يستهي

هذا الفصل لم يرد في ['] و [ب].

إلى عاية موحودهم أو تقرّب. وإذا رافقهم السلطان في ذلك، وماله أعظم كثير منهم، فلا يكاد أحد منهم يحصل على غرضه في شيء من حاجته، ويدخل على النفوس من ذلك غم أو نكد. ثم إن السلطان قد ينتزع الكثير من ذلك إذا تعرض له غصباً وبأسر ثمن، إذ لا يجد من ينافسه، فيبخس ثمنه على بائعه. ثم إذا حصلت فوائد الفلاحة ومغلاها كله من زرع أو حرير أو عسل أو سكر أو غير ذلك من أنواع الغلات، وحصلت بضائع التجار من سائر الأنواع، فلا ينتظرون به حوالة الأسواق ولا نفاق البياعات لما تدعوهم إليه تكليف الدولة، فيكلفون أهل تلك الأصناف من تاجر أو فلاح بشراء نكت سصائع ولا يرضون في أثمتها إلا القيم وأزيد. فيستوعبون في ذلك ناص مولهم، وتبقى تلك البضائع بأيديهم عروضاً جامدة، ويكتنون عطلاً من الإريادة التي فيها كسبهم ومعاشهم. وربما تدعوهم الضرورة إلى شيء من المن، فيبيعون تلك السلع على كساد من الأسواق بأبخس ثمن ويزيد يتكرر ذلك على التاجر أو الفلاح منهم بما يذهب برأس ماله، فيقعّد عن سوقه ويتعدّد ذلك ويتكرر، ويدخل به على الرعايا من العن والمضائق وفساد الأروح ما يفيض آمالهم عن السعي في ذلك جملة، ويؤدي إلى فساد حياة من معظم الجباية إنما هي من الفلاحين والتجار، لاسيما بعد وضع المكوس وعمو الجباية بها. فإذا انقبص الفلاحون عن الفلاحة، وقعد التجار عن التجارة، ذهبت الجباية جملة، أو دخلها النقص المتفاحش.

وإذا قيس السلطان بين ما يحصل له من الجباية وبين هذه الأرباح القليلة، وجدها بالنسبة أقل من القليل. ثم إنه ولو كان مفيداً فيذهب له بحظ عظيم من الجباية فيما يعانیه من شراء وبيع، فإنه من البعيد أن يؤخذ منه مكس. ولو كان غيره في تلك الصفقات لكان مكسها كلها حاصلاً من جملة الجباية.

ثم فيه، لتعرض لفساد عمرانه واختلال الدولة بفساده ونقصه. فإن الرعايا إذا قعدوا عن تمييز أموالهم بالفلاحة والتجارة نقصت وتلاشت بالنفقات، وكان فيها تلافٍ أحوالهم. فاهم ذلك.

ونقد كان المرس لا يملكون عليهم إلا من أهل بيت المملكة ثم يحتدونه من أهل الدين والفضل والأدب والسخاء والشجاعة والكرم. ثم يشترطون عليه مع ذلك العدل، وأن لا يتخذ ضيعة فيضر بجيرانه، ولا يتاجر فيجب غلاء الأسعار في البضائع، ولا يستخدم العبيد، فإنهم لا يشيرون بخير ولا مصلحة.

وعلم أن السلطان لا يثمر ماله ويدر موجوده إلا الجباية. ودراره إنما يكون بالعدل في أهل الأموال والنظر لهم. فبذلك تنبسط أموالهم وتنشرح صدورهم للأخذ في ثمر الأموال وتنميها، فتعظم منها جباية السلطان. وأما غير ذلك للسلطان من تجارة أو فلح، فإنما هو مضرّة عاجلة للرعايا ومفسدة سجيبة ونقص للعمارة.

ونقد ينتهي الحال بهؤلاء المنتحلين للتجارة والملاحة من الأمور، ولتغدى في لبدان أنهم يتعرضون لشراء الغلات والسلع من أربابها الموردين إلى سددهم. ويفرضون لذلك من الثمن ما يشاؤون، ويبيعونها في وقتها لمن تحت أيديهم من الرعايا بما يقرضونه من الثمن. وهذه أئدة من الأولى وأقرب إلى مفسدة الرعية واختلال أحوالهم. وربما يحمل السلطان على ذلك من بد حبه في هذه الأصناف، أعني التجار والملاحين، بما هي صناعته التي يشأ عليها. فيحمل السلطان على ذلك، ويضرب معه بسهم لنفسه. فيحصل على عرصه من جمع المال سريعاً، سيما مع ما يحصل له من التجارة بلا مغرم ولا مكس، فإنها أجدر بنمو الأموال وأسرع في ثمرها. ولا يفهم مع ذلك ما يدخر على السلطان من الضرر بنقص جبايته. فينبغي للسلطان أن يحذر من هؤلاء ويعرض عن سمائتهم المضرّة بجبايته وسلطانه.

والله سبحانه وتعالى يلهيهم رشداً أنفسنا وينفعنا بصالح أعمالنا، لا رب غيره.

[39] في أن ثروة السلطان وحاشيته إنما تكون في
وسط الدول*

ولسب في ذلك أن الجباية في أول الدولة تتورع على القبيس وأهل
العصبة بمقدار غنائمهم وعصبيتهم، ولأن الحاجة إليهم في تمهيد لدولة كما
فساه من قبل. فتريسهم في ذلك متجاف لهم عما يسمون إليه من الخباية،
معتص عن ذلك بما هو يروم من الاستبداد عليهم. فلهم عليه عزة، وله إليهم
حاجة. فلا يطير في سهامه من الجباية إلا الأقل من حاجته. فتحد حاشيته
لذلك ودائه من الوزراء والكتاب والموالي مملقين في الغالب وجههم
متقلص، لأنه من حاد مخدومهم، ونطاقه قد ضاق بمن يزاحمه فيه من أهل
عصبيته.

فيذا استنفحت طبيعة الملك وحصل لصاحب الدولة الاستبداد على قومه،
قبض أيديهم عن الجبايات إلا ما يطير لهم بين الناس في سهامهم. وتقل
حظوظهم إذ ذاك لقلة غنائمهم في الدولة بما انكبج من أعتهم وصار المولي
والصنائع مساهمين لهم في القيام بالدولة وتمهيد الأمر. فينفرد صاحب الدولة
حينئذ بالجباية أو معطما، ويحتري على الأموال ويحتجها للشفقة في مهمات

* الدولة [1]، [ب]، [ج]، [د]، [هـ]

** عبيهم [1]، [ب]

الأحوال. فتكثر ثروته، وتمتلى خزائنه، ويتسع نطاق حاهه، ويعمر على سائر قومه فيعظم حال حاشيته وذويه من وزير، وكاتب، وحاجب، وموئى، وشرطي، ويتسع جاههم ويقتنون الأموال ويتأثلوها.

ثم إذا أخذت الدولة في الهرم بتلاشي العصبية وفناء القليل الماهدين للدولة. يحتاج صاحب الأمر حينئذ إلى الأعوان والأنصار لكثرة الخرج ولنزعين والتوار وتوهم الانتقاض. فصار خراجه لظهرائه وأعوانه، وهم أرباب لسيوف وأهل العصبية، وأنفق خزائنه وحاصله في مهمات جبر الدولة. وقدت مع ذلك الجباية لما قدمناه من كثرة العطاء والإنفاق. فيقل الخراج، وتشتد حاجة الدولة إلى المال، فيتقلص ظل النعمة والترف عن الخواص والحجاب والكتاب بتقلص الجاه عنهم وضيق بطقه على صاحب الدولة.

ثم تشتد حاجة صاحب الدولة إلى المال، وينفق أبناء البطانة والحشية ما تنال أبائهم من الأموال في غير سبيلها من إعانة صاحب الدولة، ويقسور على غير ما كان عليه أبائهم وسلفهم من المناصحة، ويرى صاحب الدولة أنه أحق بتلك الأموال التي اكتسبت في دولة سلفه وبجاههم، فيصطنعهم وينزعها منهم لنفسه شيئاً فشيئاً، وواحدًا بعد واحد على نسبة رتبهم وتتكبر الدولة بهم. ويعود وبأل ذلك على الدولة بفناء حاشيتها ورحلاتها وهم الثروة واسعة من بطانتها، ويتقوض بذلك كثير من ماني المجد بعد أن يدعمه أهله ويرفعوه.

وانظر ما وقع من ذلك لوزراء الدولة العباسية في بني قحطبة وبني برمك وبني سهل وبني طاهر وأمثالهم. ثم في الدولة الأموية بالأندلس عند انحلالها أيام الطوائف، في بني شهيد وبني أبي عبدة وبني حذير وبني برد وأمثالهم. وكذا في الدولة التي أدرناها نعهدنا، سنة الله، ولن تجد لسنة الله تدليلاً^{١٠}.

١٠ (٦١) ٦٢ من سورة الأحزاب

وإذا يتوقعه أهل الدولة من مثل هذه المعطى، صار الكثير منهم يرسوب
بى نمر عن الترتب والتحصن عن ربة لسطارى حصص بئديهم من مد
دولة إلى قطر آخر. ويرون أنه ههناهم وأسسم في إنفاقه وحصون ثمرته.
وهو من لأغلاط لفاحشة ولأوهم لمفسدة لأحوالهم وديهم.

وعلم أن إخلاص من ذلك بعد الحضور فيه عسير تمتنع. فإن صاحب هذا
الغرض، إن كان هو ملكت نفسه، فلا تمكنه الرعية من ذلك طرفة عين، ولا أهل
العصبية المزحمون له، بل في ظهور ذلك منه هدم ملكه وتلاف نفسه لجاري
العدة بذلك. لأن ربة الميث يعسر لخلاص منها، سيما عند استفحال الدولة
وضيق نطاقها وما يعرض فيها من البعد عن نجد والخلال والتخلف بالشر.

وأما إن كان صاحب هذا الغرض من بطانة لسلطان وحاشيته وأهل لرتب
في دولته، فقل أن يُخلّى بينه وبين ذلك. إما أولاً فلما يراه سوك أن ذويهم
وحاشيتهم، بل وسائر رعايهم ممالك لهم، مطلقون على ذات صدورهم. فلا
يسمحون بحل ربقته من الخدمة، ضمانة بأسرهم وأحوالهم أن يصنع عليها
أحد، وغيره من خدمته لسوهم.

ونقد كان بنو أمية بالأندلس يمنعون أهل دولتهم من السفر لفريضة الحج لما
يتوهمونه من وقوعهم بأيدي بني عباس. فلم يحج سائر أيهم من أهل
دولتهم، وما أبيع الحج لأهل لدور من الأندلس إلا بعد فرغ شأن الأموية
ورجوعها إلى الطوائف.

وإما ثانياً، فإنهم فإن سمحوا بحل ربقته فلا يسمحون بالتجافي عن ذلك
المثل لما يرون أنه جزء من مالهم كما كان ربّه جزءاً من دولتهم، إذ لم يكتسب
إلا به وفي ظل حاهها. فتحول نفوسهم على نزاع ذلك المثل أو بقائه كما
كان هو جزءاً من الدولة ينتفعون به.

ثم إذا توهمنا أنه خلص بذلك المال إلى قضا آخر، وهو في الدندر لأقرب،
فتمتد إليه أعين الملوك بذلك القطر، وينتزعونه بالأرهاب والتخويف تعريضا
أو بالتفهم ظاهرا لما يرون أنه مال الجباية والدول، وأنه مستحق للإنفاق في
منصالح، فإذا كانت عيونهم تمتد إلى أهل الثروة واليسار المكتسب من وحوه
المعاش، كما ذكرنا، فأحرى بها أن تمتد إلى مان الجباية والدول التي تجد لسبيل
إليه بالشرع والعادة.

و نضرب ما وقع لقاضي حَبْلَة⁽¹⁾ انشأ عليها على ابن عمر، صاحب
طرابلس، ما غلبه الفرنج عليها ونجا إلى دمشق، ثم إلى بغداد، وفيها السلطان
بركياروق بن ملكشاه، وذلك آخر المائة الخامسة، فجاءه وزير لسلطان
واستقرض منه غالب ماله، ثم استصفوه جميعا، وكان لا يُعْبَر عنه كثرة.
ولقد حاول السلطان أبو يحيى زكرياء بن أحمد اللحياني، تاسع أو عاشر
مليك الحفصيين بإفريقية، الخروج عن عهدة الملك واللاحق بمصر فرز من
طلب صاحب الثغور الغربية لما استجمع لغزو تونس فاستعمل للحياني
الرحمة إلى ثغر طرابلس يوري بتمهيد. وركب السفن من هناك، وخصص
إلى الإسكندرية بعد أن حصل جميع ما وجد ببیت المال من النصيب
والذخيرة، وباع كلما كان بحرا منهم من المتاع والعقار والجوهر، حتى الكتب،
واحتمل ذلك كله إلى مصر، ونزل على الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة
تسع عشرة من المائة الثامنة. فأكرم نزله ورفع مجلسه، ولم يزل يستخلص
ذخيرته شيئا فشيئا بالتعريض إلى أن حصل عليها. ولم يسق معاش بن
سحبي إلا في جرابته التي فرض له إلى أن هناك سنة ثمان وعشرين،
حسبما نذكره في أخباره.

⁽¹⁾ القطر، وتنزعه إرهابا وتخويفا أو ظاهرا [1]، [ب].

⁽²⁾ هذه النفقة ثم ترد في [] [ب].

[62] وهو عبيد الله بن منصور بن سيمان. وحلة لغة حوب نطكية كما ذكر بعد حدث في
الكامل لاس الأثر، ج 10، ص 28، وما بعدها

⁽³⁾ حربه إلى [1]، [ب].

فهذا وأمثاله من حملة سوسوس الذي يعتري أهل لدور إذ بتوقعونه من
ميوكهم من المعط. وإي يحصلون إن اتفق بهم الخلاص بأنفسهم. وما
بتوهمونه من الحاجة، فعند دهم ولدي حصل لهم من الشهرة بخدمة
الدول كاف في وحدان معاش لهم بخرايت السبائية أو باله في استحباب
طرق الكسب من التجارة وللاحة. والدول تُسب.

لكن النفس رغبة إذ رغبتهَا وإذ تُرَدُّ إلى قَبيل تقنع^{١٠٠}

ولله الرزاق ذو القوة المتين^{١٠١}.

١٠٠ - حيث يشعر أي دؤيب ندي كرس في لقلب لأول لبحرة نظر من عند ر، العقد
لثريد، ج ١، ص ٦

١٠١ - نفس لحد في مخطوطة [فصلا حذف من جميع مخطوطات أخرى ومحوه في أن
حبران لأموون إنما يكون في أواسط ادون. نظر نصحه الخاصة بمقدمة، ج ٥، ص ١٠، يسير من
حذف منه نفس للاحته كرس حبر في مثل في عهد مأمون وهذه للالحة سبق أن وردت في
نفس ندي مخطوطة في ١٠١ - موه كرس على نسبه وحب في أصبه نظر حفرة لأور.

ص ٣٥٦ ٣٥٦

١٠٢ - ٩٨ من سورة المدثر

[40] في أن نقص العطاء من* السلطان نقص في الحياة

والسبب في ذلك أن الدولة والسلطان هي السوق الأعظم للعالم، ومنه مادة العمران. فإذا احتجج السلطان الأموال والجبايات أو فُقدت فلم يصرفها في مصارفها قلَّ حينئذ ما بأيدي الخاشية، وانقطع* أيضا ما كان يصل منهم لخاشيتهم وذويهم، وقلَّت نفقاتهم جملة. وهم معظم السواد، ونفقاتهم أكثر مادة للأسواق من سواهم، فيقع الكساد حينئذ في الأسواق وتضعف الأرباح في متاجر لقلة الأموال، فيقلُّ الخراج لذلك. لأن الخراج والحباية إنما يكون من الاعتمار والمعاملات ونفاق الأسواق وطلب الناس للفوائد والأرباح. ووبال ذلك عائد على الدولة بالنقص. لقلة أموال السلطان حينئذ بقلة الخراج. فإن الدولة كما قلناه هي السوق الأعظم. أمُّ الأسواق كلها. وصدها ومادتها في الدخل والخروج*. فإذا كسدت وقلَّت مصارفها، فأحذر بما بعدها من الأسواق أن يلحقها مثل ذلك وأشد منه. وأيضا فالمال إنما هو متردد بين الرعية والسلطان. منهم إليه، ومنه إليهم. فإذا حبسه السلطان عنده فقدته الرعية، سنة* الله في عبادته.

* إعطاء والإعناق من [أ].

** الخاشية والحامية، وانقطع [أ]، [ب]

*** ومادتها من دخل وخروج [أ]، [ب]

**** حسبه عنهم فقلوه. سنة [أ]، [ب]

[41] في أن الظلم مؤذن بخراب العمران

اعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بأموالهم في تحصينها واكتسابها لما يروونه حييئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم. وإن دهمت أموالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعي في الاكتساب فإن كان الاعتداء كثيرًا وعمًا في جميع أبواب المعاش، كان الفعود عن الكسب كذلك لذهابه بالأمال جملة بدخوله من جميع أبوابها وإن كان الاعتداء يسيرًا كان الانقباض عن الكسب على مسته. والعمران ووفوره وتقدُّق أسواقه إنما هو بالأعمال وسعي الناس في المصالح والمكاسب، ذاهبين وحائين، فإذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت أيديهم عن المكاسب، كسدت أسواق العمران وانقضت الأحوال وابدعز الناس في الآفاق من غير تنك الإيالة وهي طلب الرزق فيما خرج عن نطاقها. فخفف ساكن القطر، وخمت دياره، وخربت أمصاره، واختل باختلاله حال الدولة والسلطان لما أنها صورة للعمران تفسد بفساد مادتها ضرورة.

ونظر في ذلك ما حكاه المسعودي¹⁶⁵ في أخبار الفرس عن لموبدن،

(167) نظر مروج الذهب، ج 1، ص 292-294

صاحب الدين عندهم أيام بهرام بن بهرام. وما عرض به للملك في إنكار ما
 كن عليه من انظّم والغفلة عن عائدته في الدولة بضرب المثال في ذلك على
 لسان اليوم حين سمع الملك أصواتها، وسأله عن فهم كلامها، فقال: "إن يومًا
 ذكرًا يوم نكاح يوم أنثى، وإنها شرطت عليه عشرين قرية من خراب في
 أيام بهرم لتتزوج فيها. فقبل شرطها وقال لها: إن دامت أيام الملك أقطعتك
 ألف قرية. وهذا أسهل مرام". فتنبه الملك من غفلته، وخلا بالموبذن وسأله
 عن مراده فقال: "أيها الملك، إن الملك لا يتم عزه إلا بالشرعية والقيام لئله
 بطاعته والتصرف تحت أمره ونهيه، ولا قوام للشرعية إلا بالملك، ولا عز
 لملك إلا بالرحمان، ولا قوام للرحمان إلا بالمال، ولا سبيل إلى المال إلا
 بالعمارة، ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل. والعدل المنيزان المنصوب بين حليقة،
 نصه الرب وجعل له قِيمًا، وهو الملك. وإنك أيها الملك عمدت إلى انصباع
 وانتزعت من أربابها وعمّارها، وهم أرباب الخراج ومن تؤخذ منهم الأموال،
 وأفضعتها لأحاشية والخدم وأرباب السقاية. فتركوا العمارة وانظروا في
 لعواقب وما يصلح الصباغ، وسومحوا في الخراج لقرتهم من لئك، ووقع
 لحف على من بقى من أرباب الخراج وعمّار الضياع. فانجلوا عن صيغهم،
 وخلوا ديارهم، وآووا إلى ما بُعد أو تعدّر من الضياع فسكوها فقلت
 لعمارة، وحرب الضياع، وقلت الأموال. وهلك الخود والرعية، وطمع
 في ملك فارس من حاوهم من الملوك لعلمهم بانقضاء المواد التي لا تستقيم
 دعائم الملك إلا بها".

فما سمع الملك ذلك، أقبل على النظر في منكه، وانتزعت الضياع من
 أيدي الخاصة وردّت إلى أربابها، وحملوا على رسومهم السالفة، وأخذوا
 بالعمارة، وقوي من ضعف منهم. فعمرت الأرض، واختصبت لبلاد.

* بهرام، فقبل [1]

** أهل [1].

** إلى ما نعت [1]

وكترت الأموال عند جباية الخراج، وقويت الجنود، وقطعت مواد لأعداء، وشحنت الثغور، وأقبل الملك على مباشرة أموره بنفسه، محسنت أيامه، وانتظم ملكه، فتفهم من هذه الحكاية أن الظلم مخرب للعمران، وأن عائدة الخراب في العمران على الدولة بالفساد والانتقاص.

ولا نتظر في ذلك إلى أن الاعتداء قد يوجد بالأمصار العظيمة من الدول التي بها، ولم يقع فيها خراب. واعلم أن ذلك إنما جاء من قيل المناسبة بين الاعتداء وأحوال أهل المصر. فلما كان المصر كبيراً وعمرانه كثيراً، وأحواله متسعة بما لا ينحصر، كان وقوع النقص فيه بالاعتداء والظلم يسيراً، إذ لنقص إنما يقع بالتدرج. فإذا خفي بكثرة الأحوال واتساع الأعمال في المصر، لم يظهر أثره إلا بعد حين. وقد تذهب تلك الدولة المتعدية من نصيبها قبل خراب المصر، وتحيى الدولة الأخرى فترفعه بجدها، وينتجى النقص الذي كان خفياً فيه فلا يكاد يُشعر به. إلا أن ذلك في الأقل. والمراد من هذا أن حصون النقص في العمران عن الظلم والعدوان أمر واقع لا بد منه لما قدمناه. ووباله عائد على الدول.

ولا تحسن الظلم إنما هو أخذ المال أو الملك من يد مالكه من غير عوض ولا سب، كما هو المشهور. بل الظلم أعم من ذلك. وكل من أخذ ملك أحد أو عصبه في عمله أو طالبه بغير حق أو فرض عليه حقاً لم يعرضه الشرع فقد ظلمه. فحجة الأموال بغير حقها ظلمة، والمعتدون عليها ظلمة، والمنتهبون لها ظلمة، والمنعون لحقوق الناس ظلمة، وغصاب الأملاك على العموم ظلمة. ووبان ذلك كله عائد على الدولة بخراب العمران الذي هو مادتها لذهاب الأموال من أهلها. واعلم أن هذه هي الحكمة المقصودة للشارع في تحريم الظلم وما ينشأ عنه من فساد العمران وخرابه، وذلك مؤذن بانقطاع النوع البشري. وهي الحكمة العامة المراعاة للشرع في جميع مقاصده الضرورية

^{١١} الدولة المتعدية قبل (١)

الحمسة. من حمظ الدين والعقل والنفس والنسل والمال. فلما كد الصلح كما رأيت مؤذناً بانقطاع النوع لما أدّى إليه من تخريب العمران، كانت حكمة الحظر فيه موجودة، فكان تحريره مهماً. وأدلتّه من القرآن والسنة كثيرة، أكثر من أن يأخذها قانون الضغط والحصر. ولو كان أحد قادراً عليه لوضع يازائه من العقوبات الزاجرة ما وضع يازاء غيره من المفسدات للنوع التي يقدر كل أحد على اقترافها من الزنا والقتل والسكر. إلا أن الظلم لا يقدر عليه إلا من لا يُقدّر عليه، لأنه إنما يقع من أهل القدرة والسلطان. فبولغ في ذمه وتكثير الرعيده فيه عسى أن يكون الوازع فيه للقادر عليه من نفسه.

وما ريك بظلام للعبيد⁽¹⁶⁶⁾.

ولا تقولس إن العقوبة قد وُضعت يازاء الخرابة في الشرح، وهي من ضمه القدر، لأن المحارب زَمَنَ حرايته قادر، فإن الجواب عن ذلك من طريقتين. أحدهما أن تقول العقوبة التي وُضعت في ذلك إنما هي يازاء ما يقتره من خدائات في نفس أو مال على مذهب إليه كثير. وذلك إنما يكون بعد القدرة عليه ولطالة بحتانيته. وأما نفس الحرابة، فهي خلو من العقوبة. انطريق الثاني أن تقول المحارب لا يوصف بالقدرة، لأننا إنما نعني بقدرة الظالم أي المسوطة التي لا تعارضها قدرة، فهي المؤذنة بالخراب. وأما قدرة المحارب فهي إحافه يجعلها ذريعة لأخذ الأموال والمدافعة عنها بيد الكل موجودة شرعاً وسياسة، مبيست من القدرة المؤذنة بالخراب. والله قادر على ما يشاء.

ومن أشد الظلمات وأعظمها إفساداً للعمران تكليف الأعمال من قبيل التمولات لم سنيين في باب الرزق أن الكسب والرزق إنما هو قيم أعمال أهل لعمرن. فإذا مساعيهم وأعمالهم كلها متمولات ومكاسب لهم، بل لا مكاسب لهم سواها. فإن الرعية المعتملين في العمارة إنما معاشهم ومكاسبهم

* لقدرة، فبولغ⁽¹⁾

(166) آية 46 من سورة فصلت (41)

* "الفقرة التي تتدرئ من هال لم ترد في [1]"

من اعتمادهم ذلك فإذا كثفوا العمل في غير شأنهم واتَّجِدُوا سحرًا في غير
معاشهم بطن كسهم واعتصموا قيمة عملهم ذلك، وهو متموُّلهم فدخل عليه
الضرر، وذهب لهم حظ كبير من معاشهم، بل هو معاشهم بالخسة وإن تكرَّر
ذلك عليهم فساد ما لهم في العمارة وقعدوا عن سُعي فيها حملة فاذى ذلك
بني تنقص العمران وتحريره

وانه يبرق من يشاء بغير حساب .

وعُضِبَ من ذلك في الظنم وفُسد عمران والدولة التسلط على الدس في
شراء ما يبيدهم بحسن الأئمة، ثم فرص المصانع عليهم بأرفع الأئمة على
وجه نصيب وإكراه في الشراء والبيع ورعا يُفرص عنهم تلك الأئمة
على سرحي والتأجيل، فيتعللون في الخسرة التي تحفهم بما تحدُّتهم به
المطامع من جرَّد ذلك بحوثة لأسواق في تلك المصانع التي فُرِصت عليهم
بالعلاء. ثم يطالبون بتلك الأئمة معصية، فيضطرون إلى بيعها بأحسن الثمن،
وتعود حسارة ما بين الصفتين على رؤوس أموالهم وقد يعم ذلك أصناف
التجار المقيمين بالمدينة والوردية من الأفاق في المصانع وسائر الأسواق وأهل
تدككين في المأكول ومواكه وأهل المصانع فيما يتخذ من الآلات والمواخير،
فتشمل الخسارة سائر الأصناف والطلقات، وتوالت على البعاعات، وتُحجف
برؤوس الأموال، ولا يحدون عنها وليحة إلا لقفود عن الأسواق لذهاب
رؤوس الأموال في حبره بالأرباح ويتدفق الموردين من الأفاق لشراء
المصانع وبيعها من أجل ذلك فتكسد الأسواق ويظل معشر الرعايا، لأن
عامته من البيع والشراء، وقد كادت لأسواق عطلًا منها بطن معاشهم
وتنقص حيلة السطان أو نفسه، لأن معظمها من واسط الدولة، وما بعده
بما هو من المكوس على أسباعت كما قدمناه، ويؤول ذلك إلى تلاشي الدولة
وفساد عمران مدينة. ويتصرف حلال على لتدريج ولا تُشعر به

* هذا ستهي هـ مفصل في []

67، 68 من سورة بقره 2

هذا فيما كان بمثابة هذه الذريعة والأسباب إلى أحد الأمور وما أخذها
محدثاً ولعدوان على الناس في أموالهم وحرمتهم ودمائهم وأشهرهم
وعرضهم فهو يقضي على الحد والفساد دفعه، وتنقص الدولة سريعاً ما
يشأ عنه من الهرج مضي إلى الانتقص ومن حل هذه مفسد حطر
الشرع ذلك كله، وشرع مكايسة في البيع والشراء، وحطر كل أموال الناس
بالطعن، سده لأموال المفسدة إلى تنقص العمران بنهرج هـ سلطان
للعاش.

وعلم أن ادعي لذلك كما هو حاجة الدولة والاستعداد إلى الإكثار من
الأموال ما يعرض لهم من اتعرف في لأحوال، فتكثر مفسدتهم ويعصم حرج
ولا يفي به الدحل على لقوانين لعناده فمسحون القتل ووجوه يوسعون
بها حاية ليهي لهم لدحل ماخرج ثم لا يراى شرف يزيد، وخرج بسبه
يكبر والحاده إلى أموال الناس تستد وصادق دولة مضمون إلى أن تمحي دثرتها
ويذهب رسمها ويعينها صانها

ولله مقدر لأموال، لا رب غيره

* يادبعه هذا مختصر في [1] فصل منه في مفسدات لأخرى حمى غوب في ذكر عورص
تعرض في الدول يحشى معها بهم نظر مفسدات مفسدة ح ٩، ص ١٠، وهم يشن
محموى مختصر في حجاب وفي مفسدات دولة مد و د في مفسدات لأخرى كضلال
مستغلان

[42] في الحجاب كيف يقع في الدول وأنه يعظم عند الهرم

اعلم أن لدول في أول أمرها تكون بعيدة عن مزارع الملك، كما قدمته، لأنها لا بد لها من العصبية التي بها يتم أمرها ويحصل استيلائها. ولداوة هي شعار العصبية.

فالدولة إن كان قيامها بالدين، فإنه بعيد عن مزارع الملك، وإن كان قيامها عز اللعب فقط، فالداوة التي بها يحصل لعب بعيدة أبعد عن مزارع الملك ومداها.

فإذا كانت الدولة في أمرها بدوية، كان صاحبها على حال لعصاة السادة والقرب من الناس وسهولة الإذن. فإذا رشح عزه وصار إلى الأفراد متحد، واحتاج إلى الأفراد بنفسه عن الناس لتحديث مع أوليائه في خواص شؤونه إذ يكثر حينئذ من عداوته. فيطلب الأفراد من العامة ما استطاع، ويتخذ الإذن منه على من لا بد منه من أوليائه وأهل دولته، فيكون حجتاً به عن الناس، ويفيمه بأنه هذه الوظيفة

* في الحجاب كيف يقع في لدول [ب] به برده مص في []

** وأبدوة هي لعصبية [ب]

*** ه سهي حصة في [ب]

ثم إذا استمحل الملك وحاءت مدهمة ومدارعه، استحالت خُلُق صاحب الدولة إلى حق الملك وهي حق عربية مخصوصة، يحتج مباشرة إلى مدارائهم ومعمنتها بما يجب لها ورمي جهل تلك الحق منهم بعض من يشرهم فوق فيم لا يرضيهم، فسخطوه وصاروا إلى حاة لانتقام منه فيمرد معرفة هذه الآداب معهم الخواص من أوليائهم، وحقوا غير أولئك احصة عن لقائهم في كل وقت حفظاً على أنفسهم من معية من يستحقهم وعلى الناس من التعرض لعقابهم فصرهم حجاب آخر أحص من الحجاب الأول حصي إيتهم منه حوصهم من الأولياء، ويحجب دونه من سواهم والحجاب الثاني حصي إلى مجلس الأولياء، ويحجب دونه من سواهم من اعمدة

والحجاب الأول يكون في أوّل الدولة، كما ذكرنا، كما حدث أيام معاوية وعند الملك وحدها بني أمية، وكان القائه على ذلك الحجاب يسمى عندهم الخاجب، حرّى على مذهب لاشتقاق الصحيح.

ثم لما حاءت دولة بني عباس وحدث لدولة من الترف والعزم ما هو معروف، وكملت حق الملك على ما يجب فهو فدع ذلك إلى الحجاب الثاني، صار اسم الحجاب أحص منه، وصر باب حياء دار لعاشية، دار لخاصة ودر لعامة، كما هو مسطور في أخبارهم

ثم حدث في الدول حجاب ثالث أحص من الأولين، وهو عند محاولة خجر على صاحب الدولة وذلك أن أهل الدولة وحوص الملك يدصو لأداء من الأعقاب وحاولوا لاسترداد عبيهم، فأول ما يبدأ به ذلك المستند أن يحجب عنه نظانه ثيه وحوص أوليائه، يوهمه أن في مديرتهم إليه حرق حجاب لهية وفساد قلوب الأدب ليقطع بذلك عنه لقاء العير ويعوّده ملاسة تخلافه هو حتى لا يتدبره سواه إلى أن يستحكم لاستيلاء عبيه، فيكون هذ حجاب من دواعيه وهذا حجاب لا يقع في العائب إلا أوحاد الدول، كما قدمناه في المحر، ويكون ذليلاً على هرم الدولة وتدقوتها وهو مما يحشاء

أهل الدولة على أنفسهم، لأب لفتنمين بالدولة يحاويون على ذلك طبعهم
 عند هزم الدولة وذهب الاستعداد من أعقاب موكها لما رُكِبَ في القوس
 من محنة الاستعداد بالملك، وخصوصاً مع الترشح لذلك وحصون دواعيه
 ومبادئه.

ولله غالب على أمره⁶⁸ .

* يطبعهم ما ركب [ب]

68. به 21، سورة يوسف

[43] في انقسام الدولة الواحدة بدولتين

اعلم أن أول ما يقع من آثار الهرم في الدولة انقسامها. وذلك أن الملك عندما يستفحل ويبلغ أحوال الترف والنعيم إلى غايتها ويستبد صاحب الدولة بالمجد وينفرد به، يأنف حيثئذ عن المشاركة ويصير إلى قطع أسبابها ما استطاع بإهلاك من استراب به من ذوي قرابته المرشحين لمنصبه. فربما، رتاب المساهمون له في ذلك بأنفسهم ونزعوا إلى القاصية، واجتمع إليهم من يلحق بهم في مثل حالهم من الاستراة والاعتزاز ويكون نضاق الدولة قد أخذ في التضيق ورجع عن القاصية، فيستبد ذلك النازع من القرابة فيها. ولا يزال أمره يعظم بتراجع نطاق الدولة حتى يقاسم الدولة أو يكاد.

وانظر ذلك في الدولة الإسلامية العربية حين كان أمرها عزيزاً مجتمعاً ونظفها ممتداً في الاتساع وعصبية بني عبد مناف واحدة غالبة على سائر مضر، فلم يسخر عرق من الخلاف سائر أيامهم إلا ما كان من نزعة خورج المستميتين في شأن مدعتهم، لم يكن ذلك لنزعة ملك ولا رئاسة، ولم يتم أمرهم لمراحمته العصبية القوية. ثم لما خرج الأمر من بني أمة واستقل هو لعبدس بالأمر وكانت الدولة العربية قد بلغت الغابة من الغيب والترف، ودنت بالتقلص عن القاصية، نزع عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس، قصية

دولة للإسلام، فاستحدث بها منكاً واقتطعها عن دعوتهم وصير لدولة دولتين ثم نزح دريس إلى المغرب وخرج به ودم بأمره، ومثرايته من بعده لبربرة من أوررة ومعينة وزناة، واستولى على ناحية المعريين. ثم ارددت الدولة تقصداً فاضطرت الأعلامة على الامتناع عنهم ثم حرج شيعته، وقام بأمهم كدومة وصنهاجة، واستولوا على إفريقية والمغرب، ثم مصر ولشام والحجاز، وغلبوا على الأدارسة، وقسموا الدولة دولتين أخريين. وصارت الدولة لعربية ثلاث دول: دولة بني عباس بمركز العرب وأصلهم ومدة الإسلام، ودولة بني أمية لمجديدين بالأندلس منكمهم القديم وخلافتههم بالمشرق، ودولة العبيديين بإفريقية ومصر والشام والحجاز. ولم تزل هذه لدول إلى أن كان انقرضها متقرباً وجميعاً.

وكذلك انقسمت دولة بني عباس بدول أخرى. فكان بالجزيرة والموصل بنو حمدان وبنو عقيل بعدهم، وبمصر وأنشاء بنو طولون وبنو طنج بعدهم، وكان بالقاصية بنو سامن في ما وراء لنهر وخرسان، ولعنوية في الديلم وطبرستان، وأل ذلك إلى ستيلاء الديلم على فارس والعراقين وعلى بغداد والخلفاء، ثم جاء السلجوقية، فملكوا جميع ذلك. ثم انقسمت دولتهم أيضاً بعد الاستفحال، كما هو معروف في أخبارهم.

وكذلك اعتبره في دولة صنهاجة بالمغرب وإفريقية لما بلغت إلى عايتها يوم باديس بن المنصور وخرج عليه عمه حماد واقتطع ممالك المغرب لنفسه ما بين جبل أوراس إلى تمنسان ومثوية، واختط القنعة بجبل كيانة حبال المسيلة ونزلها، واستولى على مركزهم أشير بجبل تيطري، واستحدث منكاً آخر قسيساً ملك آل باديس، وبقي آل باديس بالقيروان وما إليها. ولم يزل ذلك إلى انقرض أمرهم جميعاً.

١- كدومة حسب فرده ذو المعروف بال... لأن كدومة كدانة وصحة في جميع مخطوطات وحيث كدانة
هذه يدعى به هذه المسمى عند... مثلاً كدومة في H. 141 et des barbares, Paris, وهو فقه حسن من

وكذلك دولة الموحيدين لما تقلص ظلها أثر بإفريقية نحو بني حمص، فاستقروا بها، واستحدثوا ملكاً لأعقابهم بنواحيها. ثم لما استمحل أمرهم و استولى على الغاية، خرج بالملك الغربية من أعقابهم الأمير أبو ركرياء يحيى بن السلطان أبي إسحاق إبراهيم. ربيع خلفائهم، واستحدث ملكاً سحاية وقسنطينة وما إليها فوّزته بنيه، وقسموا به الدولة قسمين، ثم ستولوا عنى كرسي الحضرة بتونس. ثم انقسم الملك ما بين أعقابهم، ثم عاد الاستيلاء فيهم.

وقد ينتهي الانقسام إلى أكثر من دولتين وثلاثة في غير أعياص الملك من قومه، كما وقع في ملك الطوائف بالأندلس، وملوك العجم بالشرق، وفي ملك صنهاجة بإفريقية. فقد كان لآخر دولتهم في كل حصن من حصون إفريقية ثائر مستقل بأمره، كما نذكره. وكذا حال الجريد والزيب من إفريقية قبيل هذا العهد، كما نذكره أيضاً.

وهكذا شأن كل دولة لا بد وأن تعرض فيها عوارض الهرم بالترف والبذعة وتقلص ظل الغنم، فيقتسم أعياصها أو من يغلب من رجال دولتها الأمر، وتتعدد فيها الدول.

والله وارث الأرض ومن عليها.

[44] في أن الهرم إذا نزل بالدولة لا يرتفع*

قد قدما ذكر العوارض المؤذنة بالهرم وأسبابه واحداً واحداً، وبما أنها تحدث بدولة بالطبع، وأنها كلها أمور طبيعية لها. وإذا كان الهرم طبيعياً في دولة، كان حدوثه بمثابة حدوث الأمور الطبيعية كما يحدث الهرم في المزاج الحيوي والهرم من الأمراض المزمنة التي لا يمكن دواؤها ولا ارتفاعها، لأنه طبيعي، والأمور الطبيعية لا تتبدل.

وقد ينته كثير من أهل الدول ممن له يقظة في السياسة، فيرى ما نزل بدولهم من عوارض الهرم وأسبابه ويحسبه ممكن الارتفاع، فيأخذ نفسه بتلافي الدولة وإصلاح مزاجها عن ذلك الهرم، ويظن أنه حققها لتقصير من قبله من أهل الدولة أو عقلتهم. وليس كذلك. فإنها أمور طبيعية للدولة، ونعوذ هي المانعة له من تلافيها. والعوائد تنزل منزلة طبيعة أخرى فإن من أدرك مثلاً أباه وكبراء أهل الدولة يلبسون الحرير والديباج، ويتحلون بالذهب في السلاح والمركب، ويحتجبون عن الناس في المجالس والصلوات، فلا يمكنه مخالفة سننه في ذلك إلى الخشونة في اللباس والزري

* في أن الهرم إذا نزل بالدولة يمس ارتفاعه [1]

** نزل بدولته [1]

*** ويظن أنه إنما حققها لتقصير من قبله أو عقلته هو، وليس كذلك [1]

والاحتلام بالفس، إء العوائد حيثئذ تمنعه وتفتح عليه مرتكه. ولو فعنه لرُمي بالجنون والوسواس في الخروج عن العوائد دفعة، وخشي عليه عائدة ذلك وعقبته في سلطانه. وانظر شأن الأنبياء في إنكار العوائد ومخالفتها، لولا لتأييد الإلهي والنصر السماوي.

وربما تكون العصبية قد ذهبت، فتكون الأبهة تعوض عن موقعها من النفوس، فإذا أزيلت تلك الأبهة مع ضعف العصبية تجاسرت الرعايا على الدولة بدوام، وهام الأبهة، فتتدرع الدولة بتلك الأبهة ما أمكنها حتى ينقضي الأمر.

وربما تحدث عند آخر الدولة قوة توهم أن الهرم قد ارتفع عنها، ويومض ذلها بمباصة، خمود كما يعع في الذبال المشتعل، فإنه عند مفاربه انطفائه يومض بمباصة توهم أنها اشتعال، وهي انطفاء. فاعتبر ذلك، ولا تعمس سر له وحكمته في اطراد وجوده على ما قدر فيه. فلكل أجل كتاب¹¹.

11 (161) ية 34 من سيره لرعد (13)

12 هـ سبهي حمسه في [ب]

[45] في كيفية طرق الخلل للدول*

اعلم أن متى الملك على أسامين لا بد منهما. فالأول الشوكة والعصية، وهو المعسر عنه بالجند. والثاني المال الذي هو قوام أولئك الخد وإقامة مدحت إليه الملك من الأحواز. والخلل إذا طرق الدولة طرفها من هذين الأساسين. فلنذكر أولاً طرق الخلل في الشوكة والعصية، ثم نرجع إلى طرقه في المال والجبابة

واعلم أن تهديد الدولة وتأسيسها كما قلناه إنما يكون في العصية. وأنه لا بد من عصية كبرى جامعة للعصائب مستتبعة لها، وهي عصية صاحب الدولة الخاصة به من عشيرة وقبيلة. فإذا جاءت للدولة طبيعة الملك من الترف وجذع أنوف أهل العصية، كان أول ما يجزع أنوف عشيره وذوي قربه لمقسمين له في اسم الملك. فيشتد في حدع أنوفهم بأبلغ من سواهم، ويأخذهم الترف أيضاً أكثر من سواهم لمكانهم من الملك والعز والغنى. فيحيط بهم هادمان هما الترف والقهر، ثم يصير القهر آخر إلى اقتل، لما

* منه مد فصل في (ب)

** لغره نبي تندى من هانم نردى [٢٠].

* بالعصية [١]

يحضر من مرض قلوبهم عند رسوخ الملك لصاحب الأمر. فتقرب غيرته منهم إلى خوف على ملكه، فيأخذهم بالقتل والإهانة وسلب النعمة والترفع الذي تعودوا الكثير منه، فيهلكون ويقلون. وتفسد عصبية صاحب الدولة منهم. وهي العصبية الكبرى التي كان يجمع بها العصائب ويستتبعها. فتتحل عروتها وتضعف شكيמתها، ويستبدل منها بالبطانة من موالي النعمة وصنوع الإحسان ويتخذ منهم عصبية، إلا أنها ليست مثل تلك في شدة شكيمة لفقدان لرحم والقراءة منها. وقد كنا قدما أن شأن العصبية وقوتها إنما هي بالقراءة والرحم لما جعل الله في ذلك.

فينفرد صاحب الدولة عن العشير والأنصار، أهل النعمة الطبيعية، ويحس ذلك أهل العصائب الأخرى، فيتجاسرون عليه وعلى بطانته تجاسر طمعاً فيهلكهم صاحب الدولة ويتتبعهم بالقتل واحداً بعد واحد. ويقلد الآخر من أهل الدولة في ذلك الأول، مع ما يكون قد نزل بهم من مهلكة الترف الذي قدما فيستولي عليهم الهلاك بالترف والقتل. حتى يخرجوا عن صفة تلك العصبية وينسوا نعتها وسورتها. ويصيروا أجراء على الحماية. ويقرب لذلك، فتقل الحماية التي تنزل بالأطراف والثغور. فتتحاسر الرعايا على نقص الدعوة في الأطراف. وتبادر الخوارج على الدولة من الأعياص وعبرهم، نرى تلك الأطراف لما يرجون حينئذ من حصول غرضهم بمطاعة أهل المقاصب لهم ومنهم من وصول الحماية إليهم. ولا يزال ذلك يتدرج ويضاق لدولة يتضايق حتى تصير الخوارج في أقرب الأماكن إلى مركز الدولة. وربما انقسمت الدولة عند ذلك بدولتين أو ثلاث على قدر قوتها في الأصل، كما فناه، ويقوم بأمرها غير أهل عصبيتها لكن إدعائاً لأهل عصبيتها ولغلبهم المعهود. واعتبر هذا في دولة العرب في الإسلام. انتهت أولاً إلى الأندلس و الهند والصين، وكان أمر بني أمية نافذاً في جميع العرب بعصبية عبد مناف، حتى لقد أمر سليمان بن عبد الملك من دمشق بقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير قُرَظَة فقتل، ولم يرَ دأمره. ثم تلاشت عصبية بني أمية بما أصابهم من الترف

فانقرضوا، وجاء بنو العباس فعصو من أمة بني هاشم، وقتلوا لظاليم وشردوهم. فاحت عصرية عبد مداف وتلاشت، ونحاسر العرب عنهم. فاستند عليهم أهل الفصية مثل بني لأعب بفرقية، وأهل الأندلس، وعبرهم، وانقسمت الدولة. ثم حرح بنو إدريس بالمعرب، وقام الربر بأمرهم. دعنا لعصية التي لهم وأما أن تصنعهم مقتلة أو حامية لدولة.

فإذا خرج لدعاة آخر، فيتغلبون على الأطراف والقاصية، ويحصل لهم هنالك دعوة وملك تنقسم به لدولة. وربما يزيد ذلك متى زادت الدولة تقلصا إلى أن تنتهي إلى المركز. وتضعف البطانة بعد ذلك بما أخذ منها الترف، فتهدك وتضمحل، وتضعف الدولة لمنقصة كلها.

وربما طال أمدها بعد ذلك، فتستغني عن لعصية بما حصل لها من الصبغة في نفوس أهل يالتها، وهي صبغة الانقياد والتسليم منذ السنين الطويلة التي لا يعقل أحد من لأجيل بيده ولا أوليتها، فلا يعقلون إلا التسليم لصاحب الدولة. فتستغني بذلك عن قوة العصائب، ويكفي صاحبها في تمهيد أمرها الأجر. على الحماية من جندي ومرترق. ويعضد ذلك ما وقر في النفوس عامة من عقيدة التسليم، فلا يكاد أحد أن يتصور عصيانا أو خروجا إلا والجمهور منكرون عليه مخالفون له، فلا يقدر على التصدي لذلك ولو جهد جهده. وربما كنت الدولة في هذا الحال أسلم من الخوارج والمنازعة لاستحكام صبغة التسليم والانقياد لهم، فلا تكاد النفوس تحدث سرها بمخالفة، ولا يختج في ضميرها انحراف عن لطاعة، فتكون أسلم من الهرج وانتقاض الذي يحدث بالعصائب والعشائر. ثم لا يزال أمر الدولة كذلك وهي تلاشى هي ذاتها، شأن الحرارة الغريزية في بدن العادم للغذاء، إلى أن تنتهي إلى وفاتها المفطور. فكل أحل كتاب، ولكل دولة أمد. والله مقدر الليل والنهار

* من لتسيم [1]

٦٠، به 2١ من سورة بر من ٢)

وإذ اصطبغت عيُهم تحورتهم الدولة بني أهل، لشروة من الرعايا سواهم،
ويكون الوهن في هذا المصور قد لحق الشوكة وضعت عن الاستعالة ونقهر،
فتصرف سياسة صاحب لدولة حينئذ إلى إدارة الأمور ببذل المال، ويراها
أنفع من السيف، ثقة غناؤه، فتعظم حاجته إلى الأموال زيادة على المقتدات
ورزق الجند، ولا تغني فيما يريد ويعصم، لهمم بدولة، ويتجاسر عليها أهل
النوح والدون، وتنحل عروها في كل طور من هذه، إلى أن تعضي إلى
لهلاك وتعرض لاستيلاء لصلاب، فإن قصدها طالب انتزعها من يدي
القائمين بها، وإلا بقيت وهي تتلاشى إلى أن تضمحل كالذب في السراج إذ
فنى زيتة وطفى، والده تعالى مالت الأمور ومدير الأكوان، لا إله إلا هو.

وكرر واحد من هؤلاء المُعَبِّرِينَ للقوانين قبلهم كأنهم منشئون دولة أخرى ومحددون ملكاً، حتى تنقرض الدولة وتتطاوّل الأمم حولها إلى السبع عليها وإنشاء دولة أخرى لهم، فيقع من ذلك ما قدر الله وقوعه.

وعتبر ذلك في الدولة الإسلامية، كيف اتسع نطاقها بالفتوحات والعبث على الأمم، ثم تزايد الخامة وتكاثر عددهم بما تحوّلوه من النعم والأوراق، إلى أن انقرض أمر بني أمية، وغلب بنو العباس ثم تزايد لترف، ونشأت الحضارة وطرق الحيل. فضاقت النطاق من الأندلس والمغرب بحدوث لدولة الأموية لمروانية والعلوية، واقتطعوا ذينك الثغرين عن نطاقها، إلى أن وقع الخلاف بين بني الرشيد وظهر دعاة العلوية في كل حاس، وتمهّدت لهم دول. ثم قُتِلَ المتوكل، واستبد الأمراء على الخلفاء وحجّروهم، واستقل لولاة بالعمالات في الأطراف، وانقطع الخراج منها وتزايد الترف. وجاء المعتضد، فقَيَّرَ قوانين الدولة إلى قانون آخر من السياسة أقطع فيه ولاة الأطراف ما غلب عليه مثل بني سامان وراء النهر، وبني طاهر العراق وخراسان، وبني الصفار السند وفارس، وبني ضولون مصر، وبني الأغلب إفريقية، إلى أن افترق أمر العرب وغلب العجم، واستبد بنو بُويه والديلم بدولة الإسلام وحجّروا خلافة. وبقي بنو سامان في استبدادهم وراء النهر، وتطاول الفاطميون من المغرب إلى مصر والشام فملكوه. ثم قامت الدولة السلجوقية من الترك، فاستولوا على ممالك الإسلام، وألقوا الخلفاء في حجرهم، إلى أن تلاشت دولهم. واستبد الخلفاء منذ عهد الناصر في نطاق أضيق من هلة نقر، وهو عراق العرب إلى إصهان وفارس والبحرين. وقامت الدولة كذلك بعض الشيء، إلى أن انقرض أمر الخلفاء على يد هولاكو بن طولي من دوشي حد، ملك الططر والمُعل حين غلبوا السلجوقيه وملكوا ما كان في أيديهم من ممالك الإسلام.

وهكذا يصديق نصدق كن دولة على سسة صادقها لأون. ولا يزال طور بعد
طور، إلى أن تنقصر الدولة و عتبر ذلك في كل دولة، عصمت أو صغرت،
فهكذا سنة الله في الدول، إلى أن يأتي ما قدر الله من الفناء على خلقه. وكل
شيء هالك إلا وجه له ¹⁷.

¹⁷ ١٢٨ من سورة القصص ١٢٨

[47] في حدوث الدول وتجدها كيف يقع

«علم أن نشأة الدول وبنائها إذا أخذت الدولة المستقرة في الهرم والانتقاض تكون على نوعين.

إما بأن يستبد ولاة الأعمال في الدولة بالقاصية عندما يتقلص ظلها عنهم، فيكون لكل واحد منهم دولة يستجدها لقومه وملك يستقر في نصبه ويزدهر عنه بناءه ومواليه، ويستفحل لهم الملك بالتدريج. وربما يزدحمون على ذلك الملك ويتقارعون عليه، ويتنازعون في الاستئثار به، ويغلب منهم من يكون له فضل قوة على صاحبه ويتزع ما في يده. كما وقع في دولة بني العباس، حين أخذت دولتهم في الهرم وتقلص ظلها عن القاصية، عاستبد بنو سامان بما وراء النهر، وسو حمدان بالوصل والشام، ونو طولون بمصر. وكما وقع في دولة الأموية بالأندلس، واقترب ملكها في الطوائف الذين كانوا ولائها في الأعراس، وانقسمت دولاً وملوكاً أورثوها من بعدهم من قراستهم أو مواليهم. وهذا استوع لا يكون بينهم وبين الدولة المستقرة حرب. لأنهم مستعرون في ريبستهم ولا يطمعون في الاستيلاء على الدولة المستقرة. وبما الدولة أذكرها الهرم، وتقلص ظلها عن القاصية، وعجزت عن الوصول إليها

والسوع لشابي أن يخرج على الدولة حارح من يحاورها من الأمم
والمثلي، إما بدعوة يحمل الناس عليها كما تُشرن إليه، أو بأن يكون صاحب
شوكة وعصية، كيرافي قومه، قد ستمحل أمره فهم فسئمو بهم إلى الملك.
وقد حدثوا أنه أنفسهم به حصل لهم من لأعزاز على الدولة المستقرة وما رل
بها من الهرم. فيتعين له ولقومه الاستيلاء عليها، ويمارسونها بالمعاقبة إلى أن
يظفروا بها ويرثون أمرها، كما وقع للسلجوقية مع بني سُكُكِين، وبني
ميرين مع الموحدين. والله غلب على أمره¹¹

¹¹ هذا سبهي خمسة في راج

¹² 11 هـ . من سورة يوسف (12)

[48] في أن الدولة المستجدة إنما تستولي على الدولة المستقرة بالمطاول لا بالمناجزة

قد ذكرنا أن الدول الحادثة المتجددة نوعان : نوع من ولاية الأطراف إذ تقتصر ظل الدولة عنهم وانحسر تيارها. وهؤلاء لا تقع منهم مطالبة لدولة في الأكثر، كما قدمناه، لأن قصاراهم القنوع بما في أيديهم، وهو نهاية قوتهم. والنوع الثاني نوع الدعاة والخوارج على الدولة، وهؤلاء لا بد لهم من المطالبة، لأن قوتهم وافية بها. فإن ذلك إنما يكون في نصاب يكون نه من لعصبية والاعتزاز ما هو كفاء ذلك وواف به. فيقع بينهم وبين الدولة لمستقرة حروب سجال تتكرر وتتصل، إلى أن يقع لهم الاستيلاء والظفر بالمطولة. ولا يحصل لهم في الغالب ظفر بالمناجزة.

والسبب في ذلك أن الظفر في الحروب إنما يقع غالباً، كما قدمناه، بأمور نفسانية وهمية، وإن كان العدد والسلاح وصدق القتال كثيراً به لكنه قصر مع تلك الأمور الوهمية، كما مر. ولذلك كان الخداع من أنفع ما يستعمل في الحرب، وأكثر ما يقع الظفر به. وفي الحديث : "الحرب خدعة"

* ثم يرد هذا الفصل في [أ] و [ب]

* يقع، كما [ج]

[73] انظر صمحه 64 أعلاه

و ندوة المستقرة قد صيرت العوائد المأثومة طعتها ضرورية واحدة. كما تقدم في غير موضع فتكثر لثالث العوائد لصاحب ندوة المستقرة، ويكسر من هيمم أتباعه وأهل شوكته وير كان الأقربون من رضائه على بصيرة في طعته وموررته، لأن الآخرين أكثر. وقد دحهم الفشل والكسل يثث العقد في التسييم لندوة المستقرة فيحصل بعض اشتورمهم، ولايكاد صاحب الدولة المستقرة لذلك يقوم صاحب لدولة المستقرة، فيرجع إلى الصبر والمطاوله، حتى يتضح هرم الدولة المستقرة. فتضمحل عقائد التسييم لها من قومه، وتنبعث منهم لهمم لصدق المطالبة معه، فيقع الطفر والاستيلاء.

وأيضاً، فالدولة مستقرة كثيرة الترف بما استحكم لهم من ملك وتسوغوه من النعم والذات، واختصوا به دون غيرهم من أموال الجببة، فيكثر عندهم ارتباط خيول واستجدة الأسلحة، وتعظم فيهم الآبهة الملكية، ويفيض العطاء بينهم من ملوكهم ختيراً واضطراً، فيهربون بذلك كنه عدوهم. وأهل الدولة المستقرة بمعزل عن ذلك ما هم فيه من لبداءة وأحول الفقر والخصاصة التي يفقد معها الاستعداد من ذلك. فتسبق إلى قلوبهم أوهام العرب، لما يبنغهم عن أحول الدولة مستقرة وكثرة استعدادها، ويحجمون عن قتالهم من آخر ذلك. فيضطرميرهم إلى لمطاوله، حتى تأخذ الدولة المستقرة مأخذها من الهرم. ويستحكم الخل فيها في العصبية والجبابة. فينتهز حينئذ صاحب الدولة مستقرة فرصته في الاستيلاء عليها بعد حين من المطالبة. سنة الله في عباده

ويُضفاً، فأهل الدولة المستقرة كلهم مسايون لأهل الدولة المستقرة بأسبابهم وعوائدهم وفي سائر مباحيهم. ثم منافورون لهم ومسديون في وقع من هذه المطاله وضلعهم في الاستيلاء عليهم فتتمكن المساعدة بين أهل الدولتين سراً وجهراً. ولا يصل إلى أهل الدولة المستقرة خبر عن أهل الدولة المستقرة يصيبون به عرة فيهم باصاً ولا ضاهراً لا تقطع المواصلة والمداخلة بين

لدولتين، فيقيمون على المطالبة وهم معها في إحجام ونكول عن اندحرة حتى إذا تأذن الله بزوال الدولة المستقرة ونفاذ عمرها ووفور الخلل في جمع جهتها، وتصح لأهل الدولة المستجدة مع الأيام ما كان يحفى عنهم من هرمها وتلاشيها، وقد عظمت قوتهم بما اقتطعوه من أعمالها، وقصوه من أطر فيها، فتبعث همهم يداً واحدة للمناجزة، ويذهب ما كان يفت في عزائمهم من التوقعات، وتنتهي المطالبة إلى حدها ويقع الاستيلاء خيراً بالمناجزة.

واعتبر ذلك في دولة بني العباس، عند ظهورها وبدائها، كيف أقام الشيعة بخراسان بعد انعقاد الدعوة واجتماعهم على المطالبة عشر سنين وتزيد، وحينئذ تم لهم الظفر، واستولوا على الدولة الأموية.

وكذا العلوية بطبرستان، عند ظهور دعوتهم في الديلم، كيف كانت مطولتهم حتى استولوا على تلك الناحية، ثم ما انقضى أمر العلوية وسما الديلم إلى ملك فارس والعراقيين، فمكثوا سنين كثيرة يطولون، حتى اقتطعوا إصبهان وفارس، ثم استولوا على الخليفة ببغداد.

وكذا العبيديون، أقام داعيتهم بالمغرب أبو عبد الله الشيعي بين كدمة من قبائل البربر عشر سنين وتزيد يطاول بني الأغلب بإفريقية، حتى ظفر بهم، واستولوا على المغرب كله، ثم سموا إلى ملك مصر، فمكثوا ثلاثين سنة أو نحوها في طلبها يجهزون إليها المساكر والأساطيل في كل وقت، ويجيء المدد لمداغتهم براً وبحراً من بغداد والشام. ومنكوا الإسكندرية ولقيوم والصعيد، وتخطت دعوتهم من هنالك إلى الحجاز، وأقيمت بالحرمين. ثم نازل قائدهم جوهر الكاتب بعساكره مدينة مصر واستولى عليها، واقتنع دولة بني صُح من أصولها، واختط القاهرة. فجاء خليفته المعز لدين الله فزلهما لستين سنة أو نحوها منذ استيلائهم على الإسكندرية.

وكذا السلاجقية، ملوك الترك، لما استولوا على بني سامان وأحاروا من وراء النهر، مكثوا نحواً من ثلاثين سنة يطاولون ابن سُبُكتكين بخراسان حتى .

اسموني، عني دوسته، ثم رجعت إلى بعد فاستولوا عليها وعلى احببة بها بعد أيام من الدهر.

وكذا انصهر من بعدهم خرجوا من المفزة أعوام سبعة عشر وستمئة، فم يته لهم الاستيلاء إلا بعد أربعين سنة.

وكذا أهل المعرب، خرج به المربطون من لمتونة على منوكة من مفراوة، فطولونهم سنين حتى استولوا عليهم، ثم خرج الموحدون بدعوتهم على متونة، فمكثوا نحوًا من ثلاثين سنة يحاربونهم حتى استولوا على كرسيمهم بمرکش. وكذا بنو مريم من زناتة خرجوا على الموحدين، فمكثوا يصاولونهم نحوًا من ثلاثين سنة، واستولوا على فاس، وقتطعوها وأعمالها من منكمهم، ثم قدموا في محاربتهم ثلاثين أخرى حتى استولوا على كرسيمهم بمراكش، حسب ما ذلك كنه مذكور في تاريخ هذه الدول.

فهكذا حال لدول المستجدة مع المستقرة في المطالبة والمطائنة، سنة الله في عباده، ولن نجد لسنة الله تبديلاً⁴.

ولا تعترض ذلك بما وقع في لفتوحات الإسلامية، وكيف كان الاستيلاء على فارس والروم ثلاث أو أربع من وفاة نبي صلى الله عليه وسلم من غير مضولة. وعدم أن ذلك إنما كان معجزة من معجزات نبينا صلوات الله عليه وسلم، سيرها استماتة المسمين في جهاد عدوهم ستبصارًا بالإيمان من غير مضولة، وما أوقع أنه في قنوب عدوهم كفاء ذلك من الرعب والتخاذل. فكان ذلك كنه خارقًا للعادة للعلوم في مطائنة لدول المستجدة للمستقرة. وإذا كان ذلك خارقًا فهو من معجزات نبينا صلوات الله عليه وسلم المتعارف ظهورها في اسلة الإسلامية وللعجزات لا يُقاس عندها هي الأمور العادية ولا يُعترض بها.

⁴ ١٠٤، ٦٦٦ من سورة الأحراب (٢٢)

[49] في وفور العمران أواخر الدول وما يقع فيها
من كثرة الموتان والمجاعات

إنه قد تقرّر لك فيما سلف أن الدول في أول أمرها لا بد من الرّفق في
ملكها والاعتدال في يائها، إما من الدين إن كانت الدعوة دينية، أو من
المكارمة والمحاشمة التي تقتضيها البداوة الطبيعية للدول.

وإذا كانت الملكة رفيقة محسنة، انبسطت آمال الرعايا وانتشطوا للعمران
وأسابه، فتوفّر وكثُر التناسل. وإذا كان ذلك كله بالتدريج، فلم يظهر أثره بعد
جيل أو جيلين في الأقل. وفي انقضاء الجيلين تُشرف الدولة على نهاية أمرها
الطبيعي، فيكون العمران في عاية الوفور والسوء.

ولانقول إنّه قد مرّ لك أن أواخر الدول يكون فيها الإجحاف بالرعايا
وسوء الملكة، فذلك صحيح ولا يعارض ما قلناه، لأن الإجحاف وإن حدث
حينئذ وقت الحبايات، فلما يظهر أثره في تناقص العمران بعد حين من أجل
لتدريج في الأمور الطبيعية.

ثم إن المجاعات والموتان بكثّر عند ذلك في أواخر الدول. والسبب فيه،
أما المجاعات فللقبض الناس أيديهم عن الملح في الأكثر بسب ما يقع في
أواخر الدول من العدوان في الأموال والحبايات والبياعات المكوس أو من

نقص لواقعة في استقص لرعي وكثرة الجورح لهم اندوله. فيقول احتكر
الزروع غالباً. وليس صلاح لزروع ونمرته بمستمر الوجود ولا على وتيرة
واحدة، فصبيحة لعالم في كثرة الأمصر وقتتها مختصة، والمطر يقوى
ويضعف. ويقل ويكثر الزروع والشمار وانضرع على نسته. إلا أن لناس
وثقون في أقو تههم بالاحتكار. فإذا فقد الاحتكار، عظم توقع لناس
للمجاعات، فغلا الزروع، وعجز عنه أولو خصاصة فهكوا. أو كان بعض
السنوات والاحتكار مفقود، فشم لناس جوع.

وأما كثرة الموت، فهي أسباب من كثرة المجاعات، كما ذكرناه، أو كثرة
لقتن لاختلال الدون فيكثر لهرج ولقتن، أو وقوع البواء وسببه في الغالب
فسد الهواء بكثرة العمران لكثرة ما يخاططه من لعفن والرطوبة الفاسدة.
وإذا فسد لهواء، وهو غذاء لروح حيواني وملابسه دتاً، فيسري لفسد
بني مزاجه. فإن كان الفساد قوياً وقع مرض في البرية. وهذه هي لطواعين،
وأمرضها مخصوصة بالبرية. وإن كان الفساد دون القوي والكثير، فيكثر
العفن به ويتضاعف، فتكثر الحميت في الأمزجة، وتمرض الأبدان وتهلك.
وسبب كثرة العفن والرطوبة الفاسدة في هذا كله كثرة العمران ووفوره
آخر لدولة لما كان في أوائدها من حسن المسكة ورفقها وعظم إحمية وقلة
المفرم، وهو ظاهر. ولهذا تبين في موضعه في الحكمة أن تخش إخلاء والنقفر
بين لعمران ضروري ليكون نموّج الهواء يذهب بما يحصل في الهواء من
الفساد والعفن بمخالطة الحيوانات، ويأتي الهواء الصحيح. ولهذا أيضاً فإن
الموتان يكون في المدن الموفورة العمران أكثر من غيرها بكثير، كمصر
بالمشرق، وفاس بالمغرب. والله يقدر ما يشاء.

* وحديث أول نص [٢]، [ب]

** ورسمه وقمة []، [ب]

[50] في أن العمران البشري لا بد له من

سياسة ينتظم بها أمره^١

نه قد تقدم لنا في غير موضع أن الاجتماع للمشر ضروري، وهو معنى العمران الذي نتكلم فيه. وأنه لا بد لهم في الاجتماع من وازع وحاكم يرجعون إليه، وحكمه فيهم تارة يكون مستندًا إلى شرع منزل من عند الله يوجب انقيادهم إليه إيمانهم بآلثواب والعقاب عليه الذي جاء به مبثغته، وتارة إلى سياسة عفية يوجب انقيادهم إليها ما يتوقعونه من ثواب ذلك الحاكم، بعد معرفته بمصالحهم.

فالأولى يحصل نفعها في الدنيا والآخرة لعلم الشارع بالمصالح في لعاقبة ولمراعاته نجا العباد في الآخرة. والثانية إنما يحصل نفعها في الدنيا فقط.

وما نسمعه من "السياسة المدنية"^{١٧٥}، فليس من هذا الباب، وإنما معناه عند الحكماء ما يجب أن يكون عليه كل واحد واحد من أهل ذلك المجتمع في نفسه وخُذفه حتى يستغفوا عن الحكم رأسًا. ويسمون المجتمع الذي يحصل

^١ نه بردهد تفصيل في [١]، [٢].

(١٧٥) عدده "سياسة المدنية"، عنوان كتاب لغارابي في "سياسة انظر الفارسي، كتب لسياسة المدنية، كعقبي فوزي، النجار، بيروت، ١٩٦٤. ومحمد تقائي نظره شمله حذرة حول، ختم به سياسي مدسفة في الإسلام في

The Part of Aspects of Islamic Philosophy. Essays in Honor of Muhsin S. Mahdi, Charles E. Butterworth ed., Harvard University Press, Cambridge, 1992

من أمورك، وتدعوه بالناس إلى محبتك والاستقامة في الأمور كلها، ولا يمنك حسن الظن بأصحابك والرافة برعيتك أن تستعمل لمسألة والبحث عن أمورك، والمباشرة لأمر الأولياء، والحياطة للرعية، والنظر فيما يقيمها ويصلحها. بل لتكون المباشرة لأمر الأولياء والحياطة للرعية في النظر في حوائجهم وحمل مؤنتهم أثر عندك مما سوى ذلك، فإنه أقوم للدين وأحيا لسنة.

وأخلص نيتك في جميع هذا. وتفرد بتقويم نفسك تفرد من يعلم أنه مسؤول عما صنع، ومجزئ بما أحسن، ومأخوذ بما أساء. فإن الله عز وجل جعل الدين عزًا وحرزًا، ورفع من اتبعه وعززه.

وسلك بمن نسوسه وترعاه نهج الدين وطريق الهدى. وأقم حدود الله تعالى في أصحاب الحرائم على قدر منازلهم وما استحقوه، ولا تعطل ذلك ولا تنهوا فيه. ولا تؤخر عقوبة أهل العقوبة، فإن في تفریطك في ذلك ما يفسد عليك حسن ظنك. واعزم على أمرك في ذلك بالسنة المعروفة. وجانب البدع والشبهات يسلم لك دينك وتقم لك مروءتك.

وإذا عاهدت عهدًا فأوف به. وإذا وعدت الخير فأنجزه. واقبل الحسنة ودفع بها. واغضض عن عيب كل ذي عيب من رعيتك واشدد لسنتك عن قول الكذب والزور. وأنقض أهل النعمة، فإن أول فساد أمورك في عديها وتجلها تقريب الكذب والخيانة على الكذب. لأن الكذب رأس الدائم، ولزور والنميمة خاتمتها. لأن النعمة لا يسلم صاحبها، وقائنها لا يستم له صاحب ولا يستقيم لطبعها أمر.

وأحب أهل الصلاح والصدق، وأعز الأشراف بالحق، وواص الضعفاء، واصل الرحيم، وابتغ بذلك وجه الله تعالى وإعزاز أمره، والتمس فيه ثوبه والدار الآخرة. واجتنب سوء الأهواء والجور وأصرف عنهما رأيك، وأظهر

براءت من ذلك لرعيك. وأنعم بالعدل سياستهم، وقم بالحق فيهم وبانعفة
التي تنتهي بك إلى سبيل الهدى.

واملك نفسك عند الغضب، وأثر الوقار والحلم، وإياك والحدة والطيش
والغرور فيما أنت بسبيله.

وإياك أن تقول: "أنا مسلط أفعّل ما أشاء"، لأن ذلك سريع فيث إلى نقص
الرأي وقلة اليقين بالله وحده لا شريك له. وأخلص لله النية فيه واليقين به،
واعلم أن الملك لله، يؤتيه من يشاء وينزعه من يشاء.

ولن تجد تغيير النعمة وحلول النعمة إلى أحد أسرع منه إلى جهة النعمة
من أصحاب السلطان والمبسوط لهم في الدولة إذا كفروا بعم الله عز وجل
وإحسانه، واستطالوا بما آتاهم الله عز وجل من فضله.

ودع عنك شره نفسك. ولكن ذخرك وتذكرك التي تذخر وتكثر البير
والنقوى والعدل واستصلاح الرعية وعمارة بلادهم، والتفقد لأموالهم،
وحفظ لدمائهم، والإغاثة لمُلهوفهم. واعلم أن الأموال إذا كثرت ودجرت في
احزائن لا تنمى، وإذا كانت في صلاح الرعية وإعطاء حقوقهم وكف المؤنة
عنهم تمت وركت، وصلحت العامة، وتزيّنت به الولاية، وطاب له لزمان،
واعتمد فيه العز والمنعة. فليكن كنز خزائنك تفريق الأموال في عمدة لإسلام
وأهله، وفرق مه على أولياء أمير المؤمنين قبلك حقوقهم، وأوف رعيك من
ذلك حصصهم، وتعهّد ما يصلح أمورهم ومعاشهم. فإنك إذا فعلت ذلك
قرئت النعمة عليك واستوجبك المزيد من الله تعالى، وكنت بذلك في جباية
خارجك وجمع أموال رعيك وعمك أقدر، وكان الجميع لما شملهم من
عدلك وإحسانك أسكن لطاعتك وأطّيب نفسا بكل ما أردت.

* صري وس الأثير حملة
** صري وس الأثير أسلى

ونصف الحصم، وقف عند الشبهة، وأبلغ في الحجة، ولا تأخذك في أحد من رعيته محابة ولا مجاملة ولا لومة لائم. وثبتت وتأن، وراقب وانظر، وتفكر وتدبر واعتبر، وتواضع لربك، وارفق بجميع الرعية، وسلط الحق على نفسك، ولا تسمع إلى سفك دم، فإن الدماء من الله عز وجل بمكان عظيم نتهاكها بغير حقها.

انظر هذا الخراج الذي استقامت عليه الرعية وجعله الله للإسلام عزاً ورفعة، ولأهله نوسعة ومنعة، ولعدوه وعدوهم كبتاً وغيظاً، ولأهل الكفر من معاديتهم ذلاً وصغاراً، فوزعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية والعموم فيه. ولا ترفعن منه شيئاً عن شريف لشرفه، وعن عني لغناه، ولا عن كتبك. ولا عن أحد من خاصتك ولا حاشيتك. ولا تأخذن منه فوق الاحتمال. ولا تُكنعن مرءاً فيه شططاً. واحمل الناس كنهم على مر الحق، فإن ذلك أجمع لأنتهم وألزم لرضاء العامة.

وعدم أنك جعلت بولايتك خازناً وحافظاً وراعياً. وإنما سمي أهل عمك رعيته لأنك راعيتهم وقيمتهم. فخذ منهم ما أعطوك من عقوهم، وتنقده في قوام أمرهم وصلاحيهم وتقويم أودهم. واستعمل عليهم ذوي الرأي ولتسير ولتجربة والخبرة والعلم بالسياسة والعفاف. ووسّع عليهم في الرق، فإن ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت وأسند إليك. ولا يشعنك عنه شغل، ولا يصرفنك عنه صارف، فإنك متى أثرته وقمت فيه بالواجب، ستدعيه به زيادة النعمة من ربك وحسن الأحدوث في عملك، واجترأت به المحبة من رعيته، وأعنت على الصلاح. فدرت الخيرات ببلدك، وفشت العمارة بناحيته، وظهر الخصب في كورك، وكثر خرجه، وتوفرت أموالك، وقويت بذلك على ارتضاء جنك وإرضاء العامة بفاضة العطاء

^٤ في نص أصلي في [ج] ارتضاء، وفي الخاشية ارتضاء، والصحيح. كما ورد عند نصري رتباط

فيهم من نفسك، وكنت محمود السياسة، مرضى العدل في ذلك عند عدوك. وكنت في أمورك كلها ذا عدل وقوة وآلة وعُدَّة. فنافس في هذا، ولا تقدّم عليه شيئاً تحمّد مغيةً أمرك إن شاء الله تعالى.

واجعل في كل كورة من عملك أميًّا يخبرك أخبار عمالك، ويكتب لك بسيرهم وأعمالهم حتى كأنك مع كل عامل في عمله مُعَايِن لأمره كلها. وإن أردت أن تأمرهم بأمر، فانظر في عواقب ما أردت من ذلك، فإن أردت السلامة فيه والعافية ورحوت فيه حسن الدفاع والنصح والصنع فأمنه، ولا فتوّف عنه. وراجع أهل البصر والعلم به، ثم خذ فيه عدته فيه رعى نظر ارحل في أمر من أمره وقد أتاه عنى ما يهوى فأغواه ذلك وأعجه، وإن لم ينظر في عواقبه أهلكه، ونقض عليه أمره. فاستعمل الخزم في كل ما أردت وباشره بعد عون الله بالقوة، وأكثر من استخارة ربك في جميع أمورك، و فرع من عمل يومك ولا تؤخّره، وأكثر مباشرته بنفسك. فإن لعدّ مورّ وحوادث تُلهيك عن عمل يومك الذي أخرت. واعلم أن اليوم ذا مصى ذهب ما فيه، فإذا أخرت عمله اجتمع عليك عمل يومين، فيثقل ذلك حتى تعرض له وإذا أمضيت لكل يوم عمله أرحت بدنك ونفسك. وأحكمت مور سلطانك.

واسطر أحرار الناس ودوي السن منهم، فمن تستيقن صفاء ضوئهم وشهدت موذتهم لك ومظاهرتهم بالنصح والمخالصة على أمرك. فاستخلصهم وأحسن إليهم.

وتعاهد أهل البيوتات من قد دخلت عليهم الحاجة، فاحتمل مؤنتهم وأصلح حالهم حتى لا يجدوا خلّتهم مساً.

وأفرد نفسك للنظر في أمور الفقراء والمساكين ومن لا يقدر على رفع مظلمة إليك، والمحتقر الذي لا علم له بطلب حقه، فسل عنه أحقّ مسألة.

* كلمة النصح مضافة في الحاشية في [ح] عن الطبري.

من أمر الدنيا والدين، والتدبير والرأي، والسياسة وإصلاح الخلق والرعية،
وحفظ لسلطان وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة، إلا وقد أحكمه وأوصى به . ثم
أمر المؤمنين، فكتب به إلى جميع العمال في النواحي ليقتدوا به ويعملوا بما
فيه .

هذا أحسن ما وقفت عليه في هذه السياسة . والله يُلهم من يشاء من

عبده .

[51] في أمر الفاطمي وما يذهب إليه الناس
في شأنه وكشف الغطاء عن ذلك*

إب من المشهور بين الكافة من أهل الإسلام على مرّ الأعصار أنه لا بد في آخر زمان من ظهور رجل من أهل البيت يؤيد الدين، ويُظهر العدل، ويتبعه المسلمون، ويستولي على الممالك الإسلامية، ويسمى المهدي، ويكون حروح الدجال وما بعده من شرائط الساعة الثابتة في الصحيح عن أثره، وأن عيسى ينزل من بعده فيقتل الدجال، أو ينزل معه فيساعده على قتله، ويأتي المهدي في صلاته. ويحتجّون في الباب بأحاديث خرّجها الأئمة، وتكتم فيها المنكروا لذلك، وربما عارضوها ببعض الأخبار. وللمتصوفة المتأخرين في أمر هذا الفاطمي طريقة أخرى ونوع من الاستدلال. وربما يعتمدون في هذا الباب على الكشف الذي هو أصل طرائقهم.

ونحن الآه نذكر الأحاديث الواردة في هذا الباب، وما للمنكرين فيها من المظعن، وما لهم في إنكارهم من المستند. ثم نتبعه بذكر كلام المتصوفة وآرائهم ليتبين لك الصحيح من ذلك إن شاء الله. فنقول :

إن جماعة من الأئمة خرّجوا أحاديث المهدي منهم الثرمذي، وأبو داود، ولبزاز، وابن ماجّة، والحاكم الطبراني، وأبو عني الموصلي، وأسدود إلى

* هذا الفصل لم يرد في [ب]

يوطى اسمه اسمي، واسم أبيه اسم أبي". هذا لفظ أبي داود. وسكت عليه وقال في رسالته المشهورة إن ما سكت عليه في كتابه فهو صالح. ولفظ الترمذي: "لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي يوطى اسمه اسمي". وفي لفظ آخر: "حتى يلي رجل من أهل بيتي". وقال في كليهما: حديث حسن صحيح". ورواه أيضًا من طريق عاصم موقوفًا على أبي هريرة. وقال الحفكم: "رواه الثوري وشعبة وزائدة وغيرهم من أئمة المسلمين عن عاصم". قال: "وطرق عاصم عن زر عن عبد الله كلها صحيحة، على ما صنَّه من الاحتجاج بأخبار عاصم، إذ هو من أئمة المسلمين". انتهى.

إلا أن عاصمًا قال فيه أحمد بن حنبل: "كان رجلًا صالحًا قارئًا للقرآن خيرًا ثقة، والأعمش أحفظ منه. وكان شعبة يختار الأعمش عليه في تثبيت الحديث". وقال العجلي: "كان يُخْتَلَفُ عليه في زر وأبي واثل"، يشير بذلك إلى ضعف روايته عنهما. وقال محمد بن سعد: "كان ثقة، إلا أنه كثير الخطأ في حديثه". وقال يعقوب بن سفيان: "في حديثه اضطراب". وقد عبد الرحمن بن أبي حاتم: "قلت لأبي: إن أبا زرعة يقول عاصم ثقة. وقد ليس محلّه هذا". وقد تكلم فيه ابن علقمة، فقال: "كل من اسمه عاصم سيء الحفظ". وقال أبو حاتم: "محلّه عندي محل الصدق، صالح الحديث، ولم يكن بذلت الحفظ". واختلف فيه قول النسائي. وقال ابن خراش: "في حديثه نكرة". وقال أبو جعفر العقيلي: "لم يكن فيه إلا سوء الحفظ". وقال الدارقطني: "في حفظه شيء". وقال يحيى القطان: "ما وجدت رجلًا اسمه عاصم إلا وجدته رديء الحفظ". وقال أيضًا: "سمعت شعبة يقول: "حدثنا عاصم بن أبي النجود وفي النفس ما فيها. وقال الذهبي: "تُبِت في القراءة، وهو في الحديث دون الثبوت صدوق يهيم، وهو حسن الحديث. وإن احتج أحد بأن الشيخين أخرجاه، فإما أخرجاه له مقرونًا بغيره، لا أصلًا. والله أعلم.

وخرج أبو داود في الباب عن علي رضي الله عنه من رواية فطر بن خليفة (بالفاء) عن القاسم بن أبي بزة عن أبي الطفيل عن علي عن النبي صلى الله

عنه وسلم قال : " لو لم يبق من الدهر إلا يوم ، لبعث الله رجلاً من أهل بيتي يملأها عدلاً كما مِلئت جوراً " . وفطر بن خليفة ، وإن وثقه أحمد ويحيى وابن المقفان وابن معين والنسائي وغيرهم ، إلا أن العجلي قال : ' أحسن الحديث ، وفيه تشيع قليل ' . وقال ابن معين مرة : " ثقة ، شيعي " . وقال أحمد بن عبد الله بن يونس : " كنا نمر على فطر وهو مطروح لا نكتب عنه " . وقال مرة : " كنت مرُّ به ودعته مثل الكلب " . وقال الدارقطني : " لا يُحتج به " . وقال جُوزجاني : زافع ، غير ثقة " . انتهى .

وخرَّج أبو داود أيضاً بسنده إلى علي رضي الله عنه عن هرون بن المغيرة عن عمر بن أبي قيس عن شعيب بن خالد عن أبي إسحاق السبيعي قال : قال عبي ، ونظر إلى ابنه الحسن فقال : " إن ابني هذا سيد ، كما سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سيخرج من صلبه رجل يسمى باسم نبيكم ، يشبهه في الخلق " . ثم ذكر قصة " يملأ الأرض عدلاً " .

وقال هرون : حدثنا عمرو بن أبي قيس عن مُطَرِّف بن طَرِيف عن أبي الحسن عن هلال بن عمرو : " سمعت علياً يقول : قال النبي صلى الله عليه وسلم : يخرج رجل من وراء النهر يُقال له الحارث ، على مُقدَّمته رَحْل يُقال له منصور ، يُوطى أُوَيْمَكْن لآل محمد كما مكنت قريش لرسول الله ، وجب على كل مؤمن نصره " . أو قال ، إجابته " . سكت عليه أبو داود . وقد في موضع آخر في هرون : " هو من الشيعة " . وقال السليمان : " فيه نظر " . وقال أبو داود في عمرو بن أبي قيس : " لا بأس به ، في حديثه خطأ " . قال الذهبي : صدوق ، له وهام ' . وأما أبو إسحاق السبيعي ، وإن خرَّج عنه في الصحيحين ، فقد ثبت أنه اختلط آخر عمره ، وروايته عن علي منقطعة . وكذا رواية أبي داود عن هرون بن المغيرة . أما السند الشامي ، فأبو الحسن فيه وهلال بن عمرو مجهولان ، ولم يُعرف أبو الحسن إلا من رواية مُطَرِّف بن طَرِيف عنه ، انتهى . وخرَّج أبو داود أيضاً عن أم سلمة ، وكذا ابن ماجه ، والحاكم في المستدرک من طريق علي بن مُقبل عن سعيد بن المسيب عن أم سلمة ، قالت : ' سمعت

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: 'المهدي من عترتي، من ولد فاطمة .
لفظ أبي دود، وسكت عنه. ولفظ بن ماجة: 'المهدي من ولد فاطمة . ولفظ
الحاكم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر المهدي فقال: نعم،
هو حق، وهو من بني فاطمة . وأنه يتكلم عليه تصحيح ولا غيره . وقد ضعفه
تو جعفر العقيلي وقال: 'لا يتابع علي بن فضال عنه ولا يعرف إلا به'

وخرج أبو دود أيضًا عن أم سيمه من روية صالح أبي الخليل عن صاحب
له عن أم سيمه عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: يكون اختلاف عند
موت خيفة، فيخرج رجل من أهل المدينة هاربًا إلى مكة، فيأتيه ناس من أهل
مكة، فيخرجونه وهو كاره، فيباعدونه بين الركن والمقام، ويبحث إليه بحث من
لشام، فيخسف بهم بالبداء بين مكة والمدينة، فإذا رأى الناس ذلك، أتاه
بذال الشام وعصائب أهل العرق فيباعدونه. ثم ينشأ رجل من قريش،
أخو له كلب، فيبحث عنهم بحثًا، فيظهرون عليهم، وذلك بحث كلب. والخيفة
لأنهم يشهد غنيمه كلب. فيقسم المال، ويعمل في الناس بشئة نبيهم، ويلق
بجيرانه إلى الأرض. فيبث سبع سنين، ثم يتوفى، ويصلي عليه المسمون .
قال أبو دود، قال بعضهم عن هشام سبع سنين، وقال بعضهم سبع سنين.

ثم رواه أبو دود من روية أبي الخليل عن عبد الله بن الحارث عن أم
سيمه، فتبين بذلك المبهمة في الإسناد الأول. ورجاله رجال الصحيحين لا
مظن فيهم ولا مغمر.

وقد يقال إنه روية قتادة عن أبي الخليل، وقتادة مذكور، وقد عنعنه،
والمذكور لا يقبل من حديثه إلا ما صرح فيه السماع، مع أن الحديث ليس فيه
تصريح بذكر المهدي. نعم، ذكره أبو دود في جوابه.

وخرج أبو دود أيضًا، ونبهه الحاكم، عن أبي سعيد الخدري من طريق
عمران لقصاد عن قتادة عن أبي نصر عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم: 'المهدي سي، أحنى الجهة، أفتى لأف، يملأ
الأرض قسطًا وعدلاً كما مُننت حورًا وطلحًا، يمشي سبع سنين'. هذا لفظ أبي

داود، وسكت عليه. ولفظ الحاكم: "المهدي منا أهل البيت، أئمة لأئمة، أئمة، حتى، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً. يعيش هكذا، وسط يساره وأصبعين من يمينه، السبابة والإبهام، وعقد ثلاثة. قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه. انتهى. وعمرن لفظان مختلف في الاحتجاج به. وإنما أخرج له البخاري استشهداً لا أصلاً. وكان يحيى القطان لا يحدث عنه. وقال يحيى بن معين: "ليس بالقوي". وقال مرة: "ليس بشيء". وقال أحمد بن حنبل: "أرجو أن يكون صالح الحديث". وقال يزيد بن زريع: "كان حروياً، وكان يرى السيف على أهل القبلة". وقال النسائي: "ضعيف". وقال أبو عبيد الأجرى: "سألت أبا داود عنه، فقال: من أصحاب الحسن. وما سمعت إلا خيراً. وسمعت ذكره مرة أخرى فقال: ضعيف. أفتى في أيام إبراهيم بن حسن بفتوى شديدة فيها سفك الدماء".

وخرج الترمذي وابن ماجّة والحاكم عن أبي سعيد الخدري من طريق زيد العمي عن أبي الصديق الناجي عن أبي سعيد الخدري قال: خشينا أن يكون بعد نبينا حدث، فسلنا نبي الله صلى الله عليه وسلم، فقال: إن في أمي المهدي، يخرج، يعيش خمسين أو سبعاً أو تسعين - زيد الشاك - قال: قلنا: وما ذلك؟ قال: "سنتين". قال: "فيجيء إليه الرجل فيقول: يا مهدي، اعطني، قل: فيخشي له في ثوبه ما استطاع أن يحمله" لفظ الترمذي. وقال: هذا حديث حسن، وقد روي من غير وجه عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم. ولفظ ابن ماجّة والحاكم: يكون في أمي المهدي. - قصر فسبح، وإلا فتسع. فتتعم فيه أمي نعمة لم يسمعوا مثلاً قط. تؤتي لأرض أكده ولا تدخر منهم شيئاً، والمال يومئذ كدوس، فيقوم الرجل فيقول: يا مهدي، اعطني، فيقول: خذ". انتهى. وزيد العمي، وإن قال فيه الدررقي وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين إنه صالح، وزاد أحمد أنه فوق يزيد الرقاشي وفضل بن عيسى. إلا أنه قال فيه أبو حاتم: "ضعيف، يكتب حديثه ولا يحتج

صلى الله عليه وسلم قال: "ثَمَلًا الْأَرْضُ جَوْزًا وظَلَمًا، فيخرج رَحْلٌ من عِترتي، فمِلَتْ سَعًا، فَيَمَلَأُ الْأَرْضَ عَدْلًا وقِسْطًا كما مُلِثَتْ جَوْزًا وظَلَمًا" وقر حاكمه فيه. هذا الحديث صحيح على شرط مسلم. وإنما جعله على شرط مسلم لأنه أخرج عن حماد بن سلمة وعن شيخه مَطَرُ الزَّرَاقِ. وأما شيعه الآخر، وهو أبو هرون لعبدى، فلم يخرج له. وهو ضعيف جدًا، متهم بالكذب ولا حاجة إلى بسط أقوال الأئمة في تضعيفه. وأما الراوي له عن حماد بن سلمة، وهو أسد بن موسى، يلقب أسد السنة، وإن قال البخاري مشهور الحديث واستشهد به في صحيحه واحتج به أبو داود والنسائي، إلا أنه قال مرة أخرى: ثقة، لو لم يُصنَّف كان خيرًا له". وقال فيه أبو محمد بن حزم: "مُنْكَرُ الحديث".

ورواه الطبراني في معجمه الأوسط من رواية أبي الواصل عبد حميد بن واصل عن أبي الصديق الناجي عن الحسن بن يزيد السعدي، أحد بني بهدلة، عن أبي سعيد الخدري، قال: "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: يخرج رجل من أمتي يقوم بستني ينزل الله عز وجل له القطر من السماء، وتخرج له الأرض من بركتها، ثَمَلًا الْأَرْضُ منه قِسْطًا وعدلًا كما مُلِثَتْ جَوْزًا وظَلَمًا، يعمل على هذه الأمة سبع سنين، وينزل بيت المقدس". وقال فيه الطبراني: رواه جماعة عن أبي الصديق، ولم يدخل أحد بينه وبين أبي سعيد أحدًا إلا أبا الواصل، فإنه رواه عن الحسن بن يزيد عن أبي سعيد. انتهى. وهذا الحسن بن يزيد ذكره ابن أبي حاتم ولم يعرفه بأكثر مما في هذا الإسناد من روايته عن أبي سعيد ورواية أبي الصديق عنه. وقال الذهبي في الميزان إنه مجهول. لكن ذكره ابن حبان في الثقات. وأما أبو الواصل الذي رواه عن أبي الصديق، فلم يخرج له أحد من الستة. وذكره ابن حبان في الثقات في لطيفة الثانية، وقال فيه: يروي عن أنس، وروى عنه شعبة وعتاب بن بشير.

وحَرَّح ابن حبان في كتاب السنن له عن عبد الله بن مسعود عن طريق يزيد بن أبي زياد عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله، قال: بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أقبل فتية من بني هاشم. فلما راهم أنسي

صلى الله عليه وسلم اغورقت عيناه وتغير لونه قال : فقلت : " ما نزال نرى في وجهك شيئاً نكرهه " . فقال : " إنا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا . وإن أهل بيتي سيلقون بعدي بلاء وتشريداً وتطريداً حتى يأتي قوم من قبس المشرق معهم رايات سود ، فيسألون الخير فلا يعطونه ، فيقاتلون فيبصرون ، فيعطون مسائلوا فلا يقبلونه حتى يدفعوها إلى رجل من أهل بيتي ، فيملؤها قسطاً كما ملؤها جوراً . فمن أدرك ذلك منكم ، فاليأتهم ولو حبواً عسى الشيع . انتهى .

وهذا الحديث يُعرف عند المحدثين بحديث الرايات . ويزيد بن أبي زياد ، راويه ، قال فيه شعبة : " كان رفاعاً ، يعني يرفع الأحاديث التي لا تُعرف مرفوعة . وقال محمد بن فضَّيل : " كان من كبار أئمة الشيعة " . وقال أحمد بن حنبل : " لم يكن بالحافظ " . وقال مرة : " حديثه ليس بذلك " . وقال يحيى بن معين : " ضعيف " . وقال العجلي : " جائر الحديث ، وكان بآخره يلقي " . وقال نور رعة : " ليس يُكتب حديثه ولا يُحتج به " . وقال أبو حاتم : " ليس بانقوي " . وقال الجوزجاني : " سمعته يضعفون حديثه " . وقال أبو داود : " لا أعلم أحداً ترك حديثه وغيره أحب إليّ منه " . وقال ابن عدي : " هو من شيعة أهل الكوفة . ومع ضعفه يُكتب حديثه " . وروى له مسلم الحديث الذي رواه عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله ، وهو حديث الرايات ، فقال وكيع بن الجراح فيه : " ليس بشيء " . وكذلك قال أحمد بن حنبل . وقال أبو قدامة : " سمعت أبا أسامة يقول في حديث يزيد عن إبراهيم في الرايات : " لو حلف عندي خمسين يمينا فسماعة ما صدقته . أهذا مذهب إبراهيم ؟ أهذا مذهب علقمة ؟ أهذا مذهب عبد الله ؟ " وأورد العجلي هذا الحديث في الضعفاء . وقال الذهبي : " ليس بصحيح " .

وخرج ابن ماجه عن علي رضي الله عنه من رواية ياسين العجلي عن إبراهيم بن محمد بن الحنفية عن أبيه عن جده ، قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : المهدي منا أهل البيت . يُصلحه الله في ليلة " .

وياسين لعجلي، وإن قال فيه ابن معين : ليس به بأس . فقد قل الخوري .
'فيه نظر . وهذه اللفظة في اصطلاحه قوية في 'التضعيف جد . وورد له ابن
عدي في الكامل والذهبي في الميزان هذا الحديث على وجه الاستنكار له ،
وقال : 'هو معروف به' .

وخرج الطبراني في معجمه الأوسط عن علي رضي الله عنه أنه قل للنبي
صلى الله عليه وسلم : " أميًّا المهدي أو من غيرنا يا رسول الله ؟ " قال : بل
منا . بنا يختم الله كما بنا فتح . وبنا يستنفدون من الشرك . وبنا يؤلف الله
بين قلوبهم بعد عداوة بينة كما بنا أَلَّف بين قلوبهم بعد عداوة الشرك . قال
علي : أمؤمنون أم كافرون ؟ " قال : "مقتون وكافر" . انتهى .

وفيه عبد الله بن لهيعة، وهو ضعيف معروف الحان . وفيه عمرو بن حابر
الخصرجي، وهو أضعف منه . قال أحمد بن حنبل : "وَرِي عن جابر مأكبر
وسعي أنه كان يكذب" . وقال الثَّسَنائي : "ليس بثقة" . وقال 'ابن هبيرة كان
شيخاً أحمر، ضعيف العقل . وكان يقول : 'علي في السحاب . ويجلس
معنا . فيصير سحابة فيقول : 'هذا علي قد مر في السحاب' .

وخرج الطبراني أيضا عن علي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال : 'تكون في آخر الزمان فتنة يُحَصِّر الناس فيها كما يُحَصِّر
لذهب في المعدن . فلا تَسُبُّوا أهل الشام، ونكن سؤا أشرهم فإن فيهم
لأبدان . يوشك أن يرسل على 'أهل الشام سَيْبٌ من السماء فيمَرِّق جماعتهم
حتى لو قتلهم الثعالب غلبتهم . فعند ذلك يرحل خارج من أهل بيتي في
ثلاث رايات - المكثرون يقول هم خمسة عشر ألفا والمقتل يقول هم ثلث عشر
ألفا، إمرتهم "أمت، أمت"، يلقون سبع رايات تحت كل راية منها رجز يطلب
لمنك . فيقتلهم الله جميعا ويرد الله إلى المسلمين أَلْفَتَهُمْ ونعمتهم وقصبيهم
ورأيهم" . انتهى .

وفيه عبد الله بن لهيعة، وهو ضعيف معروف الحال . ورواه 'أخاكم في
مستدركه، فقال : "صحيح الإسناد . ولم يخرججاه . وفي روايته 'ثم يظهر

نهامشي، ويرد الله الناس إلى ألفتهم"، إلى آخره. وليس في حريقه اس
بهيعة. وهو إسناد صحيح، كما ذكر.

وخرج الحاكم في المستدرک عن علي رضي الله عنه من رواية أبي الطفيل
عن محمد بن الحنفية، قال: "كنا عند علي رضي الله عنه، فسأله رجل عن
المهدي، فقال علي: "هبها". ثم عقد بيده سبعا، فقال: "ذاك يخرج في آخر
الزمان، إذا قال الرجل الله الله قتل. فيجمع الله تعالى له قوماً قزع كقزع
لصحاب، يؤلف الله بين قلوبهم، لا يستوحشون إلى أحد، ولا يفرحون
بأحد، دخل فيهم على عدة أصحاب بدر، لم يسبقهم الأولون ولا يدرتهم
الأحروب، وعلى عدد أصحاب طلوت الذين جازوا معه النهر" قال أبو
الطفيل: "قال ابن الحنفية: "أتريده؟" قلت: "نعم". قال: "فإنه يخرج من بين
هذه الأحشيين". قلت: "لا جرم والله، لا أريهما حتى أموت" فمات بها،
يعني مكة

قال الحاكم: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين". انتهى ورواه
عبي شرط مسلم فقط. فإن فيه عمارة الذهني ويونس بن أبي إسحاق، ولم
يخرج لهما البخاري. وفيه عمرو بن محمد العنقري، ولم يخرج له النجاشي
احتجاجاً بل استشهاده، مع ما ينضم إلى ذلك من تشيع عمار الذهني وهو
ورث وثقه أحمد وابن معين وأبو حاتم والنسائي وغيرهم، فقد قال عبي بن
المديني عن سفيان: "إن بشير بن مروان قطع عرقوبه". قلت: "في أي شيء؟"
قال: في التشيع.

وخرج ابن ماجه عن أنس بن مالك رضي الله عنه من رواية سعد بن عبد
الحميد بن جعفر عن علي بن زياد اليمامي عن عكرمة بن عمار عن إسحاق بن
عبد لله عن أنس. قال: "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:
نحن ولد عبد المطلب سادة أهل الجنة، أنا وحزرة وعلي وجعفر وأحسن
والحسين والمهدي". انتهى.

وعكرمة بن عمار، وإن أخرج له مسنم، فأى أخرج له متبعة وقد صنفه بعض ووثقه آخرون. وقال أبو حاتم الرزي : هو مُدَّثَس، فلا يُقبل إلا أن يصرح بالسمع. وعنى ابن زياد، قل الذهبى في الميزان : 'لا يُدرى من هو'. ثم قال : 'الصواب فيه عبد الله بن زياد . وسعد بن عبد الحميد، وإن وثقه يعقوب بن شيبة وقال فيه يحيى بن معين : 'ليس به بأس'، فقد تكلم فيه الثوري. قالوا لأنه رآه يُفتي في مسائل ويُخطئ فيه. وقال ابن حبان : 'كان ممن فُحِّشَ خطؤه، فلا يُحتج به'. وقال أحمد بن حنبل : سعد بن عبد الحميد يدعى أنه سمع عرض كتب مالك، والنس ينكرون عليه ذلك، هو هاهنا بغداد به يحج، فكيف سمعها ؟ وجعله الذهبي عن لم يُدَّح فيه كلام من تكلم فيه.

وأخرج حاكم في مستدرکه من رواية مجاهد عن ابن عباس موقوف عنه، قل مجاهد قال عبد الله بن عباس لو لم أسمع أنك مثل أهل البيت ما حدثتكم بهذا حديث قال فقال مجاهد فإنه في سنن لا أذكره من تكبره . قل : فقال بن عباس : ما أهل لبث أربعة ما لسمع، وما المندر، ومنا المنصور، ومن المهدي'. قل : فقال له مجاهد : هبني لي هؤلاء الأربعة. فقال : 'أما لسفاح، فربما قتل أنصاره وعف عن عدوه. وأما المنذر أراه قال فإنه يُعطي المال الكثير، لا يتعظم في نفسه، ويمسك لقييل من حقه. وأما المنصور، فإنه يُعطي النصر على عدوه الشطرنجى كان يُعطي رسول له صلى الله عليه وسلم، يرعب منه عدوه على مسيرة شهرين. والمنصور يرعب منه عدوه على مسيرة شهر. وأما المهدي الذي يملأ الأرض عدلاً كما مننت جوراً، وتأمين لبهائم لسبع، وتلقي الأرض أفلاذ كبدها'. قل : قلت : وما أفلاذ كبدها ؟ قل : أمثال الأسطوانة من الذهب ولفضة'. انتهى .

وقال الحاكم : "هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وهو من رواية إسماعيل بن إبراهيم بن مهجر عن أبيه. وإسماعيل ضعيف. وأبوه، وإن أخرج له مسنم، فالأكثر عن تضعيفه .

وخرج بن ماجة عن ثوبان، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
يقتل عند كنزكم ثلاثة، كلهم ابن حبيبة، ثم لا تصير إلى واحد منهم ثم
تضع نريت السود من قبل المشرق، فيقتلوكم قتلاً ثم يقتله قوم . ثم ذكر
شيئاً لا أحفظه، فقال : أفود رأيتموه، فماتوه ولو حيوا على الشح، وبه حليمة
الله المهدي . انتهى .

ورجاله رجال الصحيح، لأن فيه أبا قلابة الجرمي، وذكر لذهبي وغيره
أنه مدلس . وفيه سفيان الثوري، وهو مشهور بالتدليس . وكل واحد منهما
عنعن ولم يصرح بالسماع، فلا يقبل . وفيه عبد الرزاق بن همام، وكان
مشهوراً بالتشيع، وعمي في آخر عمره فخطأ . قال ابن عدي : 'حدث
بأحاديث في الفضائل لم يوافقه عليها أحد، ونسبوه إلى التشيع . انتهى .

وخرج ابن ماجة عن عبد الله بن خارث بن جزء الزبيدي عن طريق ابن
لهيعة عن أبي زرعة عمرو بن عامر خضرمي عن عبد الله بن الخارث بن
جزء، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يخرج ناس من المشرق،
فيؤثثون لمهدي ، يعني سلطانه .

قال لطبراني : تفرّد به ابن لهيعة، وقد تقدم لنا في حديث علي الذي
خرّجه لطبراني في معجمه الأوسط أن ابن لهيعة ضعيف، وأن شيخه عمرو
بن جبر أضعف منه .

وخرّج السرازمي مسنده والطبراني في معجمه الأوسط، واللفظ
لطبراني عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال : يكون في أمي
المهدي، إن قصّر فسبع، وإلا فثمان وإلا فتسع . تنعم أمي فيها نعمة لم ينعموا
منه . ترسل أسماء عليهم مدراراً، ولا تدخر الأرض شيئاً من لبنت، والمال
كُدوس . يقوم الرجل يقول : يا مهدي اعطني . فيقول : خذ .

قال بصري والنزار تفرّد به محمد بن مروان لعجلي راد الزر . ولا
يُعلم نفعه عنده أحد . وهو وإن وثقه أبو داود وسنن جرحاً أيضاً ذكره في
الشفقات وقال فيه يحيى بن معين 'صالح'، وقال مرة : 'ليس به بأس'، وقد

اختلعا فيه. وقال أبو زُرعة: "ليس عندي بذلك". وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: "رأيت محمد ابن مروان الثَّقَلِي، وحدث بأحاديث وأنا شاهد سمعتها، تركتها على غمِّه. وكتب بعض أصحابنا عنه كأنه ضعفه". وخرَّج أبو يَعْلَى المَوْصِلِي في مسنده عن أبي هُرَيْرَةَ، قال: حدثني خبيبي أبو القاسم صلى الله عليه وسلم، قال: "لا تقوم الساعة حتى يحرر عليهم رجل من أهل بيتي، فيضربهم حتى يرجعوا إلى الحق". قال: قلت: 'وكم يمك؟' قال: "خمس واثنتين". قال: "قلت: 'ما خمس واثنتين؟' قال: 'لا أدري'". انتهى.

وهذا السند وإن كان فيه بشير بن نهيك، وقال فيه أبو حاتم: "لا يحتج به"، فقد احتج به الشيخان، ووثقه الناس، ولم يلتفتوا إلى قول أبي حاتم لا يحتج به. لا أن فيه مُرْجَا بن رَجَا اليَشْكُرِي، وهو مختلف فيه، قال أبو زُرعة: ثقة. وقال يحيى بن معين: 'ضعيف'. وقال مرة: 'صالح'. وعلق له البخاري في صحيحه حديثا واحدا.

وخرَّج أبو بكر البَرَاء في مسنده، والطبراني في معجمه الكبير والأوسط عن قُرَّة بن رياح، قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لَنُكْمَلَنَّ الأرضَ جَوْزًا وظُلَمًا. فإذا مُنِت جَوْزًا وظُلَمًا بعث الله رجلاً مني اسمه سمي، وسم أبيه اسم أبي، يملؤها عدلاً وقسطاً كما مُنِت جَوْزًا وظُلَمًا. فلا تمنع السماء شيئاً من قطرها، ولا الأرض شيئاً من نباتها. يلبث فيكم سبعا وثمانين أو تسعين". يعني سنين. انتهى.

وفيه داود بن المَحْبُور من قَحْظَم عن أبيه. وهما ضعيفان جداً. وخرَّج الطبراني في معجمه الأوسط عن أم حبيبة، قالت: 'سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "يخرج ناس من قِل المشرق يريدون رجلاً عند البيت حتى إذا كانوا ببَيْدَاء من الأرض، حُسِف بهم. فيلحق بهم من تحلف، فيصيبهم ما أصابهم'. قلت: يا رسول الله، كيف بمن كان أَسْتُخْرَح مستكرها؟ قال: "يصيبهم ما أصاب الناس. ثم يبعث الله كل امرئ على نيتة". انتهى.

أُرد عن أبي عَياش، وهو مَثْرُوك، عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم، وهو مُقَطَّع وبالجملنة، فالحديث ضعيف مضطرب". وقد قيل إن معنى لا مهدي إلا عيسى، أي لا يتكلم في المهدي إلا عيسى. يحاولون بهذا التأويل رد الاحتجاج به، أو الجمع بينه وبين الأحاديث. وهو مدّوع بحديث جُرْجِج ومثله من الخوارق.

وأما المتصوّفة، فلم يكن المتقدمون منهم يخوضون في شيء من هذا وإنما كان كلامهم في المجاهدة بالأعمال وما يحصل عنها من نتائج المواجد ولأحوال. وكان كلام الإمامية والرافضة من الشيعة في تفصيل علي رضي الله عنه ولقول إمامته وادعاء الوصية له بذلك من النبي صلى الله عليه وسلم ولتبرّي من لشيخين، كما ذكرناه في مذاهبهم ثم حدث فيهم من بعد ذلك القول بالإمام المعصوم، وكثرت التواليف في مذاهبهم. وجاء الإسماعيلية منهم يدّعون ألوهية الإمام بنوع من الحلول. وآخرون يدّعون رجعة من مات من الأئمة بنوع التناسخ أو الحقيقة. وآخرون ينتظرون مجيء من يُقَطِّع بموته منهم. وآخرون ينتظرون عود الأمر في أهل البيت، مستدلين على ذلك بما قدمناه من أحاديث المهدي وغيرها.

ثم حدث أيضًا عند المتأخرين من المتصوفة الكلام في الكشف وفيما وراء حجاب الخس. وظهر من كثير منهم القول على الإطلاق بالحلول والوحدة. فشاركوا فيها الإمامية والرافضة لقولهم بألوهية الأئمة أو حلول الإله فيهم. وظهر أيضًا منهم القول بالقُطب والأبدان، وكأنه يحاكي مذهب الرافضة في الإمام والتَّقَبُّاء.

وأشربوا أقوال الشيعة، وتوغَّلوا في الديانة بمذاهبهم. حتى لقد جعلوا مستند طريقهم في لباس الخرقَة أن عليًا رضي الله عنه أنبأها الحسن المصري وأُحد عليه العهد بالتزام الطريقة. واتصل ذلك عندهم بالجُنْد من شيوخهم. ولا يُعلَم هذا عن علي من وجه صحيح. ولم تكن هذه الطريقة خاصة بعبي كرم الله وجهه. بل الصحابة كلهم إسوة في طريق الدين. وفي تخصيص هـد

عبي دونهم راحة من التشيع قوية نفهم منها ومن غيرها ما تقدم دخولهم في التشيع وانحرافهم في سلكه

فامتلات كتب لإسماعيلية من الراصة وكتب المتأخرين من المتصوفة مثل ذلك في لفاظي المنتظر وكأد بعضهم يمينه على بعض ويفقه بعض عن بعض. وكه مبني على أصوب وهية من الفريقين. وربما يستند بعضهم في ذلك إلى كلام المنجمين في القرائن. وهو من نوع لكلام في الملاحم، ويأتي لكلام عليها في الباب الذي يلي هذا.

وأكثر من تكلم من هؤلاء المتصوفة المتأخرين في شأن الفاطمي ابن العربي الحاتمي في كتاب عنقاء مغرب^{١٨٦}، وابن قسي في كتاب خلع النعلين، وعبد الحق بن سبعين، وابن أبي وأطيل من تلميذه في شرحه لكتاب خلع النعلين. وأكثر كدهم في شأنه ألدز وأمثل. وربي يصرحون في الأقل أو يصرح مفسروا كلامهم.

وحاصل مذهبهم فيه على ما ذكره ابن أبي وطيل أن النبوة بها ظهر الحق ولهدى بعد الضلال والعمى، وأنها تعقبها الخلافة، ثم يعقب الخلافة الملك، ثم يعود تجبراً وتكثر وباطلاً. قالوا ولا كان في المعهود من سنة له زجوع لأمر إلى ما كانت. وجب أن يحيى أمر النبوة والحق بالولاية، ثم بخلافتها، ثم يعقبها الدجل مكان الملك ولتسلط، ثم يعود الكفر بحاله كما كان قبل النبوة. يُشيرون بهذا إلى ما وقع بعد نبوة من الخلافة، ثم بعدها الملك، وهي ثلاث مراتب، فكذاك أيضاً الولاية التي لهذا الفاطمي الذي يحيى أمر النبوة والحق، ثم خلافة أمره بعده، ثم الدجل بعده، وهو الباطل الذي كُني عنه

١٨٦ عبور كمن نهى لكاتب هو عمقاء مغرب في حرم لأبياء وشمس أهل المغرب. لأن هذا الكتاب ليس له علاقة بموضوع مصروح هذا، ولا توجد فيه لمصطلحات مشابهة لشيء من ذلك. من حدود بعض عن كتاب من خلال من وطيل يوجد عدد منهم من محصوحت مؤلف من عربى في سنة ١٠٠٠.

حجروا الدجال. فهي ثلاث مراتب على نسبة الثلاث مراتب الأولى ثم يعود الكفر كما كان قبل النبوة.

فانوا ولا كان أمر الخلافة لقريش حكماً شرعياً بالإجماع الذي لا يؤهيه بكار من لم يزاوِل علمه، وجب أن تكون الإمامة فيمن هو أخص من قريش بالنسبة صلى الله عليه وسلم، إما ظاهراً فكُنِّي عبد المطلب، وإما باطناً فممن كان من حقيقة الأُل. والأل هم من إذا حضر لم يغيب من هو آل. وابن العربي الحاتمي سمّاه في كتاب عنقاء مغرب من تآليفه حاتم الأولياء. ويُنكبي عنه بلبنة الفضة، إشارة إلى حديث البخاري في باب خاتم الأنبياء. قال صلى الله عليه وسلم: "مثلي فيمن قبلي من الأنبياء كمثل رجل ابتنى بيتاً وأكمه. حتى إذا لم يبق منه إلا موضع لبنة، فأنا تلك اللبنة". فيفسرون خاتم النبيين باللبنة التي أكممت النبيان. ومعناه النبي الذي حصلت له النبوة الكاملة. ويمشون الولاية في تفاوت مراتبها بالنبوة. ويجعلون صاحب الكمال فيها خاتماً للأولياء، حائزاً للمرتبة التي هي خاتمة الولاية كما كان خاتم الأنبياء حائزاً للمرتبة التي فيها خاتمة النبوة. ولما كنّى الشارع عن تلك المرتبة الخاتمة باللبنة البيت في الحديث المذكور، وهي على نسبة واحدة فيهما، فهي لبنة واحدة في التمثيل. ففي النبوة لبنة ذهب، وفي الولاية لبنة فضة. لتفاوت بين الرُّبُتَيْن كما بين الذهب والفضة. فيجعلون لبنة الذهب كناية عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولبنة الفضة كناية عن هذا الولي الفاطمي المنتظر، ذاك خاتم الأنبياء، وهذا خاتم الأولياء.

وقال ابن العربي فيما نقل ابن واطيل عنه: 'وهذا الإمام المنتظر هو من أهل لبنة من ولد فاطمة، وظهوره يكون بعد مضي خ ف ح من الهجرة. ورسمه حروق ثلاثة يُريد عدّها بحساب الجُمَّل. وهي الخاء المعجمة بوحدة من فوق بستمئة، والفاء أخت القاف بشمانين، والجيم المعجمة بوحدة من أسفل ثلاثة، وذئب ستمئة وثلاثة وثمانين سنة، وهو آخر القرن السابع. ولما انصرم هذا العصر ولم يظهر، حمل ذلك بعض المقلدين لهم على أن المراد بتلك المدة

مولده. وعبر بظهوره عن مولده. وأن حروجه يكون عند العشر والسعمائة،
وأنه لإمام النجم من ناحية مغرب قل. وإذا كان مولده كما زعم ابن
العربي سنة ثلاث وثمانين وستمائة، فيكون عمره يوم حروجه ستاً وعشرين
سنة. قال: 'وزعموا أن خروج الدجال يكون سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة
من ليوم المحمدي'. وبدأ اليوم لمحمدي عندهم من يوم وفاة النبي صلى
الله عليه وسلم إلى تمام ألف سنة. وقد ابن وإطيل في شرحه كتاب خلع
النعلين: الولي المنتظر القائم بأمر الله المشار إليه بمحمد مهدي وخاتم
الأولياء ليس هو بنبي، وإنما هو ولي بتبعه روحه وحبيبه. قال صلى الله عليه
وسلم: لعالم في قومه كائني في أمته. وقال: علماء متي كنبية بني
إسرائيل. ولم تنزل لبشري تتبع به من أول يوم المحمدي إلى قيل لخمس
مائة، نصف اليوم. وتكثرت وتضاعفت بتبشير المشايخ بتقريب وقته
وزدلاف زمانه منذ انقضت إلى هم جر.

قال: وذكر الكندي * أن هذا الولي هو الذي يصلي بالناس صلاة
الظهر، ويجدد الإسلام، ويظهر العدل، ويفتح جزيرة الأندلس، ويصير إلى
رومة فيفتحها، ويسير إلى المشرق فيفتحها، ويفتح قسطنطينية، ويصير له ملك
الأرض. فيتقوى المسلمون، ويعود الإسلام، ويظهر دين الحنيفة. فإن من
صلاة الظهر إلى صلاة العصر وقت صلاة. قل عليه السلام: 'مبين هذين
وقت.

وقال الكندي أيضاً أحروف لعربية غير المعجمة، يعني المفتوح بها سور
القرآن جملة عددها بحساب الجمل سبع مائة وثلاثة وأربعون وسبعة دجالية.
ثم ينزل عيسى في وقت صلاة العصر. فيصيح الدنيا، وتمشي الشاة مع
الذئب ثم منب مع العجم بعد سلامهم مع عيسى مائة وستون عاماً، عدد
أحروف المعجمة، وهي ق، ي، ز، دولة لعدل منها أربعون عاماً.

من أهل البيت من سكان كَرْبلاء، كان متبوعاً مُعظماً كثير التلميذ والخادم قال : وكان الرجال من موطنه يتلقونه بالنفقات في أكثر البلدان . قال : وتأكدت الصحبة بيننا في تلك الطريق، فأنكشف لي أمرهم وأنهم إنما جاؤوا من موطنهم بكربلاء لطلب هذا الأمر وانتحال دعوة الفاطمي بالمغرب . فلما عيين دولة بني مرين ويوسف بن يعقوب يومئذ منازل لتلمسان^(١٩٠)، قال لأصحابه : "ارجعوا، فقد أُرْزِيَ بنا الغلط، وليس هذا الوقت وقتنا". ويدل هذا القول من هذا الرجل على أنه مستبصر في أن الأمر لا يتم إلا بالعصبة المكفنة لأهل الوقت . فلما علم أنه غريب في ذلك الوطن ولا شوكة له، وأن عصبية بني مرين لذلك العهد لا يقاومها أحد من أهل المغرب، استكان ورجع إلى الحق وأقصر عن مطامعه . وبقي عليه أن يستيقن أن عصبية الفواطم وفريش أجمع قد ذهبت، لا سيما في المغرب . إلا أن التعصب لشأنه لم يتركه لهذا القول . والله يعلم وأنتم لا تعلمون .

وقد كانت بالمغرب لهذه العصور القريبة وفي العرب من سكه نزعة من الدعة إلى الحق والقيام بالسنة لا يتحنون فيها دعوة فاطمي ولا غيره، وربما ينزع منهم في بعض الأحيان الواحد فالواحد إلى إقامة السنة وتعبير المنكر، ويعنى بذلك ويكرر تابعه . وأكثر ما يعنون بإصلاح السابلة لما أن أكثر فساد الأعراب فيها لما قدمناه من طبيعة معاشهم . فيأخذون أنفسهم في تغيير المنكر بإصلاح السابلة ما استطاعوا . إلا أن الصبغة الدينية فيهم لا تسنحهم لما أن توبة لعرب ورجوعهم إلى الدين إنما يقصدون بها الإقصار عن الغارة والنهب، لا يعقلون في توبتهم وإقبالهم على مناحي الديانة غير ذلك، لأنها المعصية التي كانوا عليها قبل التوبة ومنها توبتهم . فتجد تابع ذلك المنتحل للدعوة والقائم بزعمه بالسنة غير متعمقين في فروع الاقتداء والاتباع . إنما دينهم الإعراض عن النهب والبغي وإفساد السابلة، ثم الإقبال على طلب

(١٩٠) انظر المبرج ٧، ص ٩٤

الندب والمعاش بأقصى جهدهم. وشتان بين طلب هذا الأمر من صلاح الحق وبين طلب الدنيا، فاتفقهما ممتنع. فلا تستحكم لهم صبغة في الدين ولا يكمل لهم نزوع عن الباطل على الجملة ولا يكثررون. وتختلف حال صاحب الدعوة منهم في استحكام دينه وولايته في نفسه دون تابعه. فإذا هلك انحل أمرهم وتلاشت عصبيتهم.

وقد وقع ذلك يافريقية لرجل من بني كعب من سُليم يُسمى قاسم بن مِرّ بن أحمد في المائة السابعة. ثم من بعده لرجل آخر من بادية رِيّاح من بطن منهم يعرفون بمُسلم. وكان يُسمى سَعادة. وكان أشد ديثاً من الأول وأقوم طريقة في نفسه. ومع ذلك فلم يستتب أمر تابعه لما ذكرناه، حسماً يأتي ذكر ذلك في موضعه عند ذكر قبائل سُليم وريّاح^(١).

ومن بعد ذلك ظهر ناس بهذه الدّعوة يتشبّهون بمثل ذلك، ويلبّسون فيه، وينحلون اسم المُتنة، وليسوا عليه إلا الأقل. فلا يتم لهم ولا لمن بعدهم شيء من أمرهم. سنة الله في عباده.

(١٩١) انظر المعبر ح 6 ص 8١، و ح 6 ص 38.

[52] في حدثان الدول والأمم، وفيه الكلام على الملاحم والكشف عن مسمى الجفر*

اعلم أن من خواص النفوس البشرية التشوّف إلى عواقب أمورهم وعدم ما سيحدث لهم من حياة أو موت، أو خير أو شر، سيما الحوادث العامة كمعرفة ما بقي من الدنيا، أو معرفة مُدد الدول وبقائها. فالتطّلع إلى هذا طبيعة بشر محتولون عليها. ولذلك نجد الكثير من الناس يتشوّفون إلى الوقوف على ذلك في المنام، والأخبار عن الكهان في قصدهم بمثل ذلك من الملوك واسئولة معروفة.

ولقد نجد في المدن صنفاً من الناس يتحللون المعاش من ذلك نعمهم بحرص الناس عليه. فينتصبون لهم في الطرقات والذكاكين، يتعرّضون لَمَن يسألهم عنه. فيغدو عليهم ويروح نِسوان المدينة وصبيانها، بل وكثير من ضعفاء العقول، يستكشفون عواقب أمورهم في الكسب والجاه والعشرة والعداوة.

وأمثل ذلك ما بين خط في الرمل. ويسمونه "المُنْجَم"، وطرق بالخصي والخبوب، ويسمونه "الخائب"، ونظر في المرايا والمياه. ويسمونه "ضارب

* في الكشف عن مسمى الجفر [1] يبحث نص هذا الفصل كثيراً عن النهر الذي ورد في [أ].
بمفردة. نهر اس حدود. المقدمة، المضمّة الخاصة. ج 5، ص 50

المُنْدَل'. وهو من المنكَرَات الفاشية في الأمصار لما تقرر في الشريعة من دَم ذلك، وأن البشر محجوبون عن الغيب إلا من أطلعه الله عليه من عنده في نوم أو بولاية.

وأكثر من يعنى بذلك ويتطَلَّع إليه الملوك والأمراء في أماد دولهم. ولذلك انصرفت العناية من أهل العلم إليه. وكل أمة من الأمم فيوجد لهم الكلام من كاهن أو منجِّم أو ولي في مثل ذلك من ملك يرتقبونه، أو دولة يحدثون أنفسهم بها، وما سيحدث لهم مع الأمم من الحروب والملاحم، ومدة بقاء الدولة، وعدد الملوك فيها والتعرُّض لأسمائهم. وسُمِّي مثل هذا الحَدَّثان.

وكان في العرب الكهَّان والعَرَّافون يرجعون إليهم في ذلك. وقد أخبروا بما سيكون للعرب من الملك والدولة، كما وقع نُشِق وسَطِيح في تأويل رؤي ربعة بن بَصْر، من ملوك اليمن، أخبرهم بملك الحبشة بلادهم، ثم رجوعها إليهم، ثم ظهور الملة والدولة للعرب من بعد ذلك. وكذا تأويل سطّيح رزق لموبدّان، بعث إليه بها كسرى مع عبد المسيح، وأخبره بظهور الدولة لعرب وكذا كان في جيل البربر كهَّان، وكان من أشهرهم موسى بن صالح، من بني يَفْر، ويقال من غَمَرَت. وله من كلمات حَدَّثَانِيَّة على طريقة الشعر برطانتهم. وفيها حَدَّثَان كثير، ومعظمه فيما يكون لزمانته من الملك والدولة بالمغرب، وهي متداولة بين أهل الجبل. وهم يزعمون تارة أنه ولي، وتارة أنه كاهن. وقد يزعمون في بعض مزاعمهم أنه كان نبياً، تاريخه عندهم قبل الهجرة بكثير. والله أعلم.

وقد يستند الجليل في ذلك إلى خبر الأنبياء، إن كانوا لعهدهم. كما وقع لبنني إسرائيل. فإن أنبياءهم المتعاقبين فيهم كانوا يُخبرونهم بمدة عندهم عندما يَتَعَتَّلون في السُّؤال عنه. وأما في الدولة الإسلامية، فوقع منه كثير فيما يرجع إلى بقاء الدنيا ومدَّتها على العموم، وفيما يرجع إلى الدُّول وأعمارها على الخصوص. وكان المعتمد في ذلك صدر الإسلام آثاراً منقولة عن الصحابة، وحصولاً مُسَلِّمةً بني إسرائيل مثل كعب الأحبار، ووهب بن مُنَّه،

إحدى وسعين فاستقروا مدة، وجاء خبي إلى نسي صلى الله عليه وسلم يسأله هل مع هذا غيره، فقال المص ثم سترد، فقال المص. فكت إحدى وسعين ومائتين، واستقر الله، وقال: 'لقد نُس عينا أمرك بامحمد حتى بدري قبيلاً عظيماً ثم كثيراً ثم دهب عنه وقل بهم أبو يسر. ما يدريكم لعله أعطي عدد كذا سعمائة وأربع سنين' قال ابن إسحاق 'فنز قوله تعالى: 'مه يات محكمات هن أم كتاب' لا يات انتهى ولا يقوم من القصة دليل على تقدير مئة بعد العدد، لأن دلالة هذه حروف على نك الأعداد ليست طبيعية ولا عقبة. وإما هي بانواع و لاصطلاح لدي يستو به حساب الحمل نعم إنه قديم مشهور، وقدم الاصطلاح لا يصير حجة وليس أبو يسر وأخوه خبي بمن يؤخذ رأيه في ذلك دليلاً ولا بين عماء اليهود لأنهم كانوا ردية يأخذون عملاً من لصنيع والعلوم، حتى من علم شريعتهم وفقه كتابهم ومذهبهم وإنما يتفقون أمثال هذا الحساب كما يتفق لعموم في كل مئة فلا يهمل لسهلي دلس في ما ادعاه من ذلك

ووقع في الملة في حدثان دونها على الخصوص يستند من الأثر إجمالي في حديث حرجه أبو دود عن حذيفة بن يمان من طريق شعبة محمد بن يحيى الذهلي عن سعيد بن أبي مريم عن عبد الله بن قروح عن سامة بن زيد البجلي عن ابن أبيصة بن ذؤيب عن أبيه قال: قال حذيفة بن يمان والله ما أدري أنسي أصحبي أم تاسو، وأنه ما برك رسول صلى الله عليه وسلم من قائد مئة إلى أن تقصي لدس ينع من معه ثلاثمائة فصاعداً إلا قد سمناه لد تاسمه وسم أبيه واسم قبيلته " وسكت عنه أبو دود، وقد تقدم أنه قال في رسالته ما سكت عنه في كتابي فهو صالح.

* صحيح في حقه سعمائة وثلاث وأربع مئة

114 نه من سنة ١٠٠٠ (3)

200) بعد سن أبي دود، ح 4، ص ١٠، في مصع كتاب

وهذه الأحاديث إذا كان صحيحاً فهو محتمل، ويقتصر في سبب إجماله وتعيين مهماته إلى ثار أخرى تحوّد سنيدها وقد وقع هذا الحديث في غير كتاب السنن على عهد هذا بوجه. فوقع في الصحيحين من حديث حذيفة أصحاً قال: «قام في رسول الله صلى الله عليه وسلم خطباً، وما ترك شيئاً يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدثه، حفظه من حفظه، ونسبه من نسبه، قد عممه أصحابه هؤلاء» ولم يلق شحاري ما ترك شيئاً إلى قيام الساعة إلا ذكره. وفي كتاب الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري قال: «صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً صلاة العصر بهراً، ثم قام خطيباً فم يذيع شيئاً يكون إلى قيام الساعة إلا أحرق به، حفظه من حفظه ونسبه من نسبه» انتهى.

وهذه الأحاديث كلها محمولة على ما أتت في صحيح من أحداث الفتن والأشرار، لا غير لأنه المعهود من لشارع صلوات الله عليه وسلم في أمثال هذه العمومات وهذه الريادة التي انفرد بها أبو داود في هذا الطريق شادة مبكرة، مع أن الأئمة حنفوا في رحاله فقال ابن أبي مريم في «سنن فروع الأحاديث مساكير»: «وقال الشحاري: «أعرف منه ونكره». وقال ابن عدي: أحديثه غير محفوظ، وأسمه من ريد، وربما حرج له في الصحيحين، ووثقه ابن منيع، فإنه حرج له لشحاري سنيته، وصعقه يحيى بن سعيد وأحمد بن حنبل، وقال أبو حاتم: يكتب حديثه ولا ينجح به. وابن قتيبة بن دؤيب محبوب، فتصعق هذه الزيادة التي وقعت لأبي داود في هذا الحديث من هذه الجهات، مع شذوذه كما مر.

وقد يستمدون في حديث الدور على انحصار إلى كتاب الحفر، ويرعمون فيه علم ذلك كنه من طريق الآثار والحجج، لا يبردون على

١. نظر صحيح بخاري، ج ١، ص ٢٩ في كتاب الفتن، صحيح مسلم، ج ٢، ص ٥٧، في كتاب الفتن.

٢. نظر صحيح ترمذي، ج ١، ص ٢١.

بالصغر ويرر من البد، فهزمه وسعه إلى ناحية ارباب، فطفره وفتته ومثل هذه الأحذر عنهم كثيرة

وأما المبحمون فيسندون في حدّات الدول إلى الأحكام النحومية أم في لأمر العامة مثل ملك والدول، فمن القراءات، وخصوصاً بين العلويين. ودنك أن العلويين، رُحل والمُشترى، يقتردن في كل عشرين سنة مرة، ثم يعود القراء إلى برّح آخر في تلك مُثثة من تثليث الأيمن ثم بعده إلى حر كدنت، إلى أن يتكرّر في المثثة الواحدة تُثنّي عشرة مرة، يستوفي بروجها الثلاثة في ستين سنة، ثم يعود فيستوفيها في ستين أخرى. ثم يعود ثالثة، ثم رابعة فيستوفي المثثة في ثني عشرة مرة وأربع عودات في مائتين وأربعين سنة. ويكون انتقاله من كل برح على التثليث لأيمن، ويتقل من المثثة إلى المثثة تُني نيتها، عني إلى البرح الذي يلي اسرح، لأحير من القراء الذي فيه في مُثثة

وهذا القراء الذي هو قران معلويين ينقسم إلى كبير وصغير ووسط والكبير هو اجتماع العلويين في درجة واحدة من الملك إلى أن يعود إليها بعد تسعمائة وستين سنة مرة واحدة ونوسط هو قران العلويين في كل مثثة ثني عشرة مرة، وبعد مائتين وأربعين سنة ينتقل إلى مثثة أخرى على تثليثه لأيمن وفي مثل درجه أو دهائقه مثان دنك وقع لقراء أول دفيقة من الحُمل، وبعد عشرين يكون أول دفيقة من القوس، وبعد عشرين في الأسد وهذه كنها بديه وهذا كله قران صغير. ثم يعود إلى أول الحُمل بعد ستين سنة وستين دور لقراء وعود لقراء وبعد مائتين وأربعين ينتقل من الدرية إلى الترابية، لأنها بعده وهذا قران وسط. ثم ينتقل إلى الهوائية، ثم إلى المائية، ثم يرجع إلى أول حُمل في تسعمائة وستين سنة وهو كبير

ونقرأ لكبير يد على عصم لأمر، مثل تعبير الملك و دون، وانتقال منه من قوم إلى قوم والوسط على ظهور المنعبيين والطلبيين للمنتك والصغير على ظهور الخوارج والدعاة، وحراب المدن وعمراها.

يعقرب، وهو دليل العرب، ظهرت حيسد دولة لعرب، وكان منهم سي، وتكون قوة مكة ودولته ومدته على قدر ما بقي من درحات شرف الزهرة، وهي أحد عشر درجاً بقرب من برج الحوت، ومدته ثلث ستمائة وعشر سنين، وكان ظهور أبي مسلم عند انتقال الزهرة ووقوع القسمة أول الحس، وصاحب الخلد المشتري.

وقال يعقوب بن إسحاق الكندي، إن مدته مائة تنتهي إلى ستمائة وثلاث وتسعين سنة، قال لأن الزهرة كانت عند قرب مائة في ثمان وعشرين درجة وثلاثين، وأربع دقيقة من حوت، فلبقي إحدى عشر درجة وثمان عشر دقيقة، ودقائقها ستون فيكون ستمائة وثلاثاً وتسعين سنة، قال وهذا مدة لمدة تدفق حكماء، وتعصده لحروف الواقعة في أوائل السور حدف مكر وعثره بحسب الحس.

قال وهذا هو الذي ذكره سهيلي وأتباع أن الأول هو مسند السهيلي فيما نقله عنه

قال جرير "وسئل هرمزد إفريدان الحكيم عن مدته، ردشير وولده، ملوك اسبانية، فقال دليل مكة المشتري، وكان في شرفه، ويعطي أصور تسين وأحودها أربعمائة وسبعاً وعشرين سنة، ثم تدثر الزهرة وتكون في شرفها، وهي دليل أن العرب يملكون، لأن طالع القراء الميزان، وصاحبه لزهرة، وكانت عند اقرب في شرفها، فمن أنهم يملكون ألف سنة وستين سنة

وسئل كسرى أنوشيروان وريده بزرجمهر حكيم عن حرج الميث من فارس إلى العرب، فأجبه أن لقائم منهم بولد لحمس وأربعين من دولته، ويملك المشرق والعرب، والمشتري يروض التدبير إلى الزهرة، وينتقل القراء من لهوائية إلى العقرب، وهو مائي، وهو دليل العرب فهذا لأدلة تقضي لمدته مدة دور الزهرة، وهي ألف وستون سنة

214 هـ. في عصر يعقوب بن إسحاق الكندي، وهو صاحب

انقرن الأول في الثلاثات لمائة في ثاني رحب سنة ثمان وستين وثمانئة
ولم يستوف الكلام على ذلك.

وأما مستند المنحيين في دولة دولة على الخصوص، فمن لقران الأوسط
وهيئة الفتى عند وقوعه، لأن له دلالة عندهم على حدوث الدول، وجهتها
من العمران، والقيمين بها من الأمم، وعدد ملوكهم وأسمائهم وأعمارهم،
ونحلهم، وأديبهم، وعوئدهم، وحروبهم، كما ذكر أبو يعشور في كتابه
القرانات. وقد تؤخذ هذه الأدلة من القرن الأصغر إذا كان الأوسط دالاً
عليه، فمن هذا يؤخذ الكلام في الدول.

وقد كن يعقوب بن إسحاق الكندي منجم الرُشيد والمأمون وضع في
القرانات الكائنة في الملة كتاب سماه الشيعة بالجفر باسم كتابهم المنسوب إلى
جعفر الصادق. وذكر فيه فيما يقل حداث دولة بني العباس، وأنها نهايته.
وأشار إلى انقراضها واخادثة على بغداد أنه يقع في منتصف المائة السابعة.
وأن نقراضها يكون بنقراض الملة.

ولم نقف على شيء من خبر هذا الكتاب ولا رأينا من وقف عليه. ولعله
غرق في كتبهم التي طرحها هولاء، ملك الصطر، في دجلة عند استيلائهم
على بغداد وقتل المعتصم، آخر الخلفاء.

وقد وقع بالمغرب جزء منسوب إلى هذا الكتاب يسمونه الجفر الصغير.
والظاهر أنه وُضع لبني عبد المؤمن، لذكر الأولين من ملوك الموحدين فيه على
لتفصيل ومطابقة ما تقدم من ذلك من حدثانه وكذب ما بعده.

وكان في دولة بني العباس من بعد كيندي منجمون وكتب في الحدثان.
وانظر ما نقله الطبري²⁷ في أخبار المهدي عن أبي ندى، من صنائع الدولة
قال: «بعث إليّ أربع وخمسين في عزاتهما مع الرشيد يوم أبيه، فحنتهما
خوف الليل، فإذا عندهما كتاب من كتب الدولة، يعني احداثا، وإذا مدة

²⁷ نصر تاريخ مصري ج 8، ص 146

المهدي فيه عشر سنين. فقلت : هذا الكتاب لا يخفى عن المهدي، وقد مضى من دولته ما مضى. فإذا وقف عليه كنتم قد نعينتم إليه نفسه. قالوا : فما الحيلة ؟ فاستدعت عبّسة الورّاق، مولى آل بُذَيْل وقلت له : اسح هذه الورقة، واكتب مكان عشرة أربعين. ففعل. فقال الله لولا أنني رأيت العشرة في تلك الورقة والأربعين في هذه ما شككت أنها هي'.

ثم كتب اناس من بعد ذلك في حدثان الدول منظومًا ومنثورًا وحرًا ما شاء لله أن يكتبوه. وبأيدي الناس مفترق كثير منها، وتُسمّى 'الملاحم'. وبعضها في حدثان الملة على العموم، وبعضها في دولة على الخصوص. وكما منسوب إلى مشاهير من أهل الخليفة. وليس منها أصل يُعتمد على روايته عن واضعه المنسوب إليه.

فمن هذه الملاحم بالمغرب قصيدة ابن مُرّانة، من بحر الطويل عني روي الرء. وهي مُتداوَلة بين الناس، ويحسب العامة أنها من الحدثان لعدم. فيُطبّقون كثيرًا منها على الحاضر والمستقبل. والذي سمعناه من شيوخنا أنها مخصوصة بدولة لَمْتونة، لأن الرجل كان قبيل دولتهم، وذكر فيها استيلاءهم عني سبته من أيدي موالي بني حمّود وملكهم لعدوة الأندلس. ومن الملاحم بأيدي أهل المغرب أيضًا قصيدة تُسمّى 'التَّبعية'، أولها :

طربت وما ذاك مني طربٌ وقد يضرب الطائر المغتصبُ
وما ذاك مني للهو أراه ولكن تذكّار بعض السبب

قريبًا من خمسمائة بيت، أو ألف بيت فيما يُقال. ذكر فيها كثيرًا من دولة الموحّدين. وأشار إلى الفاطمي وغيره. وأظهر أنها مصنوعة. ومن الملاحم بالمغرب أيضًا ملحبة من الشعر الزجلي منسوبة لعص اليهود، ذكر فيها أحكام القرائن لعصره، التعلّوين والتّخمينين وغيرهما، وذكر ميتته قتيلاً بفاس. وكان كذلك فيما زعموه. وأوله .

في صبح دا لأرق لشّ هه حيارا وفهمو ب قوم هدي الإشر
 حم زحل أخبر بدي العالما وبذل الشكلا وهي سلام
 شامية زرق بدل لعلم وطاشراً زرق بدل الغفار

وهي آخره يقول :

قد تم ذا التجنيس لإنسان يهودي يصنّب عى وادفس في يوم عيد
 حتى تقيه الناس من البودي وقتل ب قوم عى الغزارا

وثباته نحو الخمسمائة. وهي في أحكام القرانات التي دلت على دولة الموحدين.

ومن ملاحم المغرب أيضاً قصيدة من عروض لمتقارب عى روي الباء في حدثان دولة بني أبي حفص بتونس من الموحدين، منسوبة لابن الأبار. وقال لي قاضي قسطينة الخطيب الكبير أبو عبي بن بديس، وكان بصيراً بما يقول، وله قدّم في علم النجوم، فقال لي إن هذا بن لأبار ليس هو حافظ لكتاب، مقتول المستنصر، وإنما هذا رجل خياط من أهل تونس، تواطأت شهرته مع شهرة حافظ، وكان ولدي رحمه لله يُنشدني لأبيات من هذه الملحمة، وبقي بعضهم في حظي. مطلعها :

عذيري من رمن قنبر يغرّ ببارقه الأشنب

ومنها في ذكر النحايي، تاسع ملوك الدولة :

فبهت من خيشه قاتداً ويبقى هناك عى مرقب
 وتاتي إلى أشيح أحده فيقبل كالحمل الأحرب
 ويظهر من عدله سيرة وتلك سياسة مستحب

ومنها في ذكر أحوال تونس على العموم :

فإذا رأيتَ الرسومَ امحِ	ولم يُرَعْ حقٌ لذي منصب
فخذ في الترحل عن تونس	وودَّعَ معاليها واذهب
فسوف تكون بها فتنة	تضيف البري إلى المذنب

ووقفت بالمغرب على ملحة أخرى في دولة بني أبي حفص هؤلاء
بتونس، فيها بعد السلطان أبي يحيى الشهير، عاشر ملوكهم، ذكر أخيه
محمد، يقول فيه :

دعني يا دمعي الهتان	فترت المطار ولم تفر
واشتت كلها الويدان	وانتسى تملا وتغدر
البندان كلها تروى	فاوقاتا مثل ما تدري
واتين الصيف والشتا	وافكا والربيع تجري
قال حين صحت الدعوا	دعي نبكي ومن عذري
أيا دبّر في ذي الأزمان	ذا انفرن اشتدّ واتمر

وهي طويلة ومحفوظة بين عامة أهل المغرب الأقصى. والغلب عليها
الوضع، لأنه لم يصح منها قول إلا على تأويل تحرفه العامة أو يحازف فيه من
يتحلها من الخاصة.

ووقفت بالمشرق على منحة منسوبة لابن العربي الخاتمي في كلام طويل
شه . لأعاز، لا يعلم تأويله إلا الله، يتخلله أوقاف عنيدة، ورموز مغورة،
وأشكال حيوانات تامة، ورؤوس مقتطعة، وتمثيل من حيوانين عربية. وهي
نحرة قصيدة على روي اللام. والغالب أنها كلها غير صحيحة، لأنها لم تُن
على أصل علمي من نجامة ولا غيرها.

ومن عريب ما سمعت بعض اخو ص يتافوه بمصر عن ملحمة ابن
لعربي، ولعلها غير هذه، أنه تكلم فلي طالع بناء القاهرة، وأنه جعل مدة
عمارها أربعمئة وسير سنة من دلالات انطوالع السحومية، وينتهي ذلك إلى
حدود الثلاثين بعد الثمانمائة، لأن عدد حمسا على الأربعمئة وأستين حسب
نقمري لأنها شمسية، فتزيد عليها بحساب ثلاثة مئة، أربع عشرة سنة،
فيكون أربعمئة وسعين سنة، تحمها على ثلاثمئة وثمان وخمسين من
لهجرة، تاريخ بنائها، يكون ثمانمئة سنة وثلثين وثلاثين سنة. هذا إن صح
كلام ابن العربي وصدقت الدلائل النجومية.

وسمعت أيضًا أن هناك ملاحم أخرى منسوبة لابن سين ولابن عقب،
وليس في شيء منها دليل على الصحة، لأن ذلك إنما يؤخذ من القرائنات.
على أن ملاحم ابن أبي العقب مدخولة. وقد نقل ابن خلكن في ترجمة ابن
القرية عن كتاب الأغاني أن ابن أبي العقب، وهو يحيى بن عبد الله بن أبي
العقب من الأمور التي اشتهرت ولا وجود لها في الخارج، مثل مجنون ليلى.
وبن القرية، والله أعلم.

ووقفت بالمشرق أيضًا على محمة في حدّثان دولة لترك منسوبة إلى زجل
من الصوفية يُسمّى الباجريقي. وكلها لغز باخروف، أولها:

من عثم خير وصي ولد الحسن	إن شئت تكشف سر الجفر يا سكتي
ووصف فافعل كفعل الحاذق الفطن	فلفهم وكن واعيا حرف وجُمّه
لكنني أذكر الآن من الزمن	أما لذي قبل عصري لست أذكره
وحاء ميم بطيش نام في الكين	بيبرس يستقي بحاء بعد خمسته

ومنها .

شين له أثر من تحت سرتّه	نه نقض قصا أي دي المسن
مصر والشام مع رص العراق له	وأدر يحن من ملث إلى اليمس

ومنها :

وآل نوار لما نال ظاهريهم الفاتك الباتك المعنى بالشجن

ومنها :

اخلع سعيدا ضعيف السن أتى لا لا وقف ونون لُزَّ في قرن
قَرُم شجاع له عقل ومشورة يُسقى بحاء وابنٌ بعدُ ذو شجن

ومنها :

من بعد باء من الأعوام قتلته يني المشوه ميم الملك ذو اللسن
هذا هو الأعرج الكلبي فاعن به في عصره فتن ناهيك من فتن
يأتي من الشرق وجيش الترك يقدمهم غاز عن القاف قاف جر بالفتن
فقبل ذاك فويل الشم أجمعها فاندب بشجو على الأهلين والوطن
إذ إذا زلزلت يا ويح مصر من الزلزال ما زال عاما غير مقتطن
طاء وطاء وغين كلهم حبسوا هلكتي ويُنفق أموالا بلا ثمن
يسير القاف قافا نحو أحمدهم هون به إنَّ ذاك الحصن في مكن

ومنها :

وينصبون أخاه وهو صالحهم لام ألف شين لذاك نني

ومنها :

تمت ولايتهم بالحاء لا أحد من البنين يدابي الملك في الزمن

ومنها، ويقال إنه بشدة إلى لشد لظهر برقوق وقوده فيه عنه معصر

يأتي إليه بؤد بعد هجرته وطول عنته واستطف والذرن

وبيتها كثيرة، ولعلب أنها مصنوعة ومثل صنعتها كان في القديم كثير،
ومعروف الانتحل.

حكى المؤرخون لأخبار بغداد أنه كان بها أيام المقتدر ورق ذكي يُعرف
بلداني^{٣٠٨}، يُبَي الأوراق ويكتب فيها بحط عتيق يرمز فيه بحروف من
سماهل الدولة، ويُشير بها إلى ما يُعرف منهم إليه من أحوال الرفعة والجاه
كانها ملاحم، ويحصل بذلك على ما يريد من الدنيا. وأنه وضع في
بعض دفتريه ميم مكررة ثلاث مرات، وجاء به إلى مُفليح، مولى المقتدر، وكان
عظيمًا في الدولة. فقل له: 'هذا كناية عنك'، وهو مُفليح، مولى مقتدر، ميم
من كل واحدة. وذكر عندها ما يعسم فيه رضى، مما يناله من المنك والسلطان.
ونصب له علامات لذلك من أحواله المتعارفة، مؤه بها عليه، فبدل له ما أغناه
به. ثم وضعه لنوزير الحسن^{٣٠٩} بن لقسم بن وهب على مُفليح هذا، وكان
معزولاً، فجاءه بأورق مثله، وذكر اسم الوزير بمثل هذه الحروف وعلامات
ذكره، وأنه يبي الوزارة لثامن عشر من الخلفاء، وتستقيم الأمور على يديه،
ويقهر الأعداء، وتعمر الدنيا في أيامه. ووقف مُفليحاً على الأوراق، وذكر فيها
كوتن أخرى وملاحم من هذا النوع، بما وقع وما لم يقع. ونسب جميعه إلى
دانيال. فأعجب به مُفليح، ووقف المقتدر عيه. واهتدى من تلك الرموز
والعلامات إلى بن وهب لظهوره، وكان ذلك سبباً لوزارته بمثل هذه الخيل
لعريقة في الكذب والجهل بمثل هذه الألفاظ.

٣٠٨ معصر هذه الحكاية عن دسائي موحودة في النكاح لابن الأثير، ج ٨، ص ٨٩، سنة ٣١٩ هـ
٣٠٩ توبة حسن بن حسن

واظهار أن هذه الملحمة التي ينسبونها إلى الباجريقي من هذا النوع ولقد سألت الشيخ كمال الدين، شيخ الحنفية من العجم بالديار المصرية عن هذه الملحمة وعن هذا الرجل الذي تنسب له من الصوفية، وهو الباجريقي، وكان عارفاً لطرائقهم، فقال: 'كان من المعروفين بالقرن تَذَلِّي المتدعين في حق الحجة. وكان يتحدث عن كون من الملوك لعصره بطريق الكشف، ويومي إلى رجل معين عنده، ويلغز عنهم بحروف يعينها في صميره لمن يره منهم. وربما نظم ذلك في أبيات قليلة كان يتعاهدها، فتوقلت عنه، وولع الناس بها، وحبوها منحة مرموزة. وزاد فيها الحراصون من ذنك اجنس في كل عصر. وشغل العامة بفك رموزها، وهو أمر ممتنع، إذ الرمز إنما يهدي إلى كشفه فنون يعرف قبله، أو يوضع له. وأما مثل هذه الحروف، فدلائها على المراد منها مخصوصة بهذا الناظم.'

فأريت من كلام هذا الرجل الماضل شفاء لما كان في النفس من أمر هذه الملحمة

وما كنا لنهتدي لولا هداانا الله⁽²¹⁰⁾.

ثم وقفت بعد ذلك وأنا بدمشق عند حلولي مع الركاب السلطاني بها سنة اثنين وثمانائة، وأنا على قضاء الملكية بمصر. فوقفت على تاريخ بن كثير في سنة أربع وعشرين وسبعمائة في ترجمة التعريف بهذا الرجل، فقال: 'شمس الدين محمد الباجريقي، يُنسب إليه الفرقة الضالة الباجريقية. ولمشهور عنهم إنكار الصانع. وكان والده جمال الدين عبد الرحيم بن عمر المؤصبي رجلاً صالحاً من علماء الشافعية، ودرس في مدارس بدمشق. ونشأ به هذا بين انفعهاء، فاشتغل قليلاً، ثم أقبل على السلوك. ولازمه جماعة يعتقدون فيه، ممن هو على طريقتة. ثم حكم القاضي بإزاقة دمه، وهرب إلى

١٢١ هـ 4٩٠ من سورة الأعراف (43).

١. 2. انظر البداية والنهاية، بيروت. 1982/1402، ج 14، ص 11٩

لمشرق. ثم أقام البيّنة بالعدو وبينه وبين من شهد عليه، وحكمه الحسبي بحق
دمه، وأقام بالقبول مدة سبعمائة سنة. وتوفي ليلة الأربعاء، سادس عشر ربيع
الآخر سنة أربع وعشرين^١.

وقال ابن كثير: ومن شعر سحرّيق في عظمه الحمر^٢

فاسمع وكن واعب حرفاً وجمه	ولو صف فافهم بفهم الخاذق الفطن
في قصد مصر وما بالشام يحدثه	رب لسموات من خير ومن محن
يبوس يسقى بكأس بعد خمستها	وحاء منم بطيش نام في اللبن
يا ويح دمشق ماذا حل ساحتها	وأخربوا جامعاً لله كيف بني
يا ويه كم عدوا في الدين كم قتلوا	وكم دم سفكوا من عالم ودني
وكم سماع وكم سبي وكم نهيو	وحرّقوا ثم من شاب ومن يعن
ولكون مقتّم والأرجاء مظلمة	حتى حمائمها ناحت على الفنن
يا لبرايا أما للدين منتصر	قوموا إلى الشام من سهل ومن حزن
عرب العراق ومصر والصعيد أئو	وموت الكفر فيها عزم مرتكن

١2.2 مكان قرب دمشق

١٢٣ م عشر على هذا شعر في لمداه وسهاية

الفصل الرابع من الكتاب الأول

في البلدان والأمصار والمدن
وسائر العمران الحضري، وما يعرض في ذلك من الأحوال
وفيه سوابق ولواحق*

* تنهي مخطوطة [أ] عند نهاية الفصل الثالث. ويجب النسخ إلى أد مخطوطة [ب] قد صاع منها عدد من الأوراق ووقع بعض الخلط في ترتيب صفحاتها

[1] في أن الدول أقدم من المدن والأمصار وأنها إنما توجد ثانية عن الملك

وبيانه أن البناء واختطاط المنازل إنما هو من منازع الحضارة التي يدعو إليها
للفرد والدعة، كما قدمناه. وذلك متأخر عن البداوة ومنازعها. وأيضاً فأمم
والأمصار ذات هياكل وأجرام عظيمة وبناء كبير، إذ هي موضوعة للعموم،
لا لخصوص. فتحتاج إلى اجتماع الأيدي وكثرة التعاون، وليس من
الأمور الضرورية للناس التي نعمل بها البلوى حتى يكون نزوعهم إليها شوقياً
واصطورياً. بل لا بد من إكراههم على ذلك وسوقهم إليه مضطهدين بعض
المدن أو مرعبين في الثواب والأجر الذي لا يفي به لكثرة إلا الملك والدولة.
فلا بد في قصير الأمصار واختطاط المدن من الدولة والملك.

ثم إذا بُنيت المدينة وكُلَّ تشييدها بحسب نظر من شيدّها وبما فتضتّه
الأحوال السّماوية والأرضية فيها، فعمّر الدولة حينئذٍ عمرٌ لها. فإن كان أمد
لدولة قصيرٌ وقف الحال فيها عند انتهاء الدولة وتراجع عمرانها وخرّبت.
وإن كان أمد الدولة طويلاً ومدتها منفسحة، فلا تزال المصانع فيها تُشاد،
والمنازل الرحبية تكثر وتتعدّد، ونطاق الأسوار يتباعد وينفّس إلى أن تتسع
خطة وتُعد المسافة ويعبى ذراع المساحة، كما وقع ببغداد وأمّثالها.

* يتساعد إلى لب.

ذكر الخطيب¹ في تاريخه أن الحَمَامَات بلغ عددها ببغداد لعهد للمأمون خمسة وستين ألف حمام. وكانت مشتملة على مدن وأمصار متلاصقة ومتقاربة تُجاوز الأربعين. ولم تكن مدينة واحدة يجمعها سور واحد لإفرط العمران. وكذا حال القيروان، وقرطبة، والمهدية في الملة الإسلامية، وحال مصر² والقاهرة بعدها فيما بلغنا لهذا العهد.

وأما بعد انقراض الدولة المشيدة للمدينة، فإما أن يكون لضواحي نكت المدينة ومقاربها من الجبال والبساتين بادية تمتد العمران دائماً، فيكون ذلك حفظاً لوحدها، ويستمر عمرها بعد الدولة، كما تراه بفاس وبجاية من المغرب، وبغراق العجم من المشرق الموجود لها عمران الجبال لأن أهل لدعوة إذا انتهت أحوالهم إلى غايتها من الرقة والكسب نزعوا إلى الدعة والنسكوب الذي في طبيعة البشر. فينزلون المدن والأمصار ويتأهلون فيها وإما إن لم يكن لتلك المدينة المؤسسة مادة تفيدها العمران بترأف الساكن من سدوه، فيكون انقراض الدولة خرقاً لسياجها، فيزول حفظها ويتناقص عمرها شيئاً فشيئاً إلى أن يبدع سكانها وتخرب، كما وقع في بغداد ومصر والكوفة بالمشرق، والقيروان والمهدية وقلعة ابن حماد بالمغرب وأمثالها فتفهمه

وربما ينزل المدينة بعد انقراض مخنتطها الأولين ملك آخر ودولة ثانية تتخذها قراراً وكرسياً وتستغني بها عن اختطاط المدينة لنزلها. فتحفظ تلك لدولة سياجها، وتزيد مبانيها ومصانعها بتزايد أحوال الدولة الثانية وترفعها. وتستجد بعمرها عمراً آخر، كما وقع بفاس والقاهرة لهذا العهد. فاعتبر ذلك، وافهم سر الله في خليقته.

(1) بريد ولا شئت الخطيب النعدادي، مؤلف تاريخ بغداد انظر طعة القاهرة، 1349/931، ح ٧

ص 7

(2) بريد فسطاط ولا شك

[2] في أن الملك يدعو إلى نزول الأمصار*

وذلك أن القبائل والعصائب إذا حصل لهم الملك اضطروا للاستيلاء على
لأمصار لأمرين : أحدهما ما يدعو إليه الملك من الدعة والراحة وحط الأثقال
واستكمال ما كان ناقصاً من أمور العمران في البدو، والثاني دفع ما يتوقع
على الملك من أمر المنازعين والمشاعيين. لأن المصر الذي يكون في سواحيهم
رعا يكون ملجأ لمن يروم منازعتهم والخروج عليهم وانتزاع ذلك المنك الذي
سموا إليه من أيديهم، فيعتصم بذلك المصر ويغالبهم. ومعالجة المصر على
نهية من الصعوبة والمشقة. والمصر يقوم مقام العساكر المتعددة مما فيه من
الامتناع ونكاية الحرب من وراء الجدران من غير حاجة إلى كبير عدد ولا
عظيم شوكة. والعصاية إنما احتيج إليها في الحرب للثبات بما يقع من نغرة
القوم بعضهم على بعض عند الجولة. وثبات هؤلاء بالجدران، فلا يضطرون
إلى كبير عصاية ولا عدد، فيكون حال هذا المصر ومن يعتصم به من المنازعين
مما يفت في عطف الأمة التي تروم الاستيلاء، ويخضع شوكة استيلائها. فإذا
كنت بين أحيائهم أمصار انتظموها في استيلائهم للأمن من مثل هذا
لانخراهم. وإن لم يكن هنالك مصر استحدثوه ضرورة لتكميل عمرانهم أولاً

* هذا الفصل لم يرد لامي [ب] ولا مي [ج]

وحفظ ثقلهم، وليكون ثانياً شحامي حتى من يروم عِزة والامتناع عنهم من
ظوائهم وعصائهم.

فقد تبين لك أن الملك يدعو إلى نزول لأمصار والاستيلاء عليها. والله
غالب على أمره^٢.

^٢ نه 2: من سورة يه صف 2 .

[3] في أن المدن العظيمة والهياكل المرتفعة إنما يشيدها الملك الكبير

وقد قدمنا ذلك في آثار الدولة من الماني وغيرها، وأنها تكون على نسبتها، وذلك أن تشييد المدن إنما يحصل باجتماع الفعلة وكثرتهم وتعاونهم، فإذا كانت الدولة عظيمة متسعة الممالك حُشِرَ الفعلة من أقطارها، وجمِعت أيديهم على عملها، وربما استعين في ذلك أكثر الأمر بالهندام الذي يضاعف لقوى والقدر في حمل أثقال البناء لعجز القدر البشرية عن ذلك، كما يخال⁴ وغيره، وربما يتوهم كثير من الناس إذا نظر إلى آثار الأقدمين ومصنعهم العظيمة مثل إيوان كسرى وأهرام مصر وحنابا المعنقة⁵ وشرشال بالمغرب، فيتخيل⁶ لهم أجساما تناسب ذلك أعظم من هذه بكثير في أطوالها وعروضها وأقطارها ليناسب بينها وبين القدر التي صدرت تلك المباني عنها ويفغل عن شأن الهندام والميخال، وما اقتضته في ذلك الصناعة الهندسية، وكثير من متقنين في البلاد يعاين من شأن البناء واستعمال الحيل في نقل لأجرام عند أهل الدول المعين بذلك من العجم ما يشهد له بما قلناه عيانا

⁴ المدن يحصل باجتماع الفعلة من أقطارها [ب]

⁵ محال [ب]

⁶ كما يشير إلى ذلك رورنال. يمكن إرجاع كلمة محال إلى كلمة ثيوبانيه mechane أو جهاز

¹⁵ في فوطاحته، قرب تونس.

²⁰ وشرشال، قينخيل [ب].

[4] في أن الهياكل العظيمة جدًا لا تستقل

بينائها الدولة الواحدة

ولسبب في ذلك ما ذكرناه من حاجة النساء إلى التعاون ومصعفة القدر البشرية. وقد تكون المباني في عظمها أكبر من القدر مفردة أو مضاعفة بالهندام كما قلناه، فتحتاج إلى معاونة قدر أخرى مثلها في أزمنة متعاقبة إلى أن تتم. فيبتدئ الأول منهم بالنساء، ويعقبه الثاني والثالث. وكل واحد منهم قد استكمل شأنه في حشر الفعلة وجمع الأيدي، حتى يتم القصد من ذلك، ويقوم مدلاً للبيان يظنه من يراه من الآخرين أنه بناء دولة واحدة. واضطر في ذلك ما نعه المؤرخون في بناء سد مأرب، وأن الذي بناه سبأ س يشجّب، وساق إليه سبعين واديًا، وعاقبه الموت عن إتمامه، فأتمته ملوك حمير من بعده.

ومثل هذا نُقِل في بناء قرطاجنة وفنانها الراكمة على الحيايا لعدية وكثير مبني لعظيمة في الغالب هذا شأنها. ويشهد لذلك أن المباني العظيمة لعهد

بجد ملث لواحد بشرع في تأسيسها وخططها، فإذ لم يتبع أثره من بعده من الملوك في إتمامها بقيت بحالها، ولم يكمل المقصد فيها.

ويشهد لذلك بصد أن خدائراً كثيرة من المادي لعظمة تعجز الدول عن هدمها وتحريقها، مع أن الهدم أسهل من البناء بكثير، لأن الهدم رجوع إلى الأصل الذي هو عدم، والبناء على خلاف الأصل، فإذ وجدنا بناءً تضعف قُدْرُنا البشرية عن هدمه مع سهولة الهدم، علمنا أن القدر التي أسسته مفرطة القوة، وأنها ليست أثر دولة واحدة.

وهذا مثل ما وقع للعرب في إيوان كسرى لما عتزم الرشيد على هدمه وبعث إلى يحيى بن خالد، وهو في محبسه يستشيريه في ذلك، فقال : يا أمير المؤمنين، لا تفعل، واركه مثلاً يُستدل به على عظم ملث آباء الذين سبوا الملث لأهل ذلك الهيكل، فاتهم في النصيحة وقال : أخذته الثعرة للعجم، والله لأضرب عقه، وشرع في هدمه، وجمع الأيدي عليه، واتخذ له الفؤوس، وحماه بالنار، وصب عليه لخر، حتى إذا أدركه العجز بعد ذلك كله وخاف النصيحة، بعث إلى يحيى يستشيريه ثانية في التجافي عن الهدم، فقال : يا أمير المؤمنين، لا تفعل، واستمر على شأنك ليلاً يُقال : عجز أمير المؤمنين ومدك العرب عن هدم مصنع من مصنع العجم، فعرفها الرشيد، وأقصر عن هدمه.

وكذلك اتفق للمؤمنون في هدم الأهرام التي بمصر وجمع لفعلة لهدمها، فلم يحض بطل، وشرعوا في نقبه فأنتهوا إلى جوب بين الحائط لظاهر وما بعده من الحيطان، وهناك كان منتهى هدمهم، وهو إلى اليوم فيما يقال منفذ خدر، ويزعم زاعمون أنه وجد هناك ركز بين تدك حيطان، والله أعلم.

وكذلك حنايا المغلفة بقرطاجنة إلى هذا العهد. يحتاج أهل مدينة تونس إلى استحداث حجارة لنائهم ويستجيد الصانع حجارة تلك الحنايا، وحولون على هدمها الأيام العديدة ولا يسقط الصغير من جذرائها إلا بعد عصب الريق. ويجتمع له المحافل المشهورة. وشهدت منها في أيام صباي كثيرًا والله على كل شيء قدير^(١).

^(١) المغلفة إلى [ب]، [ج]

^(٢) به 20 من سورة الشقرة (2).

[5] فيما يجب مراعاته في أوضاع المدن وما يحدث إذا أغفل عن المراجعة

المدن قرار تتحذره الأمم عند حصول العبة المضبوطة من لتعرف ودوعيه. فتؤثر الدعة ولسكون، وتتوجه إلى اتخاذ المنزل للقرار. ولما كان ذلك لتقرر والمأوى، وجب أن يرعى فيه دفع المضار بالحماية من طوارقها وجب المدفع وتسهيّل المرفق لها.

فأما حماية من المضار، فيراعى لها أن يُدار على منزلها مع سيج الأسور، وأن يكون وضع ذلك في مُمتنع من لأمكنة، إما على هضبة متوغرة من الجبل، وإما باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل إليها إلا بعد لعبور على حسر أو قنطرة، فيصعب مناسها على لعدو، ويتضاعف امتناعها وحصنها.

ومما يراعى ذلك للحماية من الآفات لسمواية طيب الهواء لسلامة من لأمراض. فإن الهواء إذ كن راكداً خبيثاً أو مجاوراً لمياه فاسدة ومسايق متعمنة

هذا المفصل هو في [١] بعد الفصل الخامس. مساجد سودا. بعضه في [٢] بقر، وجب [٣]

و مروح حسة أسرخ إليه العفن من محاورتها، فأسرخ الموص الحبوب أكثر فيه لا محالة. وهذا مشاهد. والمدن التي لم يراع فيها طيب الهواء كبره الأمراض في الغاية. وقد اشتهر بذلك في قطر المغرب مد قابس من بلاد خربد بغيرية. فلا يكاد ساكنها أو طئرفها يخلص من حمى العفن بوجه. ونجد يمال إلى ذلك حادث فيها، ولم تكن كذلك من قبل. ونرى لسكري في سبب حدوثه أنه وقع فيها حفرة ظهر فيها على إباء من بحس محتوم. والمرصص فلما قُض حتامه، صعد منه دخان إلى الجو وانقطع. وكان ذلك بدء مرض الحميات فيه. وأراد بذلك أن الإباء كان مشتتاً على بعض عمد الطنشات لوباته، وأنه ذهب سره بدهابه، فرجع إلى العفن ولوبه. وهذه الحكاية من مذاهب العامة ومناحيهم الترككة. والبكري لم يكن من مدنة لعلم واستنارة البصيرة بحيث يدفع مثل هذا أو يتبين خرقه، فنقه كم سمعه. ولذي يكشف الحق في ذلك أن هذه الأهوية العفنة أكثر ما يهينها لتعفن الأجسام وأمراض الحميات ركودها. فإذا تخللها الريح ونشئت وذهب به يمد وشمالاً خف شأن العفن والموص انتادي منها للحيونات. وليس كذلك كثير السكن. وكثرت حركات اهته، فيتموج الهواء ضرورة، ويحدث لريح متخلل للهواء الراكد. ويكون ذلك معيلاً له على الحركة والتموج. وإذا خف للسكن، لم يجد انهواء معيلاً على حركته وتموجه، وبقي ركذ وعظم عفنه وكثر ضرره. وبلد قابس هذه كانت عند ما كانت إفريقية مستبحرة لعمر ن كثيرة الساكن، تموج بأهلها موحاً. فكان ذلك معيلاً على تموج الهواء، وصرفه وتخفيف الأذى منه، فلم يكن فيها كبير عفن ولا موص. وعندما حب ساكنها ركذ هواؤها المتعفن بفساد مياهها، فكث العفن والموص هذا وجهه، لا غير ذلك.

وقد رأينا عكس ذلك في بلاد وصيغت ولم يرع فيه طيب الهواء، وكانت أولاً قبيحة المساكن، فكانت أمراضها كثيرة، مما كثر ساكنها تنقل حائبا عن ذلك. وهذا مثل در امك بغاس لهذا العهد المسمى ب البلد الجديد^١. وكثير من ذلك في العالم، فتفهّمه تجد ما قلته لك.

وقد ذهب لهذا العهد لقريب فساد الهواء من قيس وزال عنفها لما حاصرها سلطان تونس وقطع الغابة من نخل التي كانت محيطة بها. فانفجر جانب منها، وتوج الهواء المحيط بها وتخلّته الرياح، فذهب منه العفن. والده مصرّف الأمور.

وأما جنب المنفع والمرافق للبدن، فيراعى فيه أمور. منها الماء، وأن يكون لبلد على نهر، أو بيازائها عيون عدبة ثرة. فإن وجود ماء قريب من البدن ميسر على الساكن حاجة الماء، وهي ضرورية، فيكون لهم في وجوده مرفقة عامة. ومما يراعى من مرافق في المدن طيب المراعى لسائمتهم. إذ صاحب كل قرار لا بد له من دواجن الحيوان لستاج والضرع والركوب. ولا بد لها من المراعى. فإذا كان قريبا طيبا كان ذلك رفق لهم مما يعانون من المشقة في بعده. ومما يراعى أيضا المزارع، فإن الزرع هو القوت. فإذا كانت مزارع البدن بانقرب منها كان ذلك أسهل في اتخاذه وقرب في تحصيله.

ومن ذلك الشجر للخطب والبناء. فإن الخطب مما تعم البلوى في اتخاذه لوقود النيران للاصطلاء، وخشب في أيضا ضروري لسقفهم وكثير ما يستعمل فيه الخشب من ضرورتهم.

وقد يراعى فيها أيضا قربها من البحر لتسهيل الحاجات القصية من البلاد للنائية. إلا أن ذلك ليس مثابة الأول.

١٠٠٠ لاصح من حسنة ١٢٧٦/١٢٧٤

١٠٠١ هذه من حسنة ١٢٧٦/١٢٧٤ [ب]

١٠٠٢ ورق [ب]

١٠٠٣ للاصطلاء ويطبخ والخشب [ب]

١٠٠٤ هذا من حسنة ١٢٧٦/١٢٧٤ [ب]

وهذه كلها متفاوتة بتفاوت الحاجة وما تدعو إليه ضرورة الساكن وقد يكون الواضع غافلاً حسن الاختيار الطبيعي، وإنما يراعى ما هو أهم على نفسه أو قومه ولا يذكر حاجة غيرهم، كما فعله العرب لأول الإسلام في المدن التي اختطوها بالعراق والحجاز وإفريقية. فإنهم لم يراعوا فيها إلا لهم عندهم من مراعى الإبل وما يصلح لها من الشجر والماء المنح. ولم يراعوا الماء ولا المزارع ولا الخطب ولا مراعى السائمة من ذوات الطلف، ولا غير ذلك، كالقبروان والكوفة والبصرة وسجلماسة وأمثالها. ولهذا كانت أقرب إلى الخراب لما لم تُراعَ فيها الأمور الطبيعية.

ومما يراعى في البلاد الساحلية التي على البحر أن تكون في جبل أو تكون بين أمة من الأمم موفورة العدد تكون صريحاً للمدينة متى طرّقها طارق من العدو. والسبب في ذلك أن المدينة إذا كانت حاضرة البحر، ولم يكن بساحتها عمران لمقابل أهل العصابات، ولا هو وضعها في مُتَوَكَّر من الجبال، كدت في غُرّة للبيات وسَهْل طروقها في الأساطيل البحرية على عدوها وتحيفه لها لما يضمن وجود الصريخ لها وأن الخضر المتعودين الدعة قد صاروا عيلاً وخرجوا عن حكم المقاتلة. وهذا كالإسكندرية من المشرق، وطرابلس من المغرب، وبوة وسلا. ومتى كانت المقاتل والعصابات موطنين بقربها بحيث يبلغهم الصريخ والتفكير، وكانت متوعدة المسالك على من يرومها باختطاطها في هضاب اجبال وعلى أسنمتها، كان لها بذلك مَنَعَة من العدو ويثبتون من طروقها لما يكودهم من وعرها وما يتوقعونه من إجابة صريخها كما في سبتة وبجاية وبلد القل^٨ على صغرها.

فافهم ذلك واعتبره في اختصاص الإسكندرية باسم الثغر من لدن الدولة لعباسية، مع أن الدعوة كانت من ورائها بئرقة وإفريقية. وإنما اعتُبر في ذلك مخوفة المتوقعة فيها من البحر بسهولة وضعها. ولذلك، والله أعلم، كان طروق العدو للإسكندرية وطرابلس في الملة مرات متعددة.

^٨ ها انتهى الحمله في [ب]

^٩ والبصرة وتاهرت وسجلماسة [ب]

(٨) بلد القل هو الماء تقرب من قسنطينة

وبيت المقدس هو بيت داود وسليمان عليهما السلام. أمرهما الله ببناء مسجده ورُصِبَ هناك ولِدُن كثير من الأنبياء من ولد إسحق عليه السلام. حواله المدينة مهاجر نبينا صلوات الله عليه، أمره الله بالهجرة إليها وإقامة دين الإسلام بها ومنها. فبنى مسجده الحرام بها، وكان ملحده الشريف في ترتيبه. فهذه المساجد الثلاثة قرة عين المسلمين ومهوى أفئدتهم وعصمة دينهم. وفي لأن من فضلها ومضاعفة الثواب في محاورتها والصلاة فيها كثير معروف، فلنشر إلى شيء من الخبر عن أولية هذه المساجد الثلاثة وكيف تدرجت أحوالها إلى أن كمل ظهورها في العالم.

[مكة]

قام مكة، فأوليتها فيما يُقال أن آدم صنوات الله عليه بنها قبالة البيت المعمور، ثم هدمها الطوفان بعد ذلك. وليس فيه خبر صحيح يُعَوَّل عليه. وبما اقتبسوه من محتمل الآية في قوله تعالى: "وإذا يرفع إبراهيم لقواعد من البيت". ثم بعث الله إبراهيم، وكان من شأنه وشأن زوجته سارة وغيرتيه من هاجر ما هو معروف. وأوحى الله إليه أن يفارق هاجر ويغربها مع ابنتها سماعيل بنى فاران، وهي جبال مكة عما وراء الشام وبلد أئمة، فأخرجها إلى هناك ولحقها بكان البيت، وأدركها العطش. وكثف الله لهما من اللطف في نبع ماء من زمزم ومرور الرفقة من جرهم بهما حتى احتملوهما وسكنوا إليهما وتزلفوا معهما حوالي زمزم، كما عرف في موضعه. فاتخذ إسماعيل بموضع الكعبة بيتاً يأوي إليه وأدار عليه سياجاً من اندوم وحجبه ررنا غنمه

ودفن سائر الأنبياء من ولد إسحاق عليه السلام فيه وحواله. [ب]

١٤ فكسب هذه المساجد [ب]

١٥ عود بها كثير [ب]

نص ينقطع حول مكة في [ب] حذف كثيرا عن النص الذي يرد في المخطوطات الأخرى. نص

نصه. حاصه للمقدمة. ح ٩، ص ٧١

(١١) الآية ٤ من سورة تصور (٥٢)

(١٢) آية ١٢ من سورة البقرة (١٢)

ثم أصاب البيت سبيل في ولايتهم، ويقال حريق، وتهدم. فأعادوا بابه، وجمعوا النفقة لذلك من أموالهم. وانكسرت سفينة بساحل حَذَّة، فاشتروا حشها لسقف. وكانت جدرانها فوق القامة، وجعلوها ثمانية عشر ذراعاً وكان لباب لاصقاً بالأرض، فجعلوه فوق القامة ليلاً نُدحه السيول وقصرت بهم النفقة عن إتمامه، فقَصَّروا من قواعده وتركوا منه ستة أدرع وشبراً أداروها بجدار قصير يُطاف من ورائه، وهو الحِجْر. وبقي البيت على هذا البناء إلى أن تحصَّن ابن الزبير بمكة حين دعا لنفسه وزحف إلى جيوش يزيد بن معاوية مع الخُصَّين بن نُمير السَّكُوني ستة أربع وستين. فأصابه حريق، يقال من اللفظ الذي رمَوْا به على ابن الزبير، فتصدَّعت حيطانه. فهدمه ابن الزبير وأعاد بناءه أحسن ما كان، بعد أن اختلف عليه الصحابة في بنائه. واحتج عليهم بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة: 'لو لا قومك حديثوا عهد بكفر لرددت البيت على قواعد إبراهيم، ولجعت له ببيتين، شرقياً وغربيّاً' (١). فهدمه، وكشف عن أساس إبراهيم عليه السلام، وجمع الوجوه والأكابر حتى عاينوه، وأشار عليه ابن عباس بالتحري في حفظ القبلة على الناس. فأدار على الأساس الخشب، ونصب من فوقها لستور حفظاً للقبلة. وبعث إلى صنَّعاء في القصَّة والكلس، فجلبها. وسأل عن مقطع الحجارة الأول فجمع منها ما احتاج إليه ثم شرع في البناء على أساس إبراهيم عليه السلام، ورفع جدرانها سبعاً وعشرين ذراعاً، وجعل لها بيتين لاصقين بالأرض كما رُوي في حديثه. وجعل فرشها وزرّها بالرخم، وصاغ لها المفاتيح وصفائح الأبواب من الذهب.

ثم حاص الحجاج لحصاره أيام عبد الملك، ورمى على المسجد بالمجنقات، حتى أن تصدعت حيطانه. ثم لما ظفر بابن الزبير شاور عبد الملك فيما ساء وراده في البيت، فأمره بهدمه ورد البيت على قواعد قريش كما هي اليوم ويقال إنه ندم على ذلك حين علم صحة رواية ابن الزبير لحديث عائشة.

(١٥) نظر صحيح البخاري، ج ١، ص ٤٥، ٤٠٠؛ ج ٣، ص ١٩٧ وما بعده.

وقال ووددت بي كبت حمت يا حبيب من أمر البيت ما تحسن هذه
الحجج منها ستة أدرع وشيئا مكان الحجر، وبناء على أساس قرنتس. وسر
البيت على وما تحت عتبة الباب اليوم من اسب اسير في ورت سدره ثم
يعبر منه شيت وكس بناء فيها اليوم بناء ابن الزبير، وبين سنة وب، حجج في
الحائط صنة صخرة للعيان، لحمة من البناءين، ولبناء مثبتر عن بناء مقدر
صنيع شبه نصير وقد حُف.

ويعرض هذا إشكال قوي منقذته، يقوله الفقهاء في أمر الطوف وتحرر
الطائف أن يميل على الشاذروان الذي ثرباس جدر من أسفها، فيقع طوفه
دخل البيت بناء على أن الجدر إنما قام على بعض الأساس وترك بعضه، وهو
مكون للشاذروان، وكذا قالوا في تقبيل حجر الأسود، لا بد من رجوع
الطائف من التقبيل حتى يستوي قائمًا، لئلا يقع بعض طوفه داخل البيت.

وإذا كانت الحدران كلها من بناء ابن الزبير، وهو إنما بنى على أساس
إبراهيم، فكيف يقع هذا الذي قالوه؟ ولا مخصص من ذلك إلا بأحد أمرين:
إما أن يكون الحجج هدمه جميعه وأعاده، وقد نقل ذلك جماعة، إلا أن العيد
في شوهد البناء بالتحام ما بين البناءين وثبتر أحد الشقين من أعلاه عن
الأخر في الصنعة يرد ذلك. وإما أن يكون ابن الزبير لم يرد لبيت على أساس
إبراهيم من جميع جهاته، وإنما فعل ذلك في الحجر فقط ليدخله، فهي لأن مع
كونه من بناء ابن الزبير ليست على قواعده إبراهيم. وهذا بعيد، ولا مخصص
عن هذين، والله أعلم.

ثم إن ساحة البيت، وهو المسجد، كان فضاء للطائفتين. ولم يكن عليه
حدر أيام النبي صلى الله عليه وسلم وبني بكر من بعده. ثم كثر الناس،
وشرى عمر دورًا هدمها ودها في مسجد، ودار عليه جدارًا دون القائمة.
وفعل مثل ذلك عثمان، ثم بنى الزبير، ثم أبو بكر بن عبد الله، وسه بعد.
رحم، ثم راد فيه المصور وسه لمهدي من بعده ووقفت البردة، وسنتر
على ذلك العهد.

ونشريف الله لهذا البيت وعنايته أعظم من أن يحاط به. وكفى من دنس جعله مهبطاً للوحي والملائكة ومكاناً للعبادة، وفرض فيه شعائر حج ومسك، وأوجب لحرمه من سائر نواحيه من حقوق التعظيم، ولحق ما له روحه نعبه، فمنع كل من خالف دين الإسلام من دخول دنس الحرم، وأوجب على داخله أن يتجرد من المخيط إلا إزاراً يستره، وحمى لعائده وترتفع في مساره من مواقع الآفات. فلا يراعى فيه خائف، ولا يصد له وحش، ولا يختصب له شجر.

وحد الحرم الذي يختص بهذه الحرم من طريق اندبية ثلاثة أميال إلى الثقيف، ومن طريق العراق سعة أميال إلى ثنية جبل المنقّص، ومن طريق بقرنة تسعة أميال إلى الشعب، ومن طريق جدة عشرة أميال إلى منقّص العشر.

هذا شأن مكة وخبرها. وتسمى "أم القرى"^١. وتسمى الكعبة لعلوها، من سم الكعب. ويقال لها أيضاً "بكة" قال الأصمعي: "لأن الدس يبت بعضهم بعضاً إليها، أي يدفع. وقال مجاهد: إنما هي باء بكة أندوه ميم، كما قالوا لازم ولازب، لقرب المخرجين". وقال النخعي: "بل بالباء للبيت، وبالميم لبس". وقال الزهري: "بأنباء للمسجد كله، وبالميم للحرم".

وقد كانت الأمم منذ عهد الجاهلية تعظمه والملوك تبعث إليه بالأموال ولذخائر، ككسرى وغيره. وقصة الأسياف وعزالي الذهب التي وجدها عند المطلب حين احتقر زمزم معروفة.

وقد وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين افتتح مكة في حجب لذي كان فيها سبعين ألف أوقية من الذهب مما كان الملوك تهدي إلى البيت، قيمتها ألفاً ألف دينار. اثنان مكررة مرتين، بمائتي قطار وزناً. وقال له عيسى بن أبي ذؤيب: يا رسول الله، لو استعنت بهذا المال على حربك، سم يعين ثم ذكر

١ - نسخة ٩٢ من سورة الأنعام ٦، وأية ٧ من سورة الشورى (٤٢)

لأنني بكر، فلم يحركه هكذا قل الأرقبي^{١٧} وفي البحاري سنده إلى أبي
وائل، قل : حسنت إلى شيبه بن عثمان، وقل جلس إلى عمر بن الخطاب
فقال . هممت أن لا أدع فيها صفراء ولا بيضاء إلا قسمتها بين المسلمين
قت ما أنت بماعل قل : فليمة ؟ قت . لم يفعل صاحبك قل . هما المرأة
يقتدي بهما^{١٨} . وخرجه أبو داود وابن ماجة .

وأقدم ذلك المال إلى أن كانت فتنة الأفضس، وهو الحسن بن الحسين بن
عبي بن عبي رين العائدين سنة تسع وتسعين ومائة، حين عب على مكة عمدة
إلى الكعبة فأخذ ما في خزائنها وقال : ما نصنع الكعبة بهذا المال موضوعاً
فيها ولا يُنتفع به ؟ نحن أحق به لستعين به على حربنا وخرجه وتصرف
فيه، وبطلت الدخيرة من الكعبة من يومئذ .

[بيت المقدس]

وأما بيت المقدس، وهو المسجد الأقصى^{١٩}، فكان أول أمره أيام الصديقة
موصلاً لهيكل الزهرة وكانوا يقربون إليه الزيت فيما يقربونه، ويصنونه على
لصخرة التي هنالك، ثم دثر ذلك الهيكل، واتخذ بنو إسرائيل حين ملكوها
قبلة فصوتهم وذلك أن موسى صلوات الله عليه لما خرج بني إسرائيل من
مصر ليمنكنهم بيت المقدس كما وعد الله أناسهم إسرائيل وآباءه إسحق
ويعقوب^{٢٠} من قبله وأقاموا برص لئيه، أمره الله باتحاد قبة من خشب

١٧. نظر محمد بن عبد الله الأرقبي، أخبار مكة، طبعة

F. Wusente, Die Chroniken der Stadt Mekka Leipzig, 1855 I 12, et suiv.

١٨. نظر صحيح لبحاري، ج ١، ص 403، ح ١، ص 420، وسنن أبي داود، ج ٢، ص 167، وسنن
ابن ماجة، ج ٢، ص 40، و

A Handbook of Early Muhammadan Tradition p 20 b

* سنده مع بعض [ب] بني يحنف كثير عن بعض بني يرد، نظر لطيفة حواصه لمقدمة،
ج ٩، ص ٢١

١٩. حسب ماجة في بعض، به ١ من سورة البقرة، ١٧

٢٠. سنن يرد

ولا يعرض لك الإشكال المعروف في الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم سُئِلَ عن أول بيت وُضِعَ فقال : "مكة". فقيل : "ثم أي ؟" قل : بيت المقدس . قيل : "فكم بينهما ؟" قال : "أربعون سنة"^{٢٩} . فإن المدة بين بناء مكة وبناء بيت المقدس بمقدار ما بين إبراهيم وسليمان . لأن سليمان بنى فيها . وهو ينيف على الألف بكثير . واعلم أن المراد بالوضع في الحديث ليس البناء ، والمراد إنما أول بيت عُيِّنَ للعبادة . ولا يُعَدُّ أن يكون بيت المقدس عُيِّنَ للعبادة قبل سليمان بمثل هذه المدة ، وقد نُقِلَ أن الصائبة بنوا على الصخرة هيكل الزُّهرة ، فلعل ذلك لأنها كانت مكاناً للعبادة ، كما كانت أجاهلية تضع الأصنام وتُتمائيل حول الكعبة وفي جوفها . والصائبة الذين بنوا هيكل الزهرة كانوا على عهد إبراهيم عليه السلام . فلا تبعد مدة الأربعين سنة بين وضع مكة للعبادة ووضع بيت المقدس ، وإن لم يكن هناك بناء . كما هو المعروف ، وأن أول من بنى بيت المقدس سليمان عليه السلام . فتفهّمه ، ومبه حل هذا الإشكال .

[المدينة]

وَمَا المدينة ، وهي المسماة يَثْرِبَ ، فهي من بناء يثرب بن مهلائل . من العمالقة . وبه سُمِّيَتْ . وملكها بنو إسرائيل من أيديهم فيما ملكوه من أرض الحجاز . ثم جاورهم أبناء قَيْلَةَ ، من عَسَّانَ ، وغلبوهم عليها وعلى حصونها . ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالهجرة إليها لما سبق من عناية الله لها . فهاجر إليها ومعه أبو بكر ، وتبعه أصحابه . ونزل بها ، وبنى مسجده وبيوته في الموضع الذي كان الله قد أعدّه لذلك وشرّفه في سابق أزله . وأوَّاه أبناء قَيْلَةَ ونصروه^{٣٠} ، وبذلك سُمُّوا الأنصار . وتمت كنمة الإسلام من المدينة حتى عت

^{٢٩} غفرة بني تبتدي من هنا لم ترد في [ح]

^{٢٩} 29، نظر 140، *A Handbook of Early Muhammadan Tradition*, p. 140

^{٣٠} وأو ، أنصار ونصروه [ب]

الشيء صلي . لله عليه وسلم بهدمها في عزوانته . وقد ذكر المسعودي منها
 بيوتاً تسماً من دكرها في شيء . إدهي غير مشروعة . ولا هي على طريق ديني .
 فلا يُستفْتُ إليها ولا إلى أخبر عنها . ويكفي في ذلك ما وقع في التاريخ . فمن
 أراد معرفة الأخبار فعليه بها .
 والله يهدي من يشاء^١ .

^١ "هذا تنتهي حصة في [ـ]"

² "مر مروج الذهب" ج ٢ . ص 378-379 .

³ "ج ٢٠ و ٢١ من مبردة مشرق" ١٢١

[71] في أن الأمصار والمدن بإفريقية

والمغرب قليلة

والسبب في ذلك أن هذه الأقطار كانت تُبْرِبر منذ آلاف السنين قبل الإسلام، وكان عمرانها كله بدويًا، ولم تستمر فيهم الحصاره حتى تستكمل أحواضها، والندول التي منكتهم من الأفريقية والعرب لم يضل أمد مكهم فيهم حتى ترسخ الحصاره منها، فلم تزل عوائد البداوة وشؤونها، فكانوا بها أقب، فلم تكثر مباهم.

وبص، والصنائع بعيدة عن البربر لأنهم أعرق في البدو وانصنع من تواع الحضرة، وإنما تتم المباني بها، فلا بد من الخدق في نعمهم، ولما لم يكن لبربر نتحاك نهائم يكن لهم تشوف إلى المباني فصلاً عن المدن.

وأيضاً فهم أهل عصبية وأنساب لا يخلو عن ذلك جمع منهم، والأنساب والعصبية أحنح إلى البدو، وإنما يدعو إلى المدن الدعة ونسكون، ويصير ساكنها عيالاً على حاميتها، فتجد أهل البدو لذلك يستنكفون من سكى لمدينة أو المقامة بها، ولا يدعوهم لذلك إلا الترف والغنى، وقيل م هو في الناس.

فلذلك كان عمران إفريقية والمغرب كنه، أو أكثره سدويًا، أهل حيام
وصواعن وقيطن وكبس في الحجاز وكان عمره بلاد العجم كنه أو أكثره قرى
ومصرا ورستيق في بلاد الأندلس ولشام ومصر وعراق لعجم وأمثالها.
لأن لعجم في الغالب ليسوا بأهل نسب يحفظون عليها ويتناحرون في
صرحتها والتحامها إلا في الأقرب. وأكثر ما يكون سكنى البدو لأهل الأنساب،
لأن لحمة النسب أقرب وأشد، فتكون عصبته كذلك، وتنزع بصاحبها إلى
سكنى البدو والتجافي عن المصر لذي يذهب بالبسالة ويصير عيالاً على
غيره، فافهمه وقس عليه.

[8] في أن المباني والمصانع في الملة الإسلامية قليلة بالنسبة إلى قدرتها ومن كان قبلها من الدول

وانسب في ذلك ما ذكرنا مثله في البربر بعينه، إذ العرب أيضًا أعرق في البدو وأبعد عن الصنائع .
ويُضَفُّ فكانوا أجانب من الممالك التي استولوا عليها قبل الإسلام . ولم تُسَكَّوها لم يفسح الأمر حتى تُستَوْفَى رسوم الخضارة . مع أنهم استغنوا بما وجدوا من مباني غيرهم .
وأيضًا فكان الذين أول الأمر مانعًا من المغلاة في البناء والإسراف فيه في غير المقصد، كما عهد لهم عمر حينما استأذنوه في بناء الكوفة بالحجارة، وقد وقع الحريق في القصب الذي كانوا بنوا به من قبل . فقال : "أفعلوا، ولا يزيدن أحد على ثلاثة أبيات . ولا تطاولوا في البنيان، والزموا السنة تلزمكم الدولة . وعهد إلى الوفد، وتقَدَّم إلى الناس ألا يرفعوا بيئاتًا فوق القدر . قنوا . وما القدر؟" قال : "لا يُقَرِّبكم من السَّرَف، ولا يُخرِجكم عن نقصد .

^١ في أهل الإسلام [ب]

^٢ مَكَّوها [ب]

فما بعد العهد القديم واستخرج في مثل هذه المصادر، وعنت صيغة
 منك ولتurf، وستخدم لعرب أمة لفرس وأخذو عنهم لصناعات ومناحي
 ودعتهم إليها حول الدعة ولتurf، وحينئذ شيدوا المباني ومصنع، وكان
 عهد ذلك قريبات من لدولة، ولم يفسح الأمد لكثرة البناء واختصاص مدن
 والأمصير لا قبلا، وبس كذلك عبرهم من الأمم، ولفرس صلت مدتهم لأف
 السنين، وكذلك القبط والنسط ولروم، وكذلك لعرب لأولى من عدد وثمود
 ولعائلة ولتبيعة طلت أمدهم ورسخت لمنتجات فيهم فكانت مدتهم و
 هياكلهم أكثر عدد وأبقى على الأيام أثر.

و استبصر في هذا تجده كما قلت لك. وله ورث الأرض ومن عبيد

[9] في أد المباني التي تختطها العرب يسرع إليها
الخراب إلا في الأقل

ولسبب في ذلك شأن الدأوة والبعد عن الصنائع ، كما قدمته ، فلا تكون
المدني وثيقة في تشييدها . وله ، والله أعلم وجه آخر ، وهو أنسأ به ، ودث قلة
مرعائهم لحسن الاختيار في اختفاظ المدن ، كما قلناه ، من مكان وطيب
الهواء والمياه والخزاع والمراعي . فإن التباوت في هذه تتفاوت حودة لمصر
أورداءته من حيث العمران الطبيعي . والعرب بمعزل عن هذا ، وإنما يرعون
مراعيهم خاصة ، لا يباون بالماء . طاب أم خبث . ولا قل أم كثر . ولا
يسألون عن زكي المزرع والمنابت والأهوية لانتقالهم في الأرض ونقبتهم
الخبوب من البلد البعيد . وأما الرياح ، فالتقفر مختلف للمهاج كنه ، والطعن
كفيل لهم بطيها . لأن الرياح إنما تخبث مع القرار والسكى وكثرة الفضلات .
ونظرا لما اختطوا الكوفة والبصرة والقيروان كيف لم يراعوا في اختطاطها
. لا مراعي انهم وما يقرب من القفر ومسالك الضعف فكانت بعيدة عن

بوضع طبیعی للمسنن، ولم تكن لها مادة تمد عمرها من بعدهم، كما قدسنا
أنه يحتاج إليه في حفظ العمران فقد كانت موصلة غير طبيعية لتقارير، ولم
تكن في وسط أعمق في عمرها المسنن فالأول وهمة من انحلال أمرهم ودهاب
عصبتهم التي كانت سببا حالها التي عيبها خرب و الانحلال. كأن لم تكن
والله يحكمهم، لا معقب لحكمهم".

هـ سبب حمله في [ب]

٢٠ ٤ من سورة نوح ١٥

[10] في مبادئ الخراب في الأمصار

أعلم أن الأمصار إذا احتطت أولاً تكون قليلة المساكن وقليلة آلات البناء من الحجر والكلس وغيرهما مما يُعَالَى على الحيطان عند التائق، كالزليج والرخام والنسيفساء والسَّجَّج والصدف والزجاج. فيكون بناؤها يومئذ بدويًا وآلاتها فاسدة

فإذا عظم عمران المدينة وكثر ساكنها كثرت آلاتها بكثرة الأعمار حينئذ وكثرة لصناع إلى أن تلغ غايتها من ذلك. كما سبق في شأنها. فإذا تراجع عمرها وقلَّ ساكنها قلت الصنائع لأجل ذلك. ففقدت الإجابة في البناء والإحكام والمعالجة عليه بالتنميق. ثم تقل الأعمار لعدم الساكن، فيقل جب الآلات من الحجر والرخام وغيرهما، فتفقد. ويصير بناؤهم وتشيدهم من الآلات التي في مبانيهم يتقنونها من مصنع إلى مصنع لأجل خلاء أكثر امصانع والقصور والمنازل لقلة العمران وقصوره عما كان أولاً ثم لا تزال

* نونية (ب)

تُفعل من مصر إلى قصر. ومن د، إلى د، ي، اب تُفعل الكثير منها حمه
 فيعودون إلى الدابة في ماء و اتحاد اصوات عوصا من حجازة و نقصو
 عن السبق الكية فيعود ماء نسبة مثال ماء لفرى و لداشر، و يطهر عنها
 سيما ندوة ثم تمر في سدس هي عايتها في حرب ب، قدر لها، سنة
 انه في حقه.

[11] في أن تفاضل الأمصار والمدن في كثرة الرزق ونساق
الأسواق إنما هو بتفاضل عمرانها في الكثرة والفقدة

والسبب في ذلك أنه قد عُرِفَ وَبِتَ أن الواحد من البشر غير مستغن
تتحصيل حاجاته في معاشه، وأنهم متعاونون جميعاً في عمرانهم على ذلك.
والحاجة التي تحصل بتعاون طائفة منهم تسد ضرورة الأكثر من عددهم
أضعاف. فنقوت من الحنطة مثلاً لا يستقل الواحد بتحصيل حصته منه. وإذا
انندب لتحصيله الستة أو العشرة من حداد، ونجار للآلات، وقائم على لبقر
وإشارة لأرض، وحصاد للسنبيل وسائر مؤن الفلح، وتورعو على تدث
الأعمال. واجتمعوا رحصل بعينهم ذلك مقداراً من النقوت، فإنه حينئذ قوت
لأضعافهم مرات. فالأعمال بعد الاجتماع رائدة على حاجات العمدين
وضرورتهم وأهل مدينة أو مصر. إذا وُزَّعَتْ عندهم أعمالهم كلها على
مقدار ضرورتهم وحاجاتهم اكتفي فيها بالأقل من تلك الأعمال. وبقيت
لأعمال كلها زائدة على الضرورات، فتُصَرَفُ في حالات الشرف وعونه
وم يحتج إليه غيرهم من أهل الأمصار ويستجلبونه منهم بأعواضه وقيمتها
فيكون لهم بذلك حظ من العنى.

ومتى عصم الحجر والجرح تسعت أحوال أسكن ووسع المصير كى شيء
يبدعك من هذا فلا تكه . واعتبره بكثره العمر . وما يكون عنه من كثرة

المكاسب اني يسهر بسبب الليل ولأيتى على متعبه

ومثله شأن الحيوات نعجم مع نوب المدينة الواحدة، وكيف تختلف
أحوالها في حجر بها أو عشيتها فإن بنوت أهل نعمه لثرة والموائد
خصبة منها بكثر ساحتها وقبتها خير أحوال وسو فقط نفدت، فتزدحم
عبيب عو شي لمل و خشاش. وتكثر في أسرارها حردن ونوى إليها
المسير وتحقق فوقها عصائب الطيور حتى تروح طار وتقتل شغل
وبنوت أهل حصاصة يفرر لكسده رزقهم لا يسري ساحتها ديب ولا
يحقق بحوه طار ولا يوى إلى أسرار بيوتها ورة ولا هرة كما قال

يسقط الصير حيث ينفط احب ويعشي مدار الكرماء

فتأمل سر له في ذلك، واعتبر عاشية لأسى بعشية المعجم من
الحيوانات، وفترات الموائد بفصائل الرزق واترف وسهمتها على من يندىها
لاستعائهم عنها في الأكثر بوحود أمثالها لديهم واعلم بان اتسع لأحوال
وكثره نعمه في العمران مع لكثرتة

والله عني عن العالمين

وخشاش، وتحقق فومها وبكثرات

في برعده عيب في رب

في هذا السبب على بشر من برعده من نفسه، عيون لأحدا، لعمدة، 39 40 127

ح . ص ٧

لأحوال تابع لكثرتة [ب]

[12] في أسعار المدن

اعلم أن لأسواق كلها شتمل على حجاب ليس فيها الضروري، وهم الأقوات، من الحنطة ولشعير وم في معاهم كالفلاء و حمص وحبان وسائر حبوب الأقوات، ومصحاتها كنصل وشموم وأشده ومها حنحي والكمانى من لأدم، واسم كه، واللاس، والمعوب، والمركب، وسائر الصنائع والماني إداد ستحر مصر وكثر سكه، رخصت أسعار لضروري من الأقوات وم في معده، وعب أسعار لكمانى من لأدم ونحو كه وم ينعه، وإدا قل سكر المصر وضعف عمره، كان الامر بالعكس من ذلك.

والسبب في ذلك أن الحبوب من ضرورات الأقوات، فنوفر لدواعي على اتحادها، إدا كل أحد لا يهتم بوقت نفسه ولأقوات منزله شهرة أو مسه فيعم اتحادهم أهل مصر أجمع أو لأكثر منهم في ذلك مصر أو فيما قرب منه، لا بد من ذلك وكن متحذلقته فتفضل عنه وعن أهل بيته فسه كبيرة نسد حدة كثيرين من أهل ذلك مصر فتفضل لأقوات عن أهل مصر من غير

* لحطة وما في معاهم كالفلاء واسفل [ب]، [ج]

[13] في قصور أهل البادية عن سكنى امصر
الكثير العمران

والسبب في ذلك أن المصير لكثير عمران يكثر فيه، ثم قدمناه، وتكثر
حاجات ساكنيه من أجل ليرف وتعدد تلك الحاجات لما تدعو إليها فتتقرب
صروف وتقصير الأعمار فيه كلها مع ذلك عزيزة، المرافق عالية مردح
لاعرص عندها من أجل ليرف، والمعارف السطحية شني نوصع على
الأسواق والبياع، وتعتبر في قيم سبعاب، وتعظم فيها العللاء في المرافق
والأفوات والأعمار فكثير نذلك بقاء ساكنيه كثرة نالعه على ستة عمران.
ويعظم حرجه، فبفتح حبيش إلى مال الكثير لمتقعه على نفسه وعياله
وضرورات عيشهم وسائر مؤنهم

والله وي لم يكن دحجه كثيراً، إذ كان ساكنها مكان كاسد الأسوق هي
الأعمار التي هي سبب المكسب، فلم يتأثر كسباً ولا مالاً فيتعذر عليه من
أجل ذلك سكنى المصير لكثير لأجل مرافقه وعزّة حاجته وهو في بدوه يسند

حنّته راقب الأعمار، لأنه قبيح عوائد استترف في معاشه وسائر مؤنه، فلا يصطر
 إلى المال وكل ما يتشوّف إلى المصير وسكبه من أهل لدنية مسريعاً ما يظهر
 عزّزه ويفتصح، إلا من تقدم منهم تأثيل المال ويحصل له فوق الحاجة،
 ويحري إلى اعادة الطبعه لأهل العمران من لدعة وتترف فحينئذ ينقل
 إلى المصير وينظم حله
 وانه بكن شئى محيط.

ويفصح في أسطوره [ب]
 " تأني [ب]

[14] في أن الأقطار في اختلاف أحوالها بالرفه والفقير مثل الأمصار

علم أن ما توفرَّ عمرانه من الأقطار وتعددت الأمم في جهاته وكثر ساكنه اتسعت أحوال أهله وكثرت أموالهم وأمصارهم وعظمت دولتهم وممالكهم. والسبب في ذلك كله ما ذكرناه من كثرة الأعمال وما سيأتي ذكره من أنها سبب للثروة بما يفضل عنها بعد الوفاء بالضروريات في حاجات الساكن من الفضلة البالغة على مقدار العمران وكثرته. فيعود على الناس كسباً يتأثّلونه، حسبما نذكر ذلك في فصل المعاش وبيان الرزق والكسب³³. فيتزيد الرفه لذلك، وتتسع الأحوال، ويحيى الترف والغنى، وتكثر الجباية للدولة بنفق الأسواق. فيكثر مالها ويشمخ سلطانها وتتفنن في اتخاذ المعقل والحصون وختطط المدن وتشيد الأمصار.

وعتبر ذلك بأقطار المشرق، مثل مصر والشام وعراق العجم والهند والصين وناحية لشمال كمها وأقطارها وراء نبحر الرومي، لما كثر عمرانه كيف كثر المال فيهم وعظمت دولهم وتعددت مدنهم وحواضرهم وعظمت من حرمهم وأحوالهم فاسدي شاهده لهذا لعهد من حور تحار لأهم

33 مصر ص 247، 248، 249

النصرانية الوارد بن على المسلمين بالمغرب في ردهم واتساع أحوالهم أكثر من أن يحيطه الوصف. وكذا تآمر أهل المشرق وما يبلغنا عن أحوالهم وجمع منها أحوال أهل المشرق الأقصى، من عراق النجف والهند والصين وما يبعث عنهم في باب العنى والرفق أحوال غرائب سائر الركاب حديثها. وربما تنقى بالإكثار في غائب الأمر. ويحسب من يسمعها من العامة أن ذلك لزيادة في أموالهم ولأن المعادن الذهبية والفضية أكثر بأرضهم، أو لأن ذهب الأقدمين من الأمم استأثروا بها دون غيرهم. وليس كذلك. فمعدن نذهب لذي نعرفه في هذه الأقطار إنما هو ببلاد السودان، وهي إلى المغرب أقرب. وجميع ما في أرضهم من البضاعة. وإنما يجلبونه إلى غير بلادهم لتجارة. فهو كان المال عتيقاً، موفوراً، لديهم ما جلبوا صائغهم إلى سواهم يبتغون بها لأموال. ولا استغنوا عن أموال الناس بالجملة.

وقد ذهب المنجمون لما رأوا مثل ذلك واستعربوا ما في المشرق من كثرة لأحوال واتساعها ووفور أموالها، فقالوا إن عطايا الكواكب ولها سهم في مواليدها أهل المشرق أكثر منها حصصاً في مواليدها أهل المغرب وذلك صحيح من جهة مطابقة بين الأحكام النجومية والأحوال الأرضية، كما قلناه. وهم إنما عطفوا في ذلك السبب النجمي، وبقي عليهم أن يعطوا السبب لأرضي. وهو ما ذكرناه من كثرة العمران واختصاصه بأرض المشرق وأقطاره. وكثرة العمران تزيد كثرة الكسب بكثرة الأعمال التي هي سببه. فلذلك اختص المشرق بالرفق من بين الأفاق. لا أن ذلك مجرد الأثر النجمي فقد فهمت بما شرب له أولاً أنه لا يستقل بذلك. وأن المطابقة بين حكمه وعمران الأرض وصيغتها أمر لا بد منه.

وغير حال هذا البرقة من العمران في قطر إفريقية وبرقة ما حث سكونها وتدفق عمرانها كيف تلاشت أحوال أهلها وانتهوا إلى العمران وخصاصة

وصعدت حديثها. ففتت أموال دولها بعد أن كانت دول نشيعة وصباحة بها على ما بلغت من رفعة وكثرة اجبيات واتسع لأحوال في نعماتهم وعظمتهم حتى لقد كانت الأموال ترفع من مقروور إلى صاحب مصر في علب الأقداح حباته ومهمته وكانت مصر مدونة بحيث حمل حوهر الكاس في سمره إلى فتح مصر ثم حمل من ما يستعده لأروق الخنود وأعصيتهم ونفقت لغرة. وقطر المعرب، وإن كان في القديم دون إفريقية، فسم يكن بالقبيل في ذلك. وكانت "حوله في دول الموحدين متسعة وحبيته موفورة. وهو لهذا لعهد قد قصر عن ذلك لقصور لعمران فيه وتناقصه. فقد ذهب من عمران البربر فيه أكثره، ونقص عن معهوده نقصاً ظهراً محسوساً، وكاد أن ينحرق في أحواله مثل أحوال إفريقية بعد أن كان عمرانه متصلاً من البحر الرومي إلى بلاد السودان في طول ما بين لسوس الأقصى وبرقة، وهي اليوم كنها وأكثرها قفار وخلاء وصحاري، إلا ما هو منها بسيف البحر وما يقاربه من التلول.

والله و. رث لأرض ومن عليها، وهو خير وارثين.

[15] في تأثّل العقار والضياح في الأمصار

وحال فوائدها ومستغلاتها

أعني أن تأثّل العقار والضياح الكثيرة لأهل المدن والأمصار لا يكون دفعة، ولا في عصر واحد. إذ ليس يكون لأحد منهم من الثروة ما يمدّ به الأملاك التي يخرج فيها عن الحد ولو بلغت أحوالهم في الرفه ما عسى أن تسع. وإنما يكون سكّهم لها وتأثّلهم تدريجاً، إما بالوراثة من أبائه وذوي رحمه، حتى تتأدّى أملاك الكثيرين منهم إلى الواحد وأكثر لذلك أو يكون بحوالة الأسواق، فإن العقار في أواخر الدولة وأول الأخرى عند فناء الحماية وخرق لسياج وتدعى المصّر إلى الخراب، تقلّ العضة به لقلّة المنفعة فيها بتلاشي الأحوال، فترخص فيها وتتملك بالأثمان اليسيرة، وتتخضّ بالميراث إلى ملك الآخر وقد استجدّ المصّر شأنه باستمحال الدولة الثانية وانتظمت له أحوال حسنة تحصل معها الغبطة في العقار والضياح لكثرة منافعها حينئذ، فتعظم قيمها ويكون لها خطر لم يكن في الأول. وهذا معنى الحوالة فيها ويصحّ ملكها من أعين أهل المصّر. وليس ذلك بسعيه واكتسابه، إذ قدرته تعجز عن مثل ذلك.

* دعوة واحدة، ولا س.

وأما فوائد العنار والضيايع، ففي غير كافية لملكها في حاجات معاشه، إذ هي لا تفي بعوائد الترف وأسبابه، وإنما هي في الغالب لسد الخلة وضرورة المعاش. والذي سمعناه من مشيخة البلدان أن القصد باقتناء الملك من العقار والضيايع إنما هو الخشية على من يترك خلفه من الذرية الضعاف ليكون مرباهم به ورزقهم فيه، ونشؤهم بفائدته ما داموا عاجزين عن الاكتساب، فإذا قدروا على تحصيل المكاسب سعوا فيها بأنفسهم. وربما يكون من الولد من يعجز عن التكسب لضعف في بدنه أو آفة في عقله المعاشي، فيكون ذلك لعقد قوماً خائفة. هذا قصد المترفين في اقتنائه. وأما التموُّن منه وإحراء أحوال مترفين فلا. وقد يحصل ذلك منه للقليل أو النادر بحوالة الأسواق وحصول لكثرة الفائدة منه والغالي في جنسه وقيمه في المصر، إلا أن ذلك إذا حصل فربما امتدت إليه أعين الأمراء والولاة واغتصبوه في الغالب، أو رادوه على بيعه منهم. ونالت أصحابه منه مضار ومعاطب وإنه غالب على أمره.

[16] في حاجة الممولين من أهل الأمصار إلى الحاء والمدافعة

ودئت أن الحصري إذا عظم ثمنه، وكثر للعقار والضباع ثمنه، وأصبح
عنى أهل المصر، ورمقته العيون بذلك، وانفسحت أحواله في الشرف
والعوائد، تزاحم عليها الأمراء والملوك وعصّوا به ولما في ضاع شرف من
العهده، نعتد أعينهم إلى تملك ما بيده ويتافسونه فيه، ويتحيلون على ذلك
كل ممكن حتى يحصلونه في رتبة حكم سبطاني وسبب من المؤ حدة صهر
يُتزع به ماله. وأكثر الأحكام السلطانية جائزة في العالم، إذ تعدل منحصر
بما هو في الخلافة الشرعية، وهي قليلة البلبث. قال صلى الله عليه وسلم :
لخلافة بعدي ثلاثون سنة، ثم يعود ملك عضوضاً.

فلا بد حينئذ لصاحب المان والثروة الشهيرة في انعمان من حامية تذود
عنه، وجه ينسحب عليه من دي قرابة للملك أو حالصة له أو عصرية يتحاماها
استطاع، فيستظل هو بظنها ويرتع في أمنها من طوارق التعدي، وإن لم
يكن له ذلك، أصبح نهياً بوجوه التحيلات وأسباب الأحكام.
والله يحكم لا معقب لحكمه¹³⁵.

يستظل بظنها [ب]

135، آية (4) من سورة الرعد (13).

[17] في أن الحضارة في الأمصار من قبل الدول ،
وأنها ترسخ باتصال الدولة ورسوخها

والسبب في ذلك أن الحضارة هي أحوال عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرقة وتفاوت الأمم في القلة والكثرة تفاوتاً غير منحصر . ويقع فيها عند كثرة التفتن في أنواعها وأصنافها ، فيكون عمالة الصنائع ، ويحتاج كل صنف منها إلى القوّة عليه المهرة فيه . ويقدر ما يتميز من أصنافها بتزيد أهل صناعتها وينفون ذلك الجيل بها . ومتى اتصلت الأيام وعاقبت تلك الصّيبات حذق أولئك الصناع في صناعتهم ومهرو في معرفتهم . والأعصار بطولها وانفساح أمدها وتكرار أمثالها تزيدها استحكاماً ورسوخاً

وأكثر ما يكون ذلك في الأمصار لاستبحار العمران وكثرة الرقة في أهلها وذلك كله إما يجيء من قبل الدول . لأن الدولة تجمع أموال الرعية وتنفقها في بطنائها ورجالها ، وتتسع أحوالهم بالجاه أكثر من اتساعها بالمال ، فيكون

تكرير [ب]

الدولة [ب]

دخل تلك الأموال من الرعايا وخرجها في أهل الدولة ثم فبمن تعبق بهم من أهل مصر، وهم الأكثر، فتعظم لذلك ثروتهم ويكثر غناهم، وتزيد عوائد لترف ومداهبه وتستحكم لديهم الصنائع في سائر موره. وهذه هي الحضارة.

ولهذا نجد الأمصار التي في القاصة، ولو كانت موعودة العمران، فتغيب عليها أحول البدواة وتبعد عن الحضارة في جميع مذهبها، بخلاف مدن المتوسط في الأقطار التي هي مركز الدولة ومقرها. وما ذلك إلا لاجورة السطان لهم وفيص أمواله فيهم. كالماء يخضر ما قرب منه فما قرب من الأرض إلى أن ينتهي إلى الجوف على البعد. وقد قدمنا أن السطان ولولة سوق العالم، فالبضائع كلها موجودة في السوق وما قرب منه، وإد بعد عن السوق اقتطعت البضائع حملة. ثم إنه إذا اتصلت تلك الدولة وتعاف منوها في ذلك المصر واحدًا بعد واحد استحكمت الحضارة فيهم ورد رسو ح

ه اعتر ذلك في اليهود لما طان ملكهم بلشام نحوًا من ألف وأربع مائة سنة، رسحت حصار بهم وحذقوا في أحوال المعاش وعوائده وأثخن في صاعته من المضاعف والملاص وسائر أحوال المنزل، حتى أنها تؤخذ عنهم في لغلب إلى يوم ورسخت الحضارة أيضًا وعوائدها في الشام منهم من دول مروه بعدهم ستمائة سنة، فكانوا في غاية الحضارة

وكذلك أيضًا القبط، دهم ملكهم في الخليفة ثلاثة آلاف من السنين، فرسخت عوائد الحضارة في بدهم مصر، وأعقبهم بها ملك اليونانيين والروم، ثم ملك الإسلام الناسخ للكل، فلم تزل عوائد الحضارة به متصلة. وكذلك أيضًا رسحت الحضارة باليمن لاتصل دولة العرب به منذ عهد العمالة والتبابعة آلافًا من السنين، وأعقبهم ملك مصر.

و لمهنية سبب، فتجد له من أحوال الحضارة في شؤون منزله وعوائله أحواله
ثراء متنسبة بغيره. يميزها الحضري البصير بها. وكذا في أكثر أمصار
إفريقيته. ومن كذلك في المغرب وأمصاره ترويح الدولة في إفريقية أكثر
أمدًا منذ عهد الأغالية والشبيعة وصنهاجة.

و أما المغرب، فانتقل إليه منذ دولة الموحدين من الأندلس حصص كبير من
الحضارة، واستحكمت به عوائده بما كان لدولتهم من الاستيلاء على بلاد
الأندلس وانتقل الكثير من أهلها إليهم طوعًا وكرهًا، وكانت من اتساع النطاق
ما عمت. فكان فيها حظ صالح من الحضارة واستحكامها، ومعظم من أهل
الأندلس. ثم انتقل أهل شرق الأندلس عند جالية النصارى إلى إفريقية،
فبقوا بها وبأمصارها من الحضارة آثارًا. ومعظمها بتونس. امتزجت بحضرة
مصر وما ينقله المسافرون من عوائدها. فكانت بذلك للمغرب وإفريقية حظ
من الحضارة صالح عفا عليه الخلاء ورجع على أعقابهم وعاد البربر بالمغرب
إلى أديانهم من البدانة والخشونة، وعلى كل حال، فأثر الحضارة بإفريقية أكثر
منه بالمغرب وأمصاره، لما تداول فيها من الدول السالفة أكثر من المغرب،
وتقرب عوائدهم من عوائد أهل مصر بكثرة المترددين بينهم.

فتمطن لهذا السر، فإنه خفي عن الناس، واعلم أنها أمور متنسبة، وهي
حل الدولة في القوة والضعف، وكثرة الأمة أو الخيل، وعظم مدينة أو حضر،
وكثرة النعمة واليسار. وذلك أن الدولة والمثلث صورة الخليفة ونعمته.
وكيف مادة به، من الرعايا والأمصار وسائر الأحوال وأموال جديبة عائدة
عليهم، ويسارهم في الغالب من أسواقهم ومتاجرهم. وإذا افاض السعد
عطاءه وأمواله في أهلها أنبت فيهم ورجعت إليه، ثم إليهم منه ثم هي ذهبة
عندهم في خيانة والحراج، عائدة عليهم في العطاء بمعنى نفسه من لدونه
يكون يسار الرعايا، وعلى نسبة يسار الرعايا أيضًا وكثرتهم يكد من لدونه
وأصله كله العمران وكثرته. فاعتبره ونأمنه في الدول تحده
والله الحكيم. لا معقب حكمه.

[18] في أن الحضارة غاية للعمران ونهاية لعمره وأنها مؤذنة بفساده

فقد بينت لك فيما سبق أن منك وندول غاية لعصية، وأن الحضارة غاية
للبداوة، وأن لعمر ن كنه من بدوة وحضارة ومنك وسوقة له عمر محسوس،
كما أن للشخص الواحد من أشخاص لمكونات عمر محسوس، وتبين في
المنعوق والمنقول أن الأربعين للإنسان غاية في تزايد قوه وبموها، وأنه إذ بلغ
سن الأربعين وقفت الطبيعة عن ثمر لنشو والنمو برهة، ثم تأخذ بعد ذلك في
الانحطاط. فتعلم أن الحضارة في العمران أيضا كذلك، لأنه غاية لا مزيد
وراءه.

وذلك أن لترف ولنعمة إذ حصل لأهل العمران دعاهم بطبعه إلى
مذهب الحضارة ولتحلق بعوائدها. وحضارة، كما عمت، هي لتفش في
ترف وستجدد آحوله والكلف بالصنيع التي تؤتى من أصدفه وسائر فنونه،
كل صنائع لمهيئة لمطبخ وألباس أو المباني والفرش والألبسة، وكسائر
أحوال المنزل. ولتأثر في كل واحد من هذه صنائع كثيرة، لا يحتاج إليها عند
لبدوة وعدم التأثر فيها. وإذ بلغ التأثر في هذه الأحوال المنزلية لعاية، تبعه
طاعة الشهوات، فتتمون لبعض من تمت لعوائد ألبان كثيرة لا يستقيم حالها
معها في ديبها ولا ديبها، أما ديبها، فلا استحكام صيغة العوائد التي يعسر

هي دُنْتُ، واحصِرِي لا يفدر عني مباشرة حاحانه، ما عجزت بي حصص له من
الدعة. أوترفعاً لما حصص من المير في شعيم ونسب وكلا الأمرين دممه
وكذلك لا يفدر عني دفع حصص عما فقد من حقوق أسس بالتعرف والميراث في
قهر تباديب وشتيمه، فهو بذلك عير عني حمية التي تدفع عنه ثم هو
فسد أيضاً في دينه، غالباً أفسدت منه عوائد وطعاماتها وما تلونت به لنفس
من ملكتها، كما قررته، إلا هي الأقل نادر، وبذا فسد الإنسان في قدرته ثم
في أخلاقه ودينه، فقد فسدت إنسانيته، وصار مستحاً على الحقيقة. وبهذا
لاعتبار، كان للذين يتقربون من حند انسلطان إلى البداوة وخشونة أنفع من
لذين يربون على الحضارة وخلقها، وهذا موجود في كل دوة. فقد تبين أن
الحضارة سن الوقوف لعمر نعالن من لعمر ن ولدول، وبه الواحد القهار.

[19] في أن الأمصار التي تكون كراسي للملوك تخرب

بخراب الدولة وانتقاضها

قد استقر في العمران أن الدولة إذا انتقضت واختلت فإن المصير الذي يكون كرسياً لسلطانها ينتقض عمره وربما ينتهي في انتقاضه إلى الخراب، ولا يكاد ذلك يختلف.

ولسبب فيه أمور :

الأول أن الدولة لا بد في أولها من البداوة المقتضية لتخافي عن أموال الناس والبعد عن التحذق. ويدعو ذلك إلى تخفيف الجباية والمغرم التي منها مادة الدولة، فتقل النفقات، ويقصر الترف. فإذا صار المصير الذي كان كرسياً للملك في ملكة هذه الدولة المتجددة ونقصت أحوال الترف فيها، نقص الترف فيمن تحت أيديها من أهل المصير، لأن الرعايا تبع للدولة فيرجعون إلى خلق الدولة إما ضوعاً لما في طباع البشر من تقليد مشوعهم، أو كرههم تدعو إليه خلق الدولة من الانقباض عن الترف في جميع لأحوال وقلة ثمرات التي هي مادة العوائد، فتقصر لذلك حصاره المصير، ويذهب منه كثير من عوائد الترف. وهو معنى ما نقوله من خراب المصير.

هذا الفصل له برهني [ب]

لأمر ثلثي من دولته يحصن بها البلد والاستلابة، وبنى كوبر
بعد اعدوة وحروب، ولعدوة تقتضي مصادرة أهل لدونين وكبير
جديهما على لأخرى في اعوانه ولأحوا، وعب أحد مدوين مذهب
بندقي لأخر فنكون أحول دولة ساعة مكرمة عند أهل لدولة جديدة
ومستتعة وفيها، وخصوصاً أحد لتوف فتقدم في عرفهم بكر لدولة
نما حتى نستأنهم بالتدريج عرث أخرى من الترف يكون عنها حصاره
مستتعة، وفساد ذلك قصور حصاة الأولى ونقصها وهو معنى احتلال
نعمر في مصر

لأمر ثلثي من كل دولة لا بد لهم من وطن هو مشأهم ومنه أوتة منكهم
وإد منكهم وصدا صر بعد لألوان، ومصاره تعة لأمصر الأولى، ونسح نطاق
مكث عندهم ولا من توسط الكرسى بين تحوم المثلث التي لدولة لأنه
شبه مركز لنطاق فيبعد مكة عن مكاب الكرسى لألوان، ونهوى افئدة لدس
به من أهل لدولة ولسطرب فينتقل إلى لعدم ووجت من مصر الكرسى
لألوان وحصاره يك هي وفور عمرا، كما قدمه، فتتقص حصارته وتندى،
وهو معنى احتلاله وهذا كما وقع لسنحوفية في عدولهم عن كرسهم عن
بعد دلي، صنها، ولنعرب قسهم في لعدول عن المدس إلى كوفه
و مصده، ونسي لعدس في لعدول عن دمشق إلى بعدد، ونسي مرس
لنعرب في بعدد عن مراكش إلى فس واصمة، ويحد الدولة الكرسى
في مصر بحر بعدد الكرسى لألوان

لأمر أربع من لدولة المحدثه دعت على دولته السابقة لا بد فيها من
شع أهل لدولة سابقة وشيعتها تحو بهم إلى قصر آخر من فيه عدنتهم
على لدولة أكثر أهل نص الكرسى شيع لدولة، من حامية دس
مرمره فور لدولة، أو من عيار مصر، لأن نهم في انعب محافظة في

لدولة على طفتانهم وتنوع أصنافهم، بل كثرتهم شئ في الدولة فهم شعبة لها، وإن لم يكونوا بالشوكة والعصية، فهم المثلن والمحنة والعقيدة وصيغة الدولة المحددة محو آثار دولة سابقة، فبقدهم من مصر الكرسي إلى وصفي لمتمكن في ملكتها، فعصمهم على نوع التعريب وحسن، وبعض على نوع الكرامة وتلطّف بحث لا يؤذي إلى النفرة حتى لا يبقى في مصر الكرسي إلا الساعة وهم من أهل الفصح والعبارة وسواد العامة، وتزل مكانهم في حامينها وأشاعها من نسله لمصر وإد دهب من المصر أعياه على طفتانهم بقص ساكنه، وهو معنى حلال عمران ثم لا بد أنه أ يستحد عمران آخر في ظل الدولة جديدة وتخص فيه حصبة أخرى على قدر الدولة، وبما دلت بمدّة من بحث بين داحيه لسي والكثير من أوضاعه في بيوتهم ومرفقه لا يوفق في مفرجه، وله قدرة على تغيير تلك الأوضاع وعدة سائها على ما يحتره ويفترجه، فحرب ذلك البيت، ثم يعيد ساءه ندياً وقد وقع كثير من ذلك في الأمصار لي هي كراسي لدمشق وشهدناه وعيناه، ولله مقدر النيل ولها

ولسب لطبعي الأول في ذلك على الحمة الدولة والمث للمعمران عمدة لصورة لمدة، وهو شك، حافظ نوعه لوجوده، وقد تقرّر في عموم الحكمة أنه لا يمكن سكاك أحدهما عن الآخر فالدولة دون العمران لا تتصور، والعمران دون الدولة والمث متعذر في طبع البشر من التعاون لدعي إلى الورع فتتبع السياسة لذلك، إما اشريعة أو الملكية، وهي معنى لدولة وقد كان لا يمكن، فاحتلال أحدهم مؤثر في احتلال الآخر، كما كان عده مؤثر في عده، وأخل العصبية إلى يكون من حبل الدولة الكلية، مثل دولة الفرس، أو لروم، أو عرب على عموم، أو سي مية أو

بني لعاس كذلك وأم الدولة لشخصية، مثل دولة أوشروان أو هرقل أو
عبد ملك بن مروان أو الرشيد، فأشخصها متعاقبة على العمران، حافظة
لوجوده وقائه، وقريبة الشبه بعضها من بعض. فلا تؤثر كثير الحلال لأن
لدونه بالحقيقة لماعة في مادة العمران إى هي لعصية والشوكة، وهي
مستمرة مع أشخاص لدول فإداهت تلك لعصية ودفعتها عصبية أخرى
مؤثرة في العمران فأذهب هن الشوكة أجمعهم عظم ختل كما قرأناه أولاً
والله فادر عى ما يشاء، إن يشاء يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك
عنى له عزيز

[20] في اختصاص بعض الأمصار ببعض الصنائع

دور بعض

وذلك أنه من الشئ أن أعمال أهل المصر يستدعي بعضها بعضاً ما في صفة
لعمروا من اتعود وما يستدعي من الأعمال يختص بعض أهل المصر،
فعموموا عليه ويستصرون في صناعته ويختصوا بوظيفته ويجعلون
معاشهم فيه ورزقهم منه، لعموم السوى به في المصر وإخاذه إليه، وما لا
يستدعي في المصر يكون عملاً بلا فائدة لمنتجحه في لا تحترف به وما
يستدعي من ذلك ضرورة المعاش فيوجد في كل مصر، كخيط وخذاد
واسحر ومثله، وما يستدعي لعوائد الثرف وأحواله، فيأى يوجد في مد
لستحرة في لعمدة، لأخذة في عوائد الثرف وحصارة، مثل لرخاح
والصانع والدهان والقطح والصفار والسفاح والهماس والذبح ومثال هذه
وهي متعديّة، وتقدم تزيد عوائد حصارة وتستدعي أحوال الثرف تحدث
صنائع لذلك النوع، فتوجد لذلك مصر دور غيره ومن هذا السبب
اختصاصات، لأنها لا يوجد في لأمصر مستحصرة المستحرة بعمروا ما

يدعو إليه الترف ولغى من التعم. ونذلت لا تكون في المدب المتوسطة، وإد
 ربع نص لموك وارؤساء إليه فيحتضها ويجري حوالها. لا أنها إذا لم تكن
 لها دابة من كفة الدس، فسرعد ما تهخر وتخرب، ويصرعها القومة لقنة
 فائدتهم ومعاشهم منها.
 والله يقبض ويبسط^{١٤}.

(١٤) به 245 من سورة سده 2

[21] في وجود العصبية في الأمصار

وتغلب بعضهم على بعض

من لبيّن أن الالتحام والاتصال موجود في طباع البشر، وإن لم يكونوا أهل نسب واحد. إلا أنه، كما قدمناه، أضعف مما يكون بالنسب، وأنه تحصل به عصبية بعضًا مما تحصل بالنسب. وأهل الأمصار كثير منهم ملتحمون بالصهر، يجذب بعضهم بعضًا إلى أن يكونوا لحمًا لحماً وقرابة قرابة. وتجد بينهم من الصداقة والعداوة ما يكون بين القبائل والعشائر مثله، فيفترون شيعًا وعصائب. فإذا نزل الهرم بالدولة وتقلّص الملك عن القاصية، احتج أهل أمصاره إلى القيام على أمرهم والنظر في حماية بلدهم، ورحعوا إلى الشورى وتميز العلية عن السفلة. والنفوس بطباعها متطاولة إلى الغلب والرياسة، فتطمح المشيخة لخلاء الجو من السلطان والدونة لقاهرة إلى الاستبداد، وينازع كل صاحبه. ويستوصلون بالاتباع من المؤي والنشيع والأحلاف، ويبدلون ما في أيديهم للأوغاد والأوشاب. فيعضّوصب كل صاحبه، ويتعين الغلب لبعضهم. فيعطف على أكفائه ليخص من أعينتهم.

والتسليم بقتل أو تعذيب، حتى يحصل منهم لشوكات نفاذه، ويقطع الأقطار الحديثة، ويستمد بمصره أجمع. ويرى أنه قد استحدث ملكاً يورثه عقبه فيحدث في ذلك الملك لأصغر من يحدث في الملك الأعظم من عوز الحدة ونهرم. وربما يسمو بعض هؤلاء إلى منازع الملوك الأعظم، أصحاب القبائل والعشائر والعصبيات، ولزخوف والحروب ولاقطر والممالك، فيتحول من اجوس على السرير واتحاد الآلة وعدد المواكب لسيير في أقطار لند والتحطه ونجية وحط بالتموين ما يسخر منه من يشهد أحولهم لما نتجوه من شارات الملك لتي ليسوا لها أهل. ثم دفعهم إلى ذلك تقصير لدولة والتحام بعض تقربات حتى صارت عصبية. وقد يتنزه بعضهم عن ذلك ويجري على مذهب لند، جة فرازا من لتعريض بنفسه لسخرياء والعت.

وقع هذا بإفريقية لهذا العهد في آخر الدولة حفصية لأهل بلاد الجريد من طرابلس وقابس وتوزر ونقطة وقفصة وبسكرة ولزاب وما إلى ذلك، سمو إلى منها عند تقلص ظل الدولة عنهم منذ عقود من السنين. فاستغلبوا على مصارعهم، واستبدوا بأمرها على الدولة في الأحكام والجبية، وأعطوا طاعة معروفة وصفقة ممرضة، وأقطعوه جانباً من الملاينة والملاطفة والالتقياد، وهم بمعزل عنه. وأورثوا ذلك أعقابهم لهذا العهد. وحدث في خفيهم من الغلظة ولتجبر ما يحدث لأعقاب الملوك وخلفهم، ونظموا أنفسهم في عداد السلاطين على قرب عهدهم بالسوق.

وقد كان مثل ذلك وقع في آخر الدولة لصنهاجية، واستقل بأمصراع الجريد أهلها واستمدوا على لدولة، حتى انزع ذلك منهم شيخ الموحدين ومكهم، عبد المومن بن عبي، ونسبهم كهم من يمارتهم بها إلى المغرب، ومحا من تدث البلاد شاربهم. كما نذكر في اخباره.

و كذلك وقع بسببه لأستر دولة بني عبد المؤمن.

وهذا التغلب يكون غائباً في أهل السروات والبيوت من شحس
للمشيخة والرياسة في مصر. وقد يحدث التغلب لبعض السفنة من لدنهماء
واعوغاء إذا حصلت له العصيبة والانتحام بالأوعاد لأسباب يجزئها له
لمقدار، فيعذب على المشيخة والعلية إذا كانوا فاقدين للعصانة
والله غالب على أمره^{١١}.

[41] آية ١١ من سورة يوسف (12)

[22] في لغات أهل الأمصار

اعلم أن لغات أهل الأمصار إما تكون بسبب الأمة وإما بسبب نعالين عنيها أو احتشيط بها. ولذلك كانت لغات الأمصار الإسلامية كلها بالمشرق والمغرب لهذا العهد عربية، وإن كان للسان العربي أنصري قد فسدت فلكته وتغير عبره^{٢٢}

وانسب في ذلك ما وقع لدولة الإسلامية من الغلب على الأمم والدين وأمة صورة لوجود وللملك، وكلها مواد له ولصورة مقدمة على المادة، والدين بما يستفاد من الشريعة، وهي بلسان العرب ما أن السبي صلي الله عليه وسلم عربي فوجب فحرم ما سوى اللسان العربي من الألسن في جميع ممالكها واعتبر ذلك في بني عمر رضي الله عنه عن رطانة الأعرج، وقال إنها جب، يعني مكر وحديعة، فمما هجر اللسان الأعجمية وكان بسبب نقائمين بالدولة الإسلامية عربياً، هجرت كلها في جميع ممالكها، لأن لسان تنع لسطوان وعلى ذنبه فصار استعمال اللسان العربي من شعائر لإسلام وصاعة لعرب، وهجر الأمم لغاتهم ونسبهم في جميع الأمصار

٢٢ - موقوف يعقوب بن حمزة، في موضوع لغة الأمصار، المصدر، مصر في تصحيح ١٤٦، ١٤٧، ٩ من باب السادس

والممات، وصار اللسان العربي لسانهم حتى رسخ ذلك لغة في جميع
مصارهم ومدينتهم وصارت الألسن لأعجمية دحية فيها وعربية. ثم فسد
لسان العربي بمخالطتها في بعض أحكامه وتغير أو حره، وإن كان بقي في
لدالات على أصده. وسُمِّي لساناً حصرياً في جميع مصار الإسلام
وأيضاً فأكثر الأمصار في الملة هذا العهد من أعاد العرب للمالكين لها
لهالكين في نرفها عما كثروا، أعجم الذين كذبوا بها وورثوا أرضهم وديارهم.
ولمعت متوارثة، فبقيت لغة الأعقاب على حيال لغة الآباء، وإن فسدت أحكامها
بمخالطه، لأعاجم شيئاً فشيئاً، وسُمِّيَت لعنتهم حصرية، مسنونة إلى أهل الخواصر
والأمصار، بحلاف لغة البدو من العرب. فيها كدت أعرق في العروية

وذا تملك العجم من الدين والسلجوقية بعدهم بالمشرق، وريانة والرب
بالعرب، وصار لهم أمك ولاستيلاء على جميع الممالك الإسلامية، فسد
اللسان العربي لذلك وكاد يذهب نولاً ما حفظه من عدية المسلمين بالكتب
والسنة الذين هم حفظ اندس وصار ذلك مرححاً لفاء للغة الحصرية
بالأمصار عربية فسد منه الططر ومغوب بالمشرق، وما يكونو على دين
الإسلام، ذهب ذلك امرحح وفسدت للغة العربية على الإطلاق، ولم يبق لها
رسم في الممالك الإسلامية بالعراق وحراسان وبلاد فارس وأرض الهند
والهند وماوراء النهر وبلاد انشمت وبلاد الروم ودهست ساليب للغة
العربية من الشعر والكلام إلا في بلاد يقع تعيمه صديقاً بالقوايين المتدائرة من
عوام العرب وحفظ كلامهم من يسره الله لذلك. وربما بقيت اللغة العربية
الحصرية بمصر والشام والأندلس والمغرب لبقاء الذين طابت لها، فحفظت
بعض الشيء وأما في مملكتي العراق وماوراء فسد بقوله أثر ولا عين، حتى
أن كتب لغوم صارت تكتب باللسان العجمي، وكذا تدريسه في المحالين.
وله مقدر الليل والنهار *

* نص هذه مقبرة في [ب] مخيف بقى صفة حصية للمعجمة، ج ٩، ص ١٠٦

١٠٦. سورة يونس من (٢٦)

الفصل الخامس من الكتاب الأول

في المعاش ووجوهه
من الكسب والصنائع وما يعرض في ذلك كله من الأحوال
وفيه مسائل

[1] في حقيقة الرزق والكسب وشرحهما وأن الكسب هو قيمة الأعمال البشرية

اعلم أن الإنسان مفتقر بالطبع إلى ما يقوته ويموِّنه في حالته وأطواره من لدن نشوئه إلى أشده وكبره. "والله الغني وأنتم الفقراء". والله سبحانه وتعالى خلق جميع ما في العالم للإنسان وامتنَّ به عليه في غير ما آية من كتابه، فقال: 'خلق لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه'، و'سخر لكم الشمس والقمر' و'سخر لكم البحر'، و'سخر لكم الفلك' و'سخر لكم الأنعام'. وكثير من شواهد⁽¹⁾. ويد الإنسان مبسوطة على العالم وما فيه بما جعل الله له من الاستحلاف. وأيدي البشر منتشرة، فهي مشتركة في ذلك، وما حصل عليه يد هذا امتنع عن الآخر إلا بغيره.

(1) آية 38 من سورة محمد (47).
(2) نص آية 13 من سورة الحاقة (45) وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه * الآية - وسخر لكم الشمس والقمر لم ترد في [ب]
(3) نص في هذا آية 2 من سورة النجم (13)، آية 12 من سورة البقر (16)، آية 65 من سورة حج (22)، آية 1 من سورة العنكبوت (29)، آية 20 و29 من سورة لقمان (31)، آية 13 من سورة قاطر (35)، آية 6 من سورة روم (39)، آية 12 من سورة الحاقة (45)

فلإنسان متى اقتدر على نفسه وتجاوز طور الضعف سعى في اقتداء المكسب ليمق ما أتاه الله منها في تحصل حاجته وضروراته يدفع الأعواص عنها. قال تعالى: 'فابتغوا عند الله الرزق'.

وقد يحصل له ذلك عبر سعي، كالمطر المصباح للرعاة ومثله. لا أنها إما تكون مغيبة، ولا بد من سعيه معها كما يأتي. فتكون تلك المكاسب معاشاً إما كانت بمقدار الضرورة والحاجة، ورياشاً ومتمولاً إن زادت على ذلك. ثم إن ذلك الحاصل أو المكتنى إن عادت منفعة على العبد وحصلت له ثمرته من إنفاقه في مصالحه وحاجاته سُمي رزقاً. قال صلى الله عليه وسلم: 'إنما لك من مالك ما أكلت فأفئيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأفصيت'. وإن لم ينتفع به في شيء من مصالحه ولا حاجاته فلا يُسمى رزقاً. ولتملك منه حينئذ بسعي العبد وقدرته يُسمى كسباً. وهذا مثل التراث، فإنه يسمى بالنسبة إلى لهلك كسباً ولا يُسمى رزقاً. إذ لم يحصل له به مُنتفع. وبالنسبة إلى الوارثين متى انتفعوا به يُسمى رزقاً.

هذا حقيقة مُسمى الرزق عند أهل السنة. وقد اشترط المعتزلة في تسميته رزقاً أن يكون بحيث يصح ثمنه. وما لا يُتملك عندهم فلا يُسمى رزقاً. وأخرجوا الغصبوبات والحرام عنه عن أن يُسمى شيء منه رزقاً. والله تعالى يرزق الغاصب والظالم، والمؤمن والكافر، ويختص برحمته وهدايته من يشاء. ولهم في ذلك حجج بيس هذا موضع بسطها.

ثم اعلم أن الكسب إنما يكون بالسعي في لاقتناء ولقصد إلى التحصيل. فلا بد في الرزق من سعي وعمر، ولو في تناوله وابتغائه من وجوهه. قال تعالى: 'فابتغوا عند الله الرزق'. والسعي إليه إنما يكون بأقدار الله تعالى وإلهامه، فالكل من عند الله فلا بد من الأعمال الإنسانية في كل مكسب

وتمتوّل. لأنه إن كان عملاً بنفسه مثل الصنائع فظاهراً، وإن كان مُقتنى من حيوان أو النبات أو المعدن فلا بد فيه من العمل الإنساني، كما تراه. ولا له يحصل ولم يقع به انتفاع.

ثم إن الله سبحانه خلق الحجرين المعدنيين من الذهب والفضة قيمة لكل تمتوّل. وهي الذخيرة والثقيّة لأهل العالم في الغالب. وإن اقتني سوهم في بعض الأحيان فإنما هو لقصد تحصيلهما بما يقع في غيرهما من حوالة لأسواق التي هما عنها بمعزل. فهما أصل المكاسب والثقيّة والذخيرة.

وإذا تقرّر هذا كله، فاعلم أن ما يفيد الإنسان ويقتنيه من الممتوّلات، إن كان من الصنائع. فالمفاد المقتنى منه هو قيمة عمله، وهو القصد بالثقيّة، إذ ليس هناك إلا العمل، وليس مقصود بنفسه للثقيّة. وقد يكون مع الصنّاع في بعضها غيرها مثل النجارة والحياكة معها الخشب والغزل، إلا أن لعمل فيهما أكثر، فقيمتهم أكثر. وإن كان من غير الصنائع، فلا بد في قيمة ذلك المُفاد والثقيّة من دخول قيمة العمل الذي حصنت به، إذ لو لا العمل لم تحصل ثقيّتها. وقد تكون ملاحظة العمل ظاهرة في الكثير منها، فتجعل له حصة من القيمة عظمت أو صغرت. وقد تخفى ملاحظة العمل، كما في أسعار الأقوات بين الناس، فإن اعتبار الأعمال والنفقات فيها ملاحظة في أسعار اجبواب، كما قدمناه^١، لكنه خفي في الأقطار التي علاج الفلح فيها ومؤنته يسيرة، فلا يشعر به إلا القليل من أهل الفلح.

فقد نبيّن أن المُفادات والمكتسبات كلها أو أكثرها إنما هي قيم لأعمال إنسانية، وتبيّن مُسئى الرزق، وأنه المنتفع به. فقد بان معنى الكسب والرزق وشرح مُسمّاهما.

وعلم أنه إذا فُقدت الأعمال وقلّت بانتقص العمران تأذن الله برفع الكسب. ألا ترى إلى الأمصار القليلة الساكن كيف يقل الرزق والكسب فيها

(١) انظر ص 211 212 أعلاه

وَيُفَقِّدُ لِقَاةَ الْأَعْمَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ ؟ وَكَذَلِكَ الْأَمْصَارُ الَّتِي تَكُونُ أَعْمَالُهَا أَكْثَرُ
يَكُونُ أَهْلِهَا أَوْسَعَ أَحْوَالاً وَأَشَدَّ رِفَاحِيَّةً، كَمَا قَدِمْنَا قَبْلَ⁽⁷⁾. وَمِنْ هَذِهِ السَّبَبِ
تَقُولُ لِعَامَّةِ فِي الْبِلَادِ إِذَا تَنَاقَصَ عَمْرَانِهَا قَدْ ذَهَبَ رِزْقُهَا. حَتَّى أَنَّ لَعْيُونَ
وَالْأَنْهَارَ يَنْقُطِعُ جَرِيُّهَا فِي الْقَفْرِ، لَمَّا أَنَّ قَوْرَ الْعَيُونَ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْإِنْبَاطِ وَالْإِمْتِرَاءِ
لِذِي هُوَ عَمَلُ إِنْسَانِي كَالْحَالِ فِي ضُرُوعِ الْأَنْعَامِ. فَمَا لَمْ يَكُنْ إِمْتِرَاءً وَلَا إِنْبَاطَ
نَضِبَتْ وَغَارَتْ بِالْجُمْلَةِ، كَمَا يَجْفُ الْفُضْرُوعُ إِذَا تُرِكَ إِمْتِرَافُهُ. وَانْظُرْهُ فِي الْبِلَادِ
الَّتِي تَعْهَدُ فِيهَا الْعَيُونَ لِأَيَّامِ عَمْرَانِهَا ثُمَّ يَأْتِي عَلَيْهَا الْخَرَابُ، كَيْفَ تَغُورُ مِيَاهُهَا
جُمْلَةً كَأَنَّ لَمْ تَكُنْ.
وَاللَّهُ مُقَدِّرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ⁽⁸⁾.

(7) «نظروا ص 216-217 أعلاه»

* في البلاد [ب].

(8) آية 20 من سورة المزمل (73)

[2] في وجوه المعاش وأصنافه ومذاهبه

اعلم أن المعاش هو عبارة عن ابتغاء الرزق والنسعى في تخصيصه. وهو مفعل من 'العش'، كأنه لما كان العيش الذي هو حياة لا يحصل إلا بهده. جعلت موضعاً له على طريق المبالغة.

ثم إن تحصيل الرزق وكسبه إما أن يكون بأخذه من يد الغير وانتزاعه بالاعتدار عليه على قانون متعارف، ويسمى معروفاً وجباية. وإما أن يكون من حيوان 'لوحشي' باقتراسه وأخذه برمته من أنير والبحر، ويسمى اصطفاً.

وإما أن يكون من 'حيوان' انداجن باستخراج فضوله المتصرف بين الدس في منافعهم كاللبن من الأنعام، واخريز من دوده، والعسل من نحله أو يكون من لبنات في لزرج والشجر بالقيام عليه وإعداده لاستخراج ثمرته، يسمى هذا كله فليحاً. وإما أن يكون الكسب من الأعمال الإنسانية، إما في مواد بعينها، وتسمى الصنائع من كتابة، وتجارة، وخياطة، وحياسة، وفروسية، ومثل ذلك، أو في مواد غير معينة، وهي جميع الامتحانات والتصرفات. وإما أن يكون الكسب من البصائع وإعداده للأعواص إما بالتقرب بها في البلاد أو حتكاؤها وارتياب حوالة الأسواق فيها، ويسمى هذا تجارة.

فهذه وجوه المعاش وأصنافه. وهي معنى ما ذكره المحققون من هه

الأدب والحكمة كالخيري وغيره. قالوا: "المعاش إمارة، وتجارة، وفلاحة، وصناعة. فأما الإمارة فليست بمذهب طبيعي للمعاش. فلا حاجة به إلى ذكره. وقد تقدم شيء من أحوال الجبايات السلطانية وأهلها في الفصل الثاني⁹.

وأما الفلاحة والصناعة والتجارة، فهي وجوه طبيعية للمعاش. أما الفلاحة فهي متقدمة عليها كلها بالذات، إذ هي بسيطة وطبيعية وفطرية لا تحتاج إلى نظر ولا إلى علم. ولهذا تُنسب في الخليفة إلى آدم، أبي البشر، وأنه معتمداً واثقاً عليها، إشارة إلى أنها أقدم وجوه المعاش وأنسبها إلى الطبيعة. وأما الصنائع، فهي ثانیتها ومتأخرة عنها، لأنها مركبة وعلمية تُصَرَّفُ فيها الأفكار والأنظار. ولهذا لا توجد غالباً إلا في أهل الخضر الذي هو متأخر عن لسو وثان عنه. ومن هذا المعنى نُسِبَتْ إلى إدريس⁽¹⁰⁾، الأب الثاني للحقبة، وأنه مُسْتَنَظِّها لمن بعده من البشر بالوحي من الله تعالى.

وأما التجارة، وإن كانت طبيعية في الكسب، فالأكثر من طرقها ومدها إنما هي تحييلات في الحصول على ما بين القيمتين في الشراء والبيع لتحصيل فائده الكسب من تلك الفضلة. ولذلك أباح الشرع فيه المكائسة لما أنه من باب المقامرة، إلا أنه ليس أخذاً للمال من الغير مجاناً. فلهذا اختص بالمشروعية. والله أعلم.

(9) على ما يظهر، يحيل ابن خلدون إلى الفصل الثالث، 36، ص 67-68 أعلاه.

(10) شخصيه مذكورة في ألفراد مرتين (أيضا 56 و 67 من سورة مريم، وأيضا 85-86 من سورة لؤس).

وقد يحسب أنه عدد كبير من الاحتراعات، بخصوص الكسنة والحبكة، وبعض المعجم مرصده منكمه، لأنه لا يوصف بالأب الثاني للحقبة.

[3] في أن الخدمة ليست من المعاش الطبيعي

أما أسلطان، فلا بد أنه من اتخاذ الخدمة في سائر أبواب الإمارة والمثلث الذي هو بسبيله من الجندي والشرطي والكاتب. ويستكفي في كل باب من نعم عاء فيه، ويتكفل بأرزاقهم من بيت ماله. وهذا كله مندرج في الإمارة ومعاشها. إذ كلهم ينسحب عليهم حكم الإمارة، والمثلث الأعظم هو ينسحب جدا ولهم.

وأما ما دون ذلك من الخدمة، فسيبها أن أكثر المترفين يرتفع عن مباشرة حاجته أو يكون عاجزاً عنها لما زبي عليه من خلق "التنعم والترفع"، فيتخذ من يتولى ذلك له، ويقطعه عليه أجراً من ماله. وهذه الحالة غير محمودة بحسب الرجولة الطبيعية للإنسان، إذ الثقة بكل أحد عجز. ولأنه تزيد في الوظائف وأخرج، وتدن على العجز والخنث الذي ينبغي في مذهب الرجولة التنزه عنهما. إلا أن العوائد تغلب طبائع الإنسان إلى مألوفها. فهو ابن عوائده لا ابن نسبه.

* الإمارة من [ب]

** ابتداء من هنا نص بقية هذه الفقرات والفقرة التي تليها بحذف في [ب]. انظر الطبعة الخاصة للخدمة، ج 3، ص 122-123

وذلك فخدم الذي يُستكفى به ويوثق بعده كالمفقود. إذا خدم القائم بذلك لا يعدو أربع حالات. إما مُصْطَبِعُ بأمره وموثوق فيما يحصل بيده. وإما بالعكس فيهما، وهو أن يكون غير مصْطَبِع بأمره ولا موثوق فيما يحصل بيده. وإما بالعكس في أحدهما فقط، مثل أن يكون مصْطَبِعاً غير موثوق أو موثوقاً غير مصْطَبِع. فما لأول، وهو المصْطَبِع موثوق، فلا يمكن أحد استعماله بوجه، إذ هو باصْطِلاعه وثقه عني عن أهل الرتب الدنية، ومحتقر عند الآخر من الخدمة لا قدره على أكثر من ذلك. فلا يستعمله إلا الأمراء. أهل هذه العريض، لعموم الخاحه إلى حاه. وأما النصف الثاني، وهو من ليس بمصْطَبِع ولا موثوق، فلا يسعى لعقل استعماله لأنه مُحْتَجَف بخدمته في الأمور معاً. فيصنع عليه عدم الاصْطِلاع ترة، ويذهب ماله بحياة أخرى. وهو كل عني مولا. فهذان صنعتان لا يطمع أحد في استعمالهما. وبه ينق إلا استعمال النصفين الآخرين موثوق غير مصْطَبِع، ومصْطَبِع غير موثوق ونسأس في الترحيح بينهما مدهسار، ولكل من الترحيح وجه. لأن المصْطَبِع ولو كان غير موثوق رُحِح. لأنه يؤمن من تصييعه ويحاور عني التحرر من حبه جهد الاستطاعة. وأم مصْطَبِع ولو كان مأموئاً فصره بالتصبيح أكثر من معه فاعلم ذلك واتحده قابول في الاستكفاء بخدمته وأنه قدر عني ما يشاء

[4] في أن استغناء الأموال من هفتن والكنوز

ليس معاش طبيعي

عم أن كثيرًا من صعداء نغفون في لأمصار يحرصون على ستخرج
الأموال من تحت لأرص يتعون الكسب من ذلك، ويعتقدون أن أموالهم
استغناء محتزنة كلها تحت لأرص، محتومة عليها صلاصه سحرية لا يفض
حتامها ذلك إلا من عثر على عمه واستحصر ما يحبه من الحور ولدهاء
والقرب

وأهل الأمصاء بهيريقية يرون أن الإفراحة دين كانوا قبل الإسلام
دونو أموالهم كذلك؛ ودعوعوه في اصحفت نكتب إلى أن يحدوا
للسين إلى استجراحها وأهل الأمصاء بمشوق يرون مثل ذلك في ثم القبط
واروم ولقرنس، وينتقون ذلك في أحدث شبه حديث خرفة من تنهاء
بعض الظالمين بذلك إلى حفر موضع مال ممن لا يعرف طسمة ولا حبره،
ويحدوه حنو أو معمورًا بالبدن، أو يتصرف الأموال وخوهر موضوعة
وخرس دونه منتصين سيوفهم، أو تيمده لأرص حتى يفض حسده، أو مثل
ذلك من الهدين.

ونجد كثيرًا من طلبة لمرر بالمعرب العاهزين عن المعاش لطبيعي وأسائه
ينقربون إلى أهل الديب بالأوراق المتحرمة حواشيها بحفظ عجمية أو

تُرجم نزعهم منها من حظوظ أهل الدفئ بإعطاء الإمارات عليها في
ممكنها، يستعون بذلك لزرع منهم يد يعثوهم على حفر ولطب، ويؤهون
عليهم بأنه إنما حملهم على الاستعانة بهم طب الحة في مثل هذا من مبر
الحكم والعقوبات وري نكوب عند عصهم اادرة أو عريسة من لأعمال
السحرية يؤه بها على تصديق ما بقي من دعوه، وهو عمول عن لسحر
وطرقه. فيولع الكثير من صعاء العقوب بجمع الأيدي على لاحتفاء والتسئر
فيه بظلمات لبس مخافة الرقاء وعبون أهل الدول فبد له يعثروا على شيء
ردوا دث إلى الجهل بالطمس الذي حُتم به على ذلك الما، يحدعون به
أنفسهم عن حفاق مطمعمهم.

والذي يحمل على ذلك في الغالب، زيادة على ضعف العمل، أي هو
العجز عن طب المعاش بالوحوه الطبيعية لكسب من لتجارة، ولصنع،
والصناعة. فيضوبه بالوحوه المخرقة وعلى عبر الوجه الطبيعي من هذا
وأمثاله عجزاً عن السعي في المكاسب وركوب إلى تناول لزرع من غير تعب
ولا نصب في تحصيله، وكسبه ولا يعلمون أنهم يوقعون أنفسهم بانتعاء
ذلك من غير وجهه في نصب ومتاعب وجهه شديد أشد من الأول.
ويعرضون أنفسهم مع ذلك لمال العقوبات

وربما يحمل في الأكثر على ذلك زيادة الترف وعوائده وحروجه عن حد
الهدية حتى تقصر عنه وجوه الكسب ومداهه ولا تفي بمصالحها وإذا عجز له
الكسب بالحرى الطبيعي به يحد ولوجه في نفسه إلا التمني لوجود المال
الاعظيم دفعة من غير كلفة لئلي ذلك بالعوائد التي حصل في أسرها، فيحرص
على انتعاء ذلك ويسعى فيه جهده ولهد أكثر من تراهم يحرصون على ذلك
هم لمترفون من أهل الدول ومن سكان الأمصار الكثيرة الترف والمتسعة

الأحواش مثل مصر وما في معادها. تجد لكثير منهم معززين بشتاء ذلك
وتخصيبه ومساءلة تركيز عن شواذه، كما يحرصون على الكيمياء
هكذا يستعاضون عن أهل مصر في مفاوذه من ينقلونه من طلبة المعصرة لعينهم
يعثرون منه على دور أو كسر ويزيدون على ذلك لبحث عن تغوير نياه لما
يرون أن غالب هذه الأموال الدفينة كنها في محاري النبل، وأنه أعظم ما
سُتِرَ دفيناً أو مختزناً في تلك الأفق ويؤوه عليهم أصحاب تلك الدوائر
المستعمعة في الاعتدال عن وصول إليها حرية نبل، تستشرك ذلك من
الكذب، حتى يحصل على معاشه ويحرص سماع ذلك منهم على ضوابط
لأن الأعمال السحرية تحصين ما ابتاعه من بعده، كقفاً شأراً لسحر متوارثاً
في ذلك انقطر عن أوليهم. فعومهم، للسحرية واثارها رقية بأرضهم في
لرأيي وغيرها، وقصة سحرة فرعون شاهدة باختصاصهم بذلك
وقد تنقل أهل المغرب قصيدة يسسوبها إلى حكماء لمشرق بعض فيها
كيفية العمل في التغوير بصناعة سحرية حسماً تره فيها وهي

يا ضالبا نسر في لتغوير	سمع كلام تصدق من حير
دع عنك ما قد صفوا في كنهم	من قول بهتد ولعظ عرور
واسمع لصدق مقاني وصيحي	إن كنت ممن لا يرى بانزور
فإذا ردت تعوير الشر التي	حارت لها لأفهم في التدير
صوّر كصور تلك التي وقفتها	ولرأس رأس أشن في لتقوير
ويدها مسكتان للحبل الذي	في الدلو يشل من قرار البر
وصدرة هاء كعب عاينته	عدد لطلاق احذر من التكرير
وطاء على الطقات غير ملامس	مشي اليب الكيس لتحرير
ويكون حول لكس حظ دائر	تربيعة أولى من التكويسر

١. مصر بهتد، وما معده من سورة لأع ف
٢. بردهد سب في [ب]

واذبح عليه الضير والطحخه به واقصد عقيب الذبح بالتبخير
بالسندروس وباللنان ومايغّه والقُسطُ والسسه بثوب حرير
من أحمر أو أصفر لا أزرق لا أخضر فيه ولا تكدير
ويشده خيطان صوف أبيض أو أحمر من خالص التحمير
والطائع الأسد الذي قد بينوا ويكون بدرُ الشهر غير مُنير
والبدر متصل بسعد عطار د في يوم سبت ساعة التدبير

يعني تكون الطائآت بين قدميه كأنه يمشي عليها.
وعندي أن هذه القصيدة من تمويهات الممخرقين، فلهم في ذلك أحوال
عربية و اصطلاحات عجيبة. وتنتهي المخرقة والكذب بهم إلى أن يسكنوا
لمدرل المشهورة والدور المعروفة بمثل هذا، ويحتفرون بها الحفر، ويصنعون
فيها المضيق والشواهد التي يكتبونها في صحائف كذبهم، ثم يقصدون
صعفاء الحقول بأمثل هذه الصحائف، ويبعثونه على اكتراء ذلك المنزل
وسكنده، ويوهمونه أن به دفيئًا من المال لا يعبر عن كثيرته، ويطالبونه بالمال
لاشتراء العقاقير والبخورات لحل الطلاسم، ويعِدونه بظهور الشواهد التي قد
عُدوها هنالك بأنفسهم ومن فعلهم. فينبعث بما يراه من ذلك، وهو قد خُدع
وأنس عليه من حيث لا يشعر. وبينهم في ذلك اصطلاح في كلامهم يسسون
به عبيهم لتحمي عنهم محاورتهم فيما يتناولونه من حفر وبخور وذبح حيوان
وأمثل ذلك. وأما الكلام في ذلك فلا أصل له في علم ولا خبر.
وعلم أن الكنوز وإن كانت توجد، لكنها في حكم النادر وعلى وجه
الانفوق، لا عني وجه القصد إليها. وليس ذلك بأمر تُؤم به البلوى حتى يذخر
أنفس غالبًا أموالهم تحت الأرض ويختمون عليها بالطلاسم، لا في القديم ولا

وأما ما وقع في مصر من أمر المطالب والكنوز، فسيبه أن مصر كست في ملكة القبط منذ ألفين اثنين أو تزيد من السنين . وكان موتاهم يُدفنون بجوحدهم من الذهب والفضة والجواهر واللآلئ على مذهب من تقدّم من أهل لدول . فلما انقرضت دولة القبط وملك الفرس بلادهم نقروا عن ذلك في قبورهم وكشفوا عنه . فأخذوا من قبورهم ما لا يوصف ، كالأهرام من قبور الملوك وغيرها . وكذا فعل اليونانيون من بعدهم ، وصارت قبورهم مظنة لذلك لهذا العهد . ويُعثَر على الدفين فيها في كثير من الأوقات ، إما ما يدفنونه من أموالهم أو ما يكرمونه به موتاهم في الدفن من أوعية وتوابيت من الذهب والفضة مُعدّة لذلك . فصارت قبور القبط منذ آلاف السنين مظنة لوجود ذلك فيها . ولذلك عسى أهل مصر بالبحث عن المطالب لوجود ذلك فيها واستخراجها حتى أنهم حين ضُربت المكوس على الأصناف آخر الدور . ضُربت على المطالب وصارت ضريبة على من يشتغل بذلك من الحمقى ونهوسين فوجد بذلك المتعاضون له من أهل الأطماع الذريعة إلى الكشف عنه والزعم باستخراجه . وما حصلوا إلا على الخيبة في جميع مساعيهم .

نعوذ بالله من الخسران .
فيحتاج من دُفع إلى شيء من هذا الوسواس أو ابتلي به أن يتعوّد بالله من العجز والكسل في طلب معاشه كما تعوّد رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، وينصرف عن طرق الشيطان ووسواسه ، ولا يشغل نفسه بالمحالات والكاذب من الحكايات .
والله يرزق من يشاء بغير حساب⁽¹⁾ .

(1)، آيات 212 من سورة البقرة (2)، 37 من سورة آل عمران (3)، 38 من سورة النور (24) .

[5] في أن الجاه مفيد للمال

ودئت أنا نجد صاحب الجاه والخطوة في جميع أصناف المعاش أكثر يسراً
وثروة من فاقد الجاه . والسبب في ذلك أن صاحب الجاه مخدوم بالأعمال،
يُتَقَرَّبُ بها إليه في سبيل التزلف والحاجة إلى جاهه، فلباس معيونه
وأعمالهم في جميع حاجاته من ضروري أو حاجي أو كمالي، فتحصل قيم
ملك الأعمال كلها من كسبه. وجميع ما شأنه أن يُبدل فيه الأعوان من لعمري
يستعمل بها الناس من غير عوض، فتتوفر قيم تلك الأعمال عليه فهو بين
قيم للأعمال يكتسبها وقيم أخرى تدعوه الضرورة إلى إخراجها فتتوفر عليه
والأعمال لصاحب الجاه كثيرة، فيفيد الغنى لأقرب وقت، ويزداد مع الأيام
يساراً، وثروة. ولهذا المعنى كانت الإمارة أحد أسباب المعاش، كما قدّمه⁴.
وفقد الجاه بالكلية ولو كان صاحب مال فلا يكون يساره إلا بمقدار ما له
وعلى نسبة مغيه. وهؤلاء هم أكثر التجار. ولهذا تجد أهل الجاه منهم
يكونون أيسر بكثير.

وعى بشهد بذنت أما كثرًا من الفقهاء وأهل الدين والعادة إذا اشتهر
 حسن الظن بهم وعتقد الجمهور معاملة الله في إرفادهم فأخص الناس في
 عنايتهم على أحوال دينهم والاعتماد في مصالحهم، أسرع إليهم لثروة،
 وأصبحوا ميسرين من غير مال مقني، لا ما يحصل لهم من قيم الأعمال التي
 وقعت المعونة بها من الدس لهم. رأيت من ذلك عداؤ في لأمصار والمدب
 وفي لبدوء يسعى لهم الناس في الفلح والتجر وهو قاعد بمنزله لا يبرح من
 مكانه. فينمو ماله ويعظم كسبه ويتأثر الغنى من غير سعي. ويعجب من لا
 يفضن لهذا لسر في حال ثروته وأسباب غده ويسره.
 والله يرق من يشاء بغير حساب^{١٨}.

[6] في أن السعادة والكسب إنما تحصل غالباً لأهل
الخضوع والذل وأن هذا الخلق
من أسباب السعادة

قد سبق لنا فيما سلف " أن الكسب الذي يستفيذه البشر إنما هو قيم أعمالهم. ولو قُدِّرَ أحد عاطلاً عن العمل جملةً فكان فاقده الكسب بالكلية. وعلى قدر عمله وشرقه بين الأعمال وحاجة الناس إليه يكون قدر قيمته، وعلى نسبة ذلك ثمُّ كسبه أو نقصانه. وقد بينا آنفاً " أن الجاه مفيد للمال بما يحصل لصاحبه من تقرب الناس إليه بأعمالهم وبأموائهم في دفع المضار وجلب المنافع. وكأن ما يتقربون به من عمل أو مال عَوَّض عما يحصلون عليه بسبب الجاه من كثير، لأغراض في صالح أو طالح، وتصير تلك الأعمال في كسبه، وقيمها أموال وثروة له، فيستفيد الغنى واليسار لأقرب وقت.

ثم إن الجاه متوزع في الناس ومرتب فيهم طبقاً بعد طبق، ينتهي في العدو إلى الملوك الذين ليس فوقهم يد غالبية، وفي السلم إلى من لا يملك صراً ولا معاً بين ساء جنسه. وبين ذلك طبقات متعددة، حكمة من الله في حقيقته بما ينظم معاشهم وتيسر مصالحهم ويتم بقاؤهم. لأن النوع الإنساني لما كان

* هذا الفصل به رد في [ب]

(١) مصر ص 249، 250 أعلاه.

(٢) مصر ص 259، 260 أعلاه.

لا يتم وجوده وبقاؤه إلا بتعاون أسائه على مصاحبه، لأنه قد تقرر أن لو اُحد منهم لا يتم وجوده، وأنه وإن نذر ذلك في صورة متروكة، فلا يصح بقاؤه. ثم إن هذا التعاون لا يحصل إلا بالإكراه عليه لجهلهم في الأكثر بمصالح النوع، ولما جعل الله لهم من الاختيار، وأن فعلهم إنما تصدر بالفكر والروية، لا بالطبع. فقد يمتنع من المعاونة، فيتعين حمده عليها. فلا بد من حامل يكره أبناء النوع على مصاحبه لنته حكمة الإلهية في بقاء هذا النوع. وهذا معنى قوله : وجعلنا بعضكم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون*.

فقد تبين أن معنى الجاه هو لقدرة الحامية للبشر على التصرف فيمن تحت أيديهم من أبناء جسمهم بالإذن والمنع والتسبب فيهم بالفكر ولغبة ليحتمهم على دفع مضارهم وجبت منهم في العدل وبأحكام الشرع أو السياسة، وعلى أغراضه فيما سوى ذلك. لكن الأول مقصود في العناية الربانية بالذات، والثاني داخل فيها بالعرض كسائر الشرور الدخلة في القضاء الإلهي. لأنه قد لا يتم وجود خير الكثير إلا بوجود شر يسير من أجل المواد. فلا يفوت الخير لذلك، بل يقع على ما ينطوي عليه من الشر اليسير. وهذا معنى وقوع الظلم في الحقيقة، فتفهم.

ثم إن كل طبقة من طباق أهل عمران من مدينة أو قرية لها قدرة على من دونها من الطباق. وكل واحد من الطبقة السفلى يستمد هذا الجاه من أهل الطبقة التي فوقه ويزداد كسبه تصرفاً فيمن تحت يده على قدر ما يستفيد منه. والجاه مع ذلك داخل على الناس في جميع أبواب المعاش، ويتسع ويضيق بحسب الطبقة ولطور الذي فيه صاحبه. فإن كان الجاه متسعاً كان الكسب التمشي عنه كذلك، وإن كان ضيقاً وقبلاً فمشته وفاقد حبه. ولو كان له من، فلا يكون يسره إلا بمقدار عمله أو ماله وعلى نسبة سعيه ذهاباً وحيث في

تتميته كأكثر التجار وأهل الفلاحة في الغالب. وأهل الصنائع كذلك إذ فقدوا الحدة واقتصروا على فوائد صنائعهم فيأنهم يصيرون إلى الفقر والخصاصة في الأكثر. ولا تسرع إليهم ثروة، إنما يرمقون العيش ترميقاً ويدفعون ضرورة الفقر مدافعة.

وإذا تقرر ذلك وأن الجاه متوزع وأن السعادة والخير مقتربان بحصوله. علمت أن بذله وإادته من أعظم النعم وأجلها، وأن نازله من أجل المنعمين. وبما يبذنه لمن تحت يده، فيكون بذله بيد عالية وعن عزة، فيحتاج طالبه ومبتغيه إلى خضوع وتلق كما يسأل أهل العز والملوك. وإلا فيتعذر حصوله. فبذلك قدنا إن الخضوع والتلق من أسباب حصول هذا الجاه المحصل للسعادة والكسب. وأن أكثر أهل الثروة والسعادة بهذا الخلق. ولهذا نجد الكثير من يتخلق بالترفع والشمم لا يحصل لهم غرض من الجاه، فيقتصرون في التكسب على أعمالهم ويصيرون إلى الفقر والخصاصة.

واعلم أن هذا الكبر والترفع من الخلق المذمومة إنما يحصل من توهمة الكمن، وأن الناس يحتاجون إلى بضاعته من علم أو صناعة كالعلم لتسخر في علمه، والكاتب المجيد في كتابته، والشاعر البليغ في شعره، وكل محسن في صناعته يتوهم أن الناس محتاجون إلى ما بيده، فيحدث له ترفع عندهم بذلك. وكذا يتوهم أهل الأنساب ممن كان في أبائهم ملك أو عالم مشهور أو كمن في طوره يعتزون بآراءه أو سمعوه من حائ أباؤهم في المدينة، ويتوهمون أنهم استحقوا مثل ذلك بقرابتهم إليهم ووراثتهم عنهم. فهم متمسكون في الحاضر بالأمر المعدوم، إذ الكمال لا يورث. وكذلك أهل الحنكة والتحارب والبصر بالأمور قد يتوهم بعضهم كملاً في نفسه بذلك وحباً إليه. وتعد هؤلاء الأصناف كلهم مترفعين لا يخضعون لصاحب حده، ولا يتملقون لمن هو أعلى منهم، ويستصغرون من سواهم لاعتقادهم الفصل على الناس. فيستكف أحدهم عن الخضوع، ولو كان لعمرك. وبعده مدته وهو أنا وصفها، ويحاسب الناس في معاملتهم إياد بمقدار ما يتوهم في

عسفه، ويخفف عني من قَصْرِه في شيء مما يتوقفه من دين. ويرى يدخل عني
عسفه الهموم والأحزان من تقصيرهم فيه، ويستمر في غناء عظيم من يحب
الحق لنفسه ورياسة الناس له من دين. ويحصل له مقت في الناس ما في صدق
نشر من نأته وقلب يسلم أحد منهم لأحد في كمال والترفع عليه، لا
أن يكون دين نوع من لقهر ولعنة والاستطالة وهذا كله هي صمم الحاد
فإن فقد صاحب هذا الحق خاه، وهو مفقود له كما تبين لك، مقت الناس
بهذا سرق، ولم يحصل له حظ من إحسانهم ففقد الجاه لذلك من أهل
الطاقة التي هي أعلى منه لأجل المقت وما يحصل له بذلك من انقعود عن
عهدهم وعشبات مذلهم ففسد معاشه وبقي في حفاضة وفقر أو فوق
ذلك يقبل وما للثروة، فلا تحصل له ضللاً ومن هذا شهير بين الناس أن
لكم في معرفة محروم من حظ، وأنه قد حوسب يد رقيق من معرفة
واقطع له ذلك من حظ وهذا معده ومن خلق شيء يسره وأمه المقدرة،
لأرب سوه

ولقد يقع في الدول اضطراب في مراتب من أجل هذا الخلق، ويرتفع
فيه كثير من السفينة ويبرز كثير من العنة بسبب دين وذلك أن الدول إذا
دعت عايتها من التعنت والاستيلاء، وبغداد منها مست الملك عنكم
وسيطهم ويئس سوه من دين، ويرى صارو في مراتب دول مرتبة الملك
وتحت يد السطاط وكثيهم حور به، فإذا استمر الدولة وشمع الملك،
نسوى حسد في منزلة عند السطاط كل من ينمى إلى خدمته وتقرب إليه
بصحبته، وصنع السطاط عبائه في كثير من مهماته، فتجد كثير من
سوقة يسعى في تقرب من السطاط بحده وبصحبه، ويتزلف إليه بوجوه
خدمته، ويسعين عني ذلك معظم من الخسوع والتمني به وحاشيته وأهل
سبه، حتى ترسخ قدمه معهم ويظمه السطاط في حمته فيحصل له ذلك
حظ عظيم من السعادة، وينظم في عدد أهل الدولة

وإشنة الدولة حيث من ثناء قوهم لدين دأبو صعاها ومهدوا أكنافها
 معتزّون عما كان لأبائهم في ذلك من لأثر، نسمح به قوسهم على السطون
 ويعتدّون بأثره ويحرون في مصمر الدالة بسسه فيمقتهم لسطون لدنك
 ويسعدهم، ويميل إلى هؤلاء المصطنعين الذين لا يعتدّون بقديم ولا يدهون
 إلى دالة ولا ترّفع. إى دأبهم لخصوع له والتمنّى والاعتماد في عرصه متى
 ذهب إليه فينسح حاههم وتعو منازلهم وتصرف إليهم لوجوه وخواصّ
 عد يحصل لهم من مبل لسلطن وامكانه عده ويفى إشنة الدولة فيما هم
 فيه من لترّفع ولاعتدّ بالقديم. لا يزيدهم ذلك لا نعدّ من السلطن ومقتّ
 ويشترّ هؤلاء المصطنعين عليهم، إلى أن تقرص دولة وهذا أمر طبيعي في
 لدول، ومنه جاء شأن المصطنعين في لعب
 والده فعال لما يريد

[7] في أن لقائهم بأمر الدين من القضاء والفتيا والتدريس والإمامة والخطابة والأذان ونحو ذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب*

والسبب في ذلك أن الكسب، كما قدمناه^١، قيمة الأعمال. وأنها متفاوتة بحسب الحاجة إليها. فإذا كانت لأعمال ضرورية في العمران عامة لسوى فيه، كانت قيمتها عظم وكانت حاجة إليها شدة. وأهل هذه الصنائع لدينية لا يضطر إليهم عمدة الحق، ولا يحتاج إلى ما عندهم الخواص من أقل على دينه ولا احتياج إلى الفتا والتقصاء في الخصومات. فليس على وجه لا يضطر والعموم. فبيع الاستعداد عن هؤلاء في الأكثر، وبما يهت بهم وبإقامة مراسمهم صاحب الدولة من النظر في المصالح فيقسم لهم حصاً من الترفق على نسبة حاجة إليهم على النحو الذي قرأناه، لا يساويهم أهل الشوكة ولا أهل الصنائع الضرورية. وإن كانت بصاعتهم شرف من حيث الدين ونرايسه شرعية. لكنه يقسم بحسب عموم الحاجة وضرورة أهل العمران، فلا يصح في قسمتهم إلا للقليل وهم أيضاً لشرف صائغهم أعزة على الحق وعند نفوسهم، فلا يحصعون لأهل حياه حتى ينالوا، منه خطأ

* هذا الفصل من ردمي [١-]

(١) ص ١٤٧ ١٤٨ علاه

يستدرون به الرزق بل ولا تفرغ أوقانهم لذلك ما هم فيه من شغل بهذه
لصنع لشريعة مشتمة على الفكر والدين، بل ولا يسعهم ابتدئ أنفسهم
لأهل الذنب لشرف بضائعهم. فهم معزل عن دينك ولذلك لا تعظم ثروتهم
في الغالب.

ولقد باحثت بعض انفصلاء وكرهت عبي فوقع بيدي رزاق محزنة
من حسرات الدو، وين بدر للأمور تشتمل على كثير من لدن واجر
يومئذ، وكان فم طنعت في رزاق القصة والأئمة والمؤدين، فوقعت عليه،
وعدم منه صحة ما قلته وزجع إليه. وقصيا العجب من أسرار الله في حقيقته
وحكمته في عوالمه
والله خالق المقدر.

[8] في أن الفلاحة من معاش المستضعفين وأهل العافية من البدو*

وذلك لأنه أصل في الطبيعة وبسيط في منعه . ولهذا لا نجده ينتحله أحد من أهل الحضرة في الغلب ولا من المترفين ، ويختص منتحله بالمذلة . قال صلى الله عليه وسلم ، وقد رُئِيَ السَّكَّةَ ببعض دور الأنصار : ما دخلت هذه دار قوم إلا دخلها الذلُّ²⁰ . وحمده البخاري على الاستكثار منه ، وترجم عليه باب ما يُحذَر من عواقب الاشتغال بألة الزرع أو تجوز الحد الذي أمر به .
والسبب فيه ، والله أعلم ، ما يتبعه من لغرم لمفضي إلى التحكم واليد الغلبة . فيكون الغارم ذليلاً بائساً بما تتدوله أيدي القهر والاستطانة . قال صلى الله عليه وسلم : 'ألا تقوم الساعة حتى تعود لزكاة مغرمًا ، إشارة إلى المنك العضوض لقاهر للذليل الذي معه التسط والجور وسين حقوق الله تعالى في الممتلكات واعتبار الحقوق كلها مغارم لملوك والدول .
والله قادر على ما يشاء .

* هذا الفصل - بره - في [ب]

(26) مصر ج 1 ، 18 ، ص 232

[9] في معنى التجارة ومذاهبها وأصنافها

اعلم أن معنى التجارة محاولة على الكسب بتنمية المال في شراء السلعة بالرخص وبيعها بالغلاء ما كانت السلعة من رقيق، أو زرع، أو حيوان، أو سلاح، أو قماش. وذلك القدر النامي يسمّى ربحاً. والمحاولة لذلك الربح إما بأن تختزن السعة ويُتَحَيَّنُ بها حوالة السوق من الرخص إلى الغلاء، فيعْضَمُ ربحه. وإما بأن ينقله إلى بلد آخر تنفق فيه تلك السلعة أكثر من بلده الذي اشتراها فيه، فيعْظَمُ ربحه. ولذلك قال بعض الشيوخ من التجار لطالب الكشف عن حقيقة التجارة: "أنا أعلمكها في كلمتين: اشتري الرخيص وبع الغالي، وقد حصلت التحفة". إشارة بذلك إلى المعنى الذي قرّره. والله الرزاق ذو القوة المبین²¹.

* هذا الفصل له مرادي [ب]

21، به 58 من سورة الذاريات (51)

[10] في نقل التاجر لسلع

التاجر البصير بالتجارة لا ينقل من لسلع إلا ما تعم الحاجة إليه من الغني إلى الفقير ولسطن والسوقة، إذ في ذلك نفق سلته. وأما إذا اختصر نقه بما يحتاج إليه لبعض فقط، فقد يتعدّر نفذ سلته حينئذ بإعواز الشراء على ذلك البعض لعرض من العورض، فتكسّد سوقه ونفسد أرباحه.

وكذلك إذا نقل لسلعة المحتاج إليها، فإنما ينقل الوسط من صنفها، فإن لغالي من كل صنف من السلع إنما يختصر به أهل الثروة وحاشية لدونة، وهم الأقل، وإنما يكون الناس إسوة في الحاجة إلى الوسط من كل صنف، فيتحرّ ذلك جهده، ففيه نفق سلته أو كساده.

وكذلك نقل السلع من لبدن البعيدة المسافة أو في شدة الخطر في نظرت يكون أكثر فائدة للتجارة وأعظم أرباحاً وأكفل بحالة الأسواق، لأن السلع المتقولة حينئذ تكون قليلة معورة لعد مكانها أو شدة الغرر في طريقها، فيقل حاملوها وعز وحودها وإذا قلت وعزت أثمانها ولم يدا كان السد قريب المسافة واضطرب سبل بالأمس، فيه حينئذ يكثر ناقوها، فتكثر وترحص أثمانها

ولهذا نجد التجار الذين يولعون بالدخول إلى بلاد السودان رُفِه ناس
وأكثرهم أموالاً لبعده ضريقهم ومشقته واعتراض المقازة الصعبة المحظرة
ساخوف ولا عطش لا يوجد فيها الماء إلا في أماكن معلومة يهتدي إليها
دلاء المركب فلا يرتكب هذا الطريق وبعده إلا الأقل من الناس، فتجد سبع
بلاد سودان قليلة لدنيا، فتختص بالغلاء، وكذلك سلعت لديهم فتعظم
بضائع التحاز من تناقلها، ويسرع إليهم الغنى والثروة من أجل ذلك. وكذلك
لمسافرون من بلادنا إلى المشرق لبعده الشقة أيضاً. وأما المترددون في الأفق
الموحد ما بين أمصاره وبنادنه ففائدتهم قليلة وأرباحهم تافهة لكثرة السبع
وكثرة ناقلها.

والله الرزاق ذو القوة المتين.

لعد لشقة أيضاً والمحظر وأما [ب]
(22) آية 58 من سورة النازيات (51)

[11] في الاحتكار

ومما اشتهر عند ذوي البصر والتجربة في الأمصار أن احتكار الزرع لنحس
أوقات العلاء به مشؤوم، وأنه يعود على فائدته بالتلف والخسران ومسه.
والله أعلم، أن الناس لحاجتهم إلى الأقوات مضطرون إلى ما يذلولون فيها من
الضرر صغراً، فبقى النفوس متعلقة به. وفي تعلق النفوس بما لها سِرّ كبير
في دونه على من يأخذه مجاناً. ولعله الذي اعتبره الشارع في أخذ أموال
الناس بالاحول وهذا، وإن لم يكن مجاناً فالنفوس متعلقة به لإعطائه ضرورة
من غير سعة في العذر، فهو كالمكره. وما عدا الأقوات والمأكولات من
لمبيعات لا اضطرار للناس إليها. وإنما يبعثهم عليها التفتن في الشهوات. فلا
يذنون أموالهم فيها إلا باختيار وحرص، ولا يبقى لهم تعلق بما أعطوه. فلهذا
يكون من عُرف بالاحتكار تجتمع القوى النفسانية على متاعته بما يأخذه من
أموالهم، فيمسد ربحه. والله أعلم.

* بهية الحمة في [ب]

وسمعت فيما يناسب هذا حكاية طريفة عن بعض مشيخة المغرب أحري شيخنا أبو عبد الله الأبنى قال : ' حضرت عند القاضي نفاس لعهد السطاب أبي سعيد، وهو الفقيه أبو الحسن المليلي، وقد عرض عليه أن يحتر بعض لألقاب المخزنية جرايته، قال : فأطرق ملياً ثم قال لهم : 'من مكس الخمر'. فستضحك الحاضرون من أصحابه وعجبوا، وسألوه عن حكمة ذلك، فقال : إذا كانت الجبايات كلها حراماً فأختار منها ما لا تتابعه نفوس مُعْطِيه. وخمر قل أن يذن أحد فيها ماله إلا وهو طرب مسرور بوحده غير أسف عليه ولا متعق به". وهذه ملاحظة غريبة. والله تعالى أعلم.

* أسفه على إخراج ثمنه، ولا [ب]

[12] في أن رخص الأسعار مُضِرٌّ بالمحترفين بالرخص

وذلك أن الكسب والمعاش، كما قدّمناه، إنما هو بالصنائع أو التجارة و لتجارة هي شراء البضائع والسلع وإدخالها، تُحْتَجَّن بها حوائج الأسواق - ردة في أثمانها، ويسمى ربحاً. ويحصل منه الكسب والمعاش للمحترفين لتجارة دائماً. فإذا استُديم الرخص في سلعة أو عرض من مأكول أو منسوس أو متمول على الجملة، ولم يحصل للتاجر حوائج الأسواق فيه، فقد يُربح والسماء بطول تلك المدة، وكسدت سوق ذلك الصنف، ولم يحصل التاجر إلا عسى النماء فيقعد التجار عن السعي فيها، وتفسد رؤوس أموالهم.

واعتبر ذلك مثلاً بالزراعة إذا استُديم رخصه كيف تفسد أحوال المحترفين به في سائر أطواره من الفلح والزراعة لقلة الربح فيه ونزارته أو فقده. فيفقدون النماء في أموالهم أو يجدونه على قلة، ويعودون بالانفاق عسى رؤوس أموالهم، وتفسد أحوالهم، ويصيرون إلى الفقر والخصاصة. ويتبع ذلك فساد حال المحترفين أيضاً بالطمس والخنز وسائر ما يتعلق بالزراعة من خرف من لدن رراعتة إلى مصيره مأكولاً. وكذا يفسد حال الجند إذا كانت

أوراقهم من السلطان عند أهل الفلح زرعا بالإقطاع . فإتهم نقلُ حبايتهم من ذلك . ويعجزون عن إقامة الجندية التي هم بسببها ويرتزقون من السلطان عبيها . فيقطع عنهم الرق وتفسد أحوالهم . وكذا إذا استُديم الرخص في العسل والسكر فسد جميع ما يتعلّق به ، وقعد المحترفون به عن التجارة فيه . وكذا حال الملابس إذا استُديم فيها الرخص أيضا .

فإذن ، الرخص المفرط مجحف بمعاش المحترفين بذلك الصنف الرخيص ، وكذا لغلاء المفرط أيضا . وربما يكون في النادر سببا لنماء المال بسبب احتكركه وعظم فائدته . وإنما معاش الناس وكسبهم في التوسُّط من ذلك وسرعة حوالة الأسواق . ومعرفة ذلك ترجع إلى العوائد المتقررة بين أهل العمران .

ويمتدح الرخص في الزرع من بين المبيعات لعموم الحاجة إليه واضطرار الناس إلى الأقوات من بين الغني والفقير . والعاله من الحق هم الأكثر في العمران . فبعم الرق بذلك وبرجح جانب القوت على جانب التجارة في هذا الصنف الخاص . والله الرزاق ذو القوة المتين²¹ .

(21) انظر حاشية رقم 21

[13] في أي أصناف الناس ينتفع بالتجارة وأيهم ينبغي له تركها

قد تقدم لنا أن معنى التجارة تنمية المال بشراء البضائع ومحاولة بيعها بأغنى من ثمن الشراء، إما بانتظار حولة لأسواق، أو نقلها إلى بلد هي فيه أنفق وأغلى، أو بيعها بالغلاء على الأجل. وهذا الربح بالنسبة إلى أصل المال زربسیر، لأن المال إن كن كثير عظم الربح لأن القليل في الكثير كثير. ثم لا بد في محاولة هذه التنمية لذي هو ربح من حصول هذا المال بأيدي لباعة في شراء البضائع وبيعها وتقاصي أثمانها، وأهل النصفة منهم قسیر. فلا بد من غش والتطفيف المُجحف بالبضائع والمطل في الأثمان المُجحف بالربح لتعطيل المحاولة في تلك لمدة، وبها ثماؤه، ومن الجحود والإبكار نسحت لرأس المال إن لم يقيّد بالكتاب ولشهادة. وعنده أحكام في ذلك قليل، لأن الحكم إنما هو على الظاهر. فيعني التجار من ذلك أحوالاً صعبة، ولا يكاد يحصل على ذلك ثمنه من الربح إلا بعظيم لعناء والمشقة، أو لا يحصل ويتلاشى رأس ماله في كان جرئت على حصومة نصر بحسب شديد امحاكة مقدماً على الحكم، كان ذلك أقرب له إلى الصعة منهم بجرأته وحمكته. وإلا فلا بد له من جاهد يدرع به فيوقع له الهبة عند الدعة ويحمل الحكم على بصافه من غرمائه فتحصل له بذلك نصفه

واستخلاص ماله منهم طوعاً في الأول وكرهاً في الثاني. وأما من كان فاقداً
الخبرة والإقدام من نفسه، وفاقد الجاه من احكام، فينبغي له أن يجتنب
التجارة، لأنه يعرض بماله للذهاب والمضيعة ويصير مأكلة للناس، ولا يكاد
ينتصف منهم لأن الناس في الغالب متطلعون إلى ما في أيدي الناس، ولولا
ورع الأحكام ما سنم شيء مما في يده، وخصوصاً الباعة وسفلة الناس
ورعاعهم. ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض. ولكن لله
ذو فضل على العالمين^(١).

24 هـ 29 من سورة تفسره (٧)

[14] في أن خُلق التجارة نازلة عن خُلق الرؤساء ويعيدة عن المروءة^٧

قد قدّمنا في الفصل قبله أن التاجر مدفوع إلى معانة البيع ولشراء وجلب الفوائد والأرباح، ولا بد في ذلك من المكايسة والمحاكة والتحذلق وممارسة الخصومات واللجاج، وهي عوارض هذه الحرفة. وهذه الأوصاف تغضّ من لزكاء والمروءة وتخدج فيها. لأن الأفعال لا بد من عود أثرها على النفس. فافعل الخير تعود بأثار الخير ولزكاء، وأفعال الشر والسفسفة تعود بضد ذلك. فتمتكن وترسخ إن سقت وتكرّرت، وتنقص من خلال الخير إن تأخّرت عنها بما ينطبع من أثارها المدمومة في النفس، شأن الملكات الناشئة عن الأفعال.

^٧ هذا الفصل به يرد في [ب]، وهو مصدق في ورقة منقحة في (ح)، وورد بروية مختلفة في صبعة بولاق ومخطوطة (د)، وهي كالتالي:

وذلك أن التجاري غالب أحوالهم بما يعانونه البيع والشراء، ولا بد فيه من المكايسة ضرورية فإن فشصر عليها اقتصررت به على خلقها وهي أعني حق المكايسة، بعيدة عن المروءة لئلا يتحقق بها للمولك والأشراف. وأما سزرد حقيقه ي يتبع ذلك في أهل الطبقة السمي منهم من امحاكة والعش والخلانة ومعه لا يناد لكادة على الأنصار، ودولا فأحذر بذلك الخلق أن يكتوب في عاية امدة، له هو معروف. ولديك تعد أهل للرئاسة يتحامون لاحتزاف بهذه خرفة لأهل ما يكسب من هذا الخلق وقد يوحد منهم من سبهم من هذا الخلق ويتحاماه لشرف نفسه وكرمه جلالة. إلا أنه في لاسد من لوجود وانه يهدي من يشاء بعصمه وكرمه

وتعدت هذه الآثار بتفاوت أصناف التجار في أطوارهم. فمن كان منهم سافل لطور، مخالطاً لشرار الناعة أهل الغش والخلافة والفجور في الأيمان عسى السبغات والأثمان إقراراً وإنكاراً، كانت رداءة تلك الخلق عده أشد، وعلت عليه السفسفة، وبعد عن المروءات واكتسابها بالحيلة، ولا فلا بد له من تأثير المكايسة والمماحكة في مروءته. وفقدان ذلك فيهم بالخمسة قنيل ووجود الصنف الثاني منهم الذي قدّمنا في الفصل قبله أنهم يدّعون بلجة ويعوض لهم من مباشرة ذلك، فهم نادر وأقل من السادر. وذلك أن يكون لذل قد توفّر عنده دفعة بنوع عريب، أو ورثه عن أحد من أهل بيته، فحصدت له ثروة تعينه على الاتصال بأهل الدولة وتكسبه ظهوراً وشهرة بين أهل عصره، فيترفع عن مباشرة ذلك بنفسه ويدفعه إلى من يقوم له به من وكلائه وحشمه، ويسهل لهم الحكام النصفة في حقوقهم بما يؤنسونه من برّه وتحافه. فيبعدون عن تلك الخلق بالبعد عن معاناة الأفعال المقتضية لها كما مر. فتكون مروءتهم أرسخ وأبعد عن المخذجات، إلا ما يسري من آثار تلك الأفعال من وراء الحجاب. فيتهم يضطرون إلى مشاركة أحوال وللائث لو كلاء ووافقهم أو خلافهم فيما يأتون ويدرون من ذلك، إلا أنه قليل، ولا يكاد يظهر أثره. والله خلقكم وما تعملون⁽²⁵⁾.

(25) آية 96 من سورة الصفات (37)

[15] في أن الصنائع لا بد لها من المعلم

علم أن الصناعة هي مَلَكة في أمر عملي فكري. وبكونه عملياً هو جسماني محسوس، والأحوال المحسوسة، فتقدها بالمباشرة أو عبثاً لها وأكمل، لأن المباشرة في الأحوال المحسوسة ثم ثابته. والملكة صفة راسخة تحصل عن استعمال ذلك الفعل وتكرره مرة بعد أخرى حتى ترسخ صورته. وعلى نسبة الأصل تكون الملكة ونقل المعاينة أو عبثاً ونتم من نقل الخبر ولعلم. فالملكة الخاصة عنه أكمل ورسخ من الملكة الحاصلة عن الخبر. وعلى قدر جودة التعليم وملكة المعلم يكون حذق المتعلم في الصناعة وحصول ملكته.

ثم إن الصنائع منها البسيط ومنها مركب. والبسيط هو الذي يختص بالضروريات، والمركب هو الذي يكون لتكميلات. والمتقدم منها في التعليم هو البسيط لبساطته أولاً، ولأنه مختص بالضروري الذي تتوفر لدواعي على نقله فيكون سابقاً في التعليم، ويكون تعليمه لذلك ناقصاً ولا يزال لفكر يخرج أصنافها ومركباتها من القوة إلى الفعل بالاستنباط شيئاً فشيئاً على التدريج حتى تكمل ولا يحصل ذلك دفعة، وإنما يحصل في أزمان وأحوال.

إد حروح الأشياء من القوة إلى الفعل لا يكون دفعة، لا سيما في أمور
الصناعية فلا بد له إذاً من زمان. ولهذا يجد الصانع في الأمصار لصعيرة
صعبة، ولا يوجد منها إلا البسيط. فإذا تزايدت حضارتها ودعت أمور لتعرف
فيها إلى استعمال الصنائع، خرجت من القوة إلى الفعل .
والله أعلم

بريد [ب] مفتحة ثالثة : وتنقسم انصائع أيضاً إلى ما يحتص بأمر المعاش ضرورياً كان أو غير
ضروري، وإلى ما يحتص بالأفكار التي هي حافية الإنسان من العلوم والصنائع الراجعة إليها أو
سبقة ومن الأول الحياكة والنجارة والتجارة والحداثة وأمثالها، ومن الثاني أمور فقه، وهي معناه
يكتب بالانصاح والجليد، والعناء والشعر وتعليم النعم وأمثال ذلك ومن ثلث خدمة
وأمانها والله أعلم

[16] في أن الصنائع إنما تكمل بكمال

العمران الحضري وكثرته

والسبب في ذلك أن الناس ما لم يُستوفَ العمران الحضري وتتمدد المدينة، غمَّ همُّهم في الضروري من نَعلٍ، وهو تحصيل 'الأقوات' من الحنطة وغيرها. فإذا تمدَّت المدينة وتزِيدت فيها 'الأعمال' ووفت بالضروري وردت عليه، صُرِفَ نِزائِد حينئذ إلى لِكَمالات من المعاش.

ثم إن الصنائع والعلوم إنما هي للإنسان من حيث فكره الذي يتميز به عن الحيوانات، ولقوت له من حيث حيوانية وغذائية. فهو مقدَّم لضروريته على العلوم والصنائع، وهي متأخرة عن الضروري. وعلى مقدَّر عمره البَدء تكون جُودة الصنائع لتتأقَّ فيها حينئذ وجُودة ما يُطَلَّب منها بحيث دواعي الترف والثروة.

وأما لعمران البدوي والقبيل، فلا يحتاج من الصنائع إلا البسيط خاصة المستعمل في لُضرورات من نَجَر، وحَدَد، وخَيْط، أو حَزَار، أو حائل. وإذا وُجِدَت هذه بعد، فلا يوجد فيه كاملة ولا مستحقة، وإنما يوجد منها بمقدار الضرورة، إذ هي كلها وسائل إلى غيرها وليست مقصودة لذاتها. وبد زُخَر العمران وُضِيت فيها الكَمالات، كان من جمعتها لتتأقَّ في الصنائع واستحادتها. فكمست جميع مَنَمَنها وتزِيدت صنائع أخرى معها مما تدعو

إليه عوائد الترف وأحواله من خراز، وديباغ، وحرار، وصنائع، وأمثال ذلك وقد تنهي هذه الأصناف إذا استبحر العمران أن يوجد منها كثير من الكمالات وتأتى فيها في الغاية، وتكون من وجوه المعاش في المصر لمصالحها، بل تكون فائدتها من أعظم فوائد الأعمال لما يدعو إليه الترف في المدينة مثل لدهان، والصفار، والحنامي، والطباخ، والسفاج، والهزاس ومعتم المعاء وارقص والتمع في النوق وقرع الطبول على التوقيع، ومثل سور قب الدين يعانون صناعة انتساح الكتب وتجليدها وتصحيحها، فإن هذه صناعة إنما يدعو إليها الترف في المدينة من الاشتغال بالأمور الفكرية وأمثال ذلك. وقد تخرج عن الحد إذا كان العمران خارجاً عن الحد، كما يبلغنا عن أهل مصر أن فيه من يعلم الطيور العجم والحمر الإنسية ويخيل أشياء من العجائب بيهاهم قسب الأعيان، وتعليم الخداء والرقص، والمشى على الخيوط في الهواء، ورفع الأثقال من الحيوانات والحجارة، وغير ذلك من الصنائع التي لا توجد عندنا بالمغرب، لأن عمران أمصاره لم يبلغ عمران مصر والقاهرة، والله الحكيم لعليم^{٢٠}.

^{٢٠} وحرار، وأمثال [ب]

(26)، امة 32 من سورة أنقرة (2)

[17] في أن رسوخ الصنائع في الأمصار برسوخ الحضارة وطول أمدها

ونسب في ذلك ظاهر، وهو أن هذه كلها عوائد للعمران والوإن
ولعمري إن ترسخ بكثرة التكرار وطول الأمد، فتستحكم صيغة ذلك وبرسخ
في الأحوال وإذا استحكمت الصيغة عسر نزوعها. ولهذا فإننا نجد الأمصار
التي كانت استبحرت في الحضارة لما تراجع عمرانها وتناقص بقيت فيها آثار
من هذه الصنائع ليست في غيرها من الأمصار المستحدثة العمران، ولو
سعت مآلها في الوفور والكثرة. وما ذاك إلا لأن أحوال تلك القديمة العمران
مستحكمة راسخة بطون الأحقاب وتداول الأحوال وتكررها، وهذه لا تسع
الغاية بعد.

وهذا كالحال في الأدب لهذا العهد. فإننا نجد فيها رسوم الصنائع قائمة
وأحوالها مستحكمة راسخة في جميع ما تدعو إليه عوائد أمصارها كمناسبي،
ولطبخ، وأصناف الغناء واللهو من الآلات والأوتار والرقص، وتنفيذ
لفرش في القصور، وحسن الترتيب والأوضاع والبناء، وصوغ الآنية من
المعدن والخزف وجميع المواعين، وإقامة الولائم والأعراس، وسائر الصنائع
التي يدعو إليها اتزاف وعوائده. فتجدهم أقوم عليها وأبصر بها وتجد
صنائعهم مستحكمة لديهم. فهم على حصّة موفورة من ذلك وحظّ متميز بين
جميع الأمصار، وإن كان عمرانها قد تناقص والكثير منه لا يساوي عمران

غيره من بلاد لعدوة وما ذلك إلا لما قُدمناه من رسوخ الحضارة فيهم برسوخ لدولة الأموية وما قبلها من دولة القوط وما بعدها من دولة الطوائف إلى هلم فبغت الحضارة فيها مبلغاً ثم تبلغه في قطرٍ إلا ما يُنقل عن العراق ولشام ومصر أيضاً لطول أمد الدؤن فيها، فاستحكمت فيها الصنائع وكملت جميع صنفاها على الاستحادة والتنميق. وبقيت صبغتها ثابتة في ذلك لعمرون لا تفارقه إلى أن ينتقض بالكلية، حان انصم إذا رسخ في الثوب.

وكذا أيضاً حان تونس فيما حصل فيها من الحضارة بالدؤن لصنفاحية والمؤخذين من بعدهم وما استكمل لها ذلك من الصنائع في سائر الأحوال. وإن كان ذلك دون الأندلس، إلا أنه متضاعف برسوم منها تنتقل إليها من مصر لقرب المسافة بينهما وتردد المسافرين من قطرها إلى قطر مصر في كل سنة. وربما سكن أهلها ههناك عصوراً فيقنن من عوائد ترفههم ومحكم صناعهم ما يقع لديهم موقع الاستحسان. فصارت أحوالها في ذلك متشابهة من أحوال مصر لما ذكرناه، ومن أحوال الأندلس لما أن أكثر ساكنها من شرق لأندلس حين الجلاء لعهد المائة السابعة^{٢٧}. ورسخ فيها من ذلك أحوال. وإن كان عمرها ليس بمناسب لذلك نهذا العهد إلا أن الصبغة إذا استحكمت فصيلاً ما تحول إلا بزوايا محلها.

وكذا نجد بالقيروان ومراكش وقلعة ابن حماد أثراً باقياً من ذلك، و بـ كبت هذه كلها اليوم خراباً أو في حكم الخراب. ولا يفرض لها إلا انصير من لناس، فيجد من هذه الصنائع أثرة تدله على ما كان بها، كأثر الخط الممحو في الكتاب.

و لله الخلاق العليم^{٢٨}.

^{٢٧} جميع [ب]

^{٢٨} مطر علاء ص ١٧ و ٢٢٥ علاء

مادنها [ب]

٢٨، آية ٨٠ من سورة الحجر (١٥)

[18] في أن الصنائع إنما تستجد ونكثر إذا كثر طلبها

والنسب في ذلك أن الإنسان لا يسمح بعمله أن يقع مجاناً، لأنه كسبه، ومنه معاشه، إذ لا فائدة له في جميع عمره في شيء مما سواه، فلا يصرفه إلا فيما له قيمة في مصره ليعود عليه بالنفع. وإذا كانت الصناعة مطلوبة وتوجه إليها السوق، كانت حينئذ الصناعة بمثابة السلعة التي تنفق سوقها وتُجلب لبيع فيحصد الناس في المدينة لتعلم تلك الصناعة ليكون منها معاشهم ويدلهم نكر الصناعة مطلوبة، لم تنفق سوقها ولا توجه قصد إلى تعلمها، وحتتصت بالترك وفقدت للإهمال. ولهذا يُقال عن علي رضي الله عنه: "قيمة كل امرئ ما يحسن"، بمعنى أن صناعته هي قيمته، أي قيمة عمله الذي هو معاشه.

وأيضاً فهنا سر آخر، وهو أن الصنائع وإجادتها إنما تطلبها الدولة. فهي التي تنفق من سوقها وتوجه الضرائب إليها. وما لم تطلبه الدولة وإما يطلبه غيرها من أهل المصير، فليس على سببتها. لأن الدولة هي لسوق الأعظم"، وفيها اتفاق كل شيء. والقليل والكثير فيها على نسبة واحدة، فما تنفق فيها كان أكثر ضرورة. والسوق، وإن ظنوا الصناعة، فليس طلبهم بعدم ولا سوقهم بنافعة.

والله قادر على ما يشاء.

[19] في أن الأمصار إذا قاربت الحراب

انتقصت منها الصنائع

ودلك لما بيّته من أن الصنائع إما تُستجد إذا احتيج إليها وكُثر طالبتها وإذا
صُعقت أحوال المصّر وأخذ في الهرم بانتفاص عمرانه وقلة ساكنه ساقص منه
الترف ورجعوا إلى الاقتصار على الضروري من أحوالهم. فتقيل لصانع
التي كانت من توابع الترف، لأن صاحبها حينئذ لا يصحّ له بها معاش. فبقر
إلى غيرها، أو يموت ولا يكون خلف منه، فيذهب رسم تلك الصنائع جملة،
كما يذهب النقاشون والصّواغون والكتاب والنساخ وأمثالهم من الصنع
لحاجت الترف. ولا تزال الصناعات في تناقص ما دام المصّر في تنقص إلى
أن يضمحل.

والله الخلاق العليم.

[20] في أن العرب أبعد الناس عن الصنائع

والسبب في ذلك أنهم أعرق في البدو وأبعد عن العمران الحضري وما يدعو إليه من الصنائع وغيرها. ولعجم من أهل المشرق وأمم النصرانية عدوة لبحر الرومي أقوم الناس عليها، لأنهم أعرق في العمران الحضري وأبعد عن البدو وعمرانه. حتى أن الإبر التي أعنت لعرب على التوحش في القفر والإغراق في البدو معقودة لديهم بالجممة ومفقودة مرعيها والرمال المهينة لنتائجها. ولهذا نجد أوطان لعرب وما ملكوه في الإسلام قليل الصنائع بالجممة، حتى تجب إليه من قطر آخر.

وانظر بلاد العجم من الصين والهند وأرض لترك وأمم النصرانية، كيف ستكثر فيها الصنائع وستجلبها الأمم من عندهم. وعجم المغرب من البربر بمثابة لعرب في ذلك لرسوخهم في البدوة منذ حقب من لسنيين. ويشهد لك بذلك قلة الأمصار بقطرهم، كما قدمناه فالصنائع بالمغرب لذلك قليلة غير مستحكمة، إلا ما كان من صناعة صوف في سحره وخذ في حرره ودعته. وبهم لم يستحصروا بلعوا فيها لمالعم لعموم لسوى بها وكوب هذس أعسب السبع في قطرهم ما هم عليه من حمار السدوة.

وأما المشرق فقد رسخت الصنائع فيه منذ ملك الأُمم الأُفدَمِين من المُرسِ والسط والقط وبنِي إسرائيل ويونان والروم أحمابًا متطاوئة، ورسخت فيهم أحوال حصارة، ومن جملة الصنائع، كما قدَّمناه، فلم يُمَحَّ رسمُها وأما اليمس والسحريين، عمان واجزيرة وإن ملكها العرب إلا أنهم ندَّأُونَا منك لاف من السنين هي أُم كثيرين منهم، واحتفظوا أيضًا أمصاره ومدنه وسعوا المساع من الحضارة والترف، مثل عاد وثمود والنعمانقة وحِمْيَر من بعدهم والتبعية والأدواء، ففانل أمد الملك والحضارة واستحكمت صغتها، وتوقرت الصنائع ورسخت، فم تهل سفي الدولة كما قلناه، فبقيت مستجدة حتى الآن واختصت بذلك الموطن كصناعة الوشي والعصب وما يُستجد من حرك لثياب والحرير فيها، وله وارث الأرض ومن عليها.

[21] ي أن من حصت له ملكة في صناعة فقل أن يُجيد
بعدها ملكة أخرى

ومثال ذلك الخياط إذا أُحد مَنكة الخياطة وحكمها ورسخت في نفسه، فلا يُجيد من بعده مَنكة التجارة أو لبنة. لا أن تكون الأولى لم تستحكم بعد ولم ترسخ صبغتها. والسبب في ذلك أن الملكات صفات بنفس وألوان، فلا تزدهم دفعة. ومن كان على الفطرة كان سهل لقبول المنكات وحسن استعدادًا لخصولها. فإذا تموت لنفس بملكه خرجت عن لفطرة وضعف فيها لاستعداد باليون لخصل من هذه الملكة، فكان قبولها للمكة الأخرى أضعف. وهذا يبين يشهد له الوجود. فقل أن تجد صاحب صناعة يحكمها فيحكم من بعده أخرى ويكون فيهما معًا على رتبة واحدة من الإجابة. حتى أن أهل العلم الذين مكتهم فكرية فهم بهذه المثابة، ومن حصل منهم على ملكة علم من العلوم وأجدها في الغاية فقل أن يُجيد ملكة علم آخر على نفسه، بل يكون مقصّرًا فيه. إن طسه لا هي لأقل لعدد من لأحوال. ومسي سببه على ما ذكره من شأن الاستعداد وتلوينه بلون الملكة الحاصلة في لنفس. والله أعلم.

[22] في الإشارة إلى أمهات الصنائع

اعلم أن الصنائع في النوع الإنساني كثيرة لكثرة الأعمال المتداولة في العمران. فهي بحيث تشد عن الاختصار ولا يأخذها العدد إلا أن منها ما هو ضروري في العمران أو شريف بالموضوع، فنخصصهما بالذكر ونترك ما سواهما.

فأما الضروري، فكالملاحة والبناء والخياطة والنجارة وخبكة. وأما الشريفة بالموضوع، فكالتلويد والكتابة والوراقة والغناء والنصب.

وأما التلويد، فإنها ضرورية في العمران وعامة النبلى، إذ بهي تخص حياة المولود وتتم غالباً. وموضوعها مع ذلك المولودون وأمهم.

وأما الطب، فهو حفظ الصحة للإنسان ودفع المرض عنه، ويتفرع عن علم لطبيعة. وموضوعه مع ذلك بدن الإنسان.

وأما لكتابة وما يتبعها من الوراقة فهي حافظة على الإنسان حاجته ومقيدة له عن النسيان ومبلغه صمائر النفس إلى العبد العائب ومحددة نتج الأفكار والعلوم في الصحف ورابعة رتب الوجود للمعاني.

* بها يتم حياة المولود غالباً [ب]

** البيان، ومخلدة [ب]

وأما الغناء، فهو نسب الأصوات ومظهر جمالها للأسماع .
 وكر هذه الصنائع الثلاثة دأع إلى مخالطة الملوك الأعاضم في خبرتهم
 ومجانس أنسهم، فلها بذلك شرف ليس لغيرها . وما سوى ذلك من الصنائع
 فتابعة وممتحنة في الغائب . وقد يختلف ذلك باختلاف الأغراض والدواعي .
 والله الخلاق العليم⁽³⁰⁾ .

30) سورة الحجر (16)

[23] في صناعة الفلاحة¹³¹

هذه الصناعة ثمرتها اتخاذ الأقوات والحبوب بالقيام على إثارة لأرض لها و زرعها وعلاج نباتها وتعالجها بالمسقى والتنمية إلى نوع عتة، ثم حصاد سنبله واستخراج حبه من غلافه وإحكام الأعماز لذلك وتخصيب أسيابه ودواعبه

وهي أقدم الصنائع لما أنها محصلة للقوت المكمل لحياة الإنسان، إذ يمكن وجوده من دون جميع الأشياء إلا من دون القوت. ولهذا كانت هذه الصناعة بالبدو إذ قدّمنا أنه أقدم من الخضّر ومسبق عليه فكانت هذه الصناعة لذلك بدوية لا يقوم عليها الخضّر ولا يعرفونها، لأن أحوالهم كدّها ثانية عن البداوة، فصنائعهم ثانية عن صنائعها وتابعة لها، ولله خلاق العليم¹³².

١٣١. سيميلج - حدود موضوع الفلاحة كمنهم في الفصل السادس، انظر ج 3، ص 103-104.

١٣٢. بحمة في [ب]

321، آية 86 من سورة الحجر (1٤)

[24] في صناعة البناء

هذه أول صنائع العمران الحضري وأقدمها. وهي معرفة العمل في اتحاد البيوت ولمازول للسكن والمأوى. وذلك أن الإنسان بما جُبل عليه من الفكر في عواقب أحواله لا بد له أن يفكر في مواعيد إضاءة الحر والبرد عنه باتحاد البيوت ذوات الخيطان والسفوف الحثينة دون ذلك من جهاته. والبشر مختلفون في هذه الجبلية العكسية التي هي معنى الإنسانية. فليعتدلون فيها ولو على التفاوت يتحدون ذلك معتدلين، كأهل الإقليم الثاني وما بعده إلى الإقليم السادس. وأما أهل الأول والسابع فيبيعون عن اتخاذ ذلك لانحرافهم وقصور أفكارهم عن كيفية العمل في الصنائع الإنسانية، فيأوون إلى الغيران والكهوف كما يتناولون الأغذية من غير علاج ولا نضج.

ثم المعتدلون المتخذون للبيوت للمأوى قد يتكاثرون فتكثر بيوتهم في البسيط الواحد بحيث يتناكرون ولا يتعارفون، فيخشى من طروق بعضهم بعضاً بيتاً. فيحتاجون إلى حفظ مجتمعهم بإدارة سياج الأسوار التي تحوطهم

١٠ - من تنهي جملته في [ب]

١١ - هذه عشرة والعشرون التي سبق لم ترد في [ب]

ويصير جميعها مدينة ومصرًا واحدًا يحوظهم فيه أحكام بدافع بعضهم عن بعض. وقد يحتاجون إلى الاعتصام من العدو ويتخذون المعادل والحصون لهم ولمن تحت أيديهم. وهؤلاء مثل الملوك ومن في معناهم من الأمراء وكبراء القائل.

ثم تختلف أحوال البناء في المدن، كل مدينة على ما يتعارفون ويصطلحون عليه ويناسب مزاج هوائهم واختلاف أحوالهم في الغنى والفقر. وكذا حال أهل المدينة الواحدة. فمنهم من يتخذ القصور والمصانع العظيمة الساحة، المشتنة على عدة الدور والبيوت والعرف لكثرة ولده وحشمه وعباله وتابعه. ويؤسس جدرانها باخجارة. ويلحم بينها بالكس. ويعلي عنيتها بالاصبغة والجص، ويبالغ في كل ذلك بالتنجيد والتنميق إظهار بسبب في العناية بشأن المأوى. ويهيء مع ذلك الأسراب والمطامير لاحتراز أقواته والإصطبلات لربط مقرباته إن كان من أهل الجنود وكثرة السبع ولغاشية كالأمراء ومن في معاهم. ومنهم من يبني الدويرة والبويت لنفسه وسكنه وولده لا يتبغي ما وراء ذلك لقصور حاله عنه واقتصاره على الكر الطبيعي للبشر. ويبني ذلك مراتب غير منحصرة.

وقد يحتاج إلى هذه الصناعة أيضًا عند تأسيس الملوك وأهل لدول المدن العظيمة والهيكل المرتفعة. ويبالغون في إيقان الأوضاع وعمو لأحرم مع الإحكام لتبغ الصناعة مبالغها. وهذه الصناعة هي الأقاليم المعتدلة من الربع ومحوه، إذ الأقاليم المحرفة لا بناء فيها، وإنما يتخذون البيوت حظائر من القصب والطين أو يأوون إلى الكهوف والغيارات.

* الأسراب لاحتراز [ب]

** لإحكام والإيقان لتبغ [ب]

*** وهذه لصناعة هي التي تحصل للدواعي لذلك كله وأكثر ما تكون هذه الصناعة في الأقاليم

المعتدلة [ب] و [ج] و [د]

**** ينبغي هنا الحمة هي [ب].

وأهل هذه الصناعة القائمون عليها متفاوتون. فمنهم البصير الماهر، ومنهم لقاصر. ثم هي تتنوع أنواعا كثيرة. فمنها البناء بالحجارة المنجدة أو بالأجر يُقدم به جدران ملصقا بعضها إلى بعض بالطين والكلس الذي يُعقد معها فتتحم كأنها جسم واحد. ومنها البناء بالتراب خاصة، تقام منه الخيطان بأن يُتخذ له لوحان من الخشب مقدّران طولاً وعرضاً باختلاف العادات في التقدير، وأوسطه أربعة أذرع في ذراعين فيُنصبان على أساس وقد بُوعد ما بينهما على ما يراه صاحب البناء في عرض الأساس. ويُوصَل بينهما بأذرعات من خشب يربط عليها بأخبال والجدن، وتُسَدُّ الجهتان الباقيتان من ذلك الخلاء، بينهما بلوحيان آخرين صغيرين ثم يوضع فيه التراب مختلطا بالكلس ويسقط بالمر كز المدة لذلك حتى ينعم ركزه وتختلط أجزاؤه بالكلس ثم يزداد لترات شيئا وثالثا إلى أن يمتلئ ذلك الخلاء بين اللوحيان. وقد تدحمت أحر الكلس والتراب وصارت جسما واحدا. ثم يُعاد نصب اللوحيان على الصورة الأولى ويركز كذلك إلى أن يتم وتنظم الألواح كلها سطرا فوق سطر إلى أن ينتظم الحائط كله متحما كأنه قطعة واحدة، ويسمى الطينية وصاحبه الطواب.

ومن صنائع البناء أيضا أن تُجَلَّل الخيطان بالكلس بعد أن يُحل الماء ويُحمَر مسوغا أو سبوعين على قدر ما يعتدل مزاجه عن إفراط البارية المفسدة للإحلام، فإذا تم له ما يرصاه من ذلك علاه من فوق الحائط وذلكة إلى أن يلتحم.

ومن صنائع البناء عمل السقف بأن تُمد أخشب المحكمة النجارة أو لسدجة على حائطي البيت ومن فوقها الألواح كذلك موصولة بالداياتر. ويُصب عليها التراب والكلس ويسقط بالمر كز حتى تتداخل أجزاؤهما وتلتحم، ويُعالى عليه الكلس كما عولِي على الحائط.

بتراب فقط. يتخذ [ب]

يته [ب]

مفسدة لما فيه من قوة الإحلام [ب]

ومن صناعة البناء ما يرجع إلى الترميم والتزيين، كما تصنع من فوق الحيطان الأشكال المجسمة من الجص بعقد الماء، ثم يرفع محسّد وفيه بقية البدر، فيشكل على التناسب تخريماً بمثاقب الحديد إلى أن يبقى له رونق ورواء، وربما عولّي على الحيطان أيضاً بقطع الرخام أو الأجر أو الخزف أو المصطف أو السجج يفصل أجزاء متحانسة أو مختلفة، ويوضع في الكس على نسب وأوضاع مقدّرة عندهم يبدو به الحائط للعيان كأنه قطع الرياض المنمنمة، إلى غير ذلك من بناء الجباب والصّهاريج لمسيح الماء بعد أن تُعد في البيوت قصع الرخام القوّراء المحكّمة الخُرط بالفوهات في وسطها لنزع الماء حاري إلى الصهريج، يُجلب إليها من خارج في القنوات المنصبة به إلى البيوت. وأمثال ذلك من أنواع البناء. ويختلف الصناعات في جميع ذلك باختلاف الخلق والبصر. ويعظم عمران المدينة ويتسع، فيكثرون

وربما يرجع الحكماء إلى نظر هؤلاء فيما هم أبصر به من أحوال البناء. وذلك أن الناس في المدن لكثرة الازدحام والعمران يتشاحون حتى في البعد والهواء للأعلى والأسفل. وفي الانتفاع بظاهر البناء مما يُتوقع معه حصول الضرر في الحيطان، فيمنع جاره من ذلك إلا ما كان له فيه حق ويحتسبون أيضاً في استحقاق الطرق والمنافع للمياه الجارية والمصلات لمسرية في القنوات. وربما يدّعي بعضهم على بعض في حائط أو علوه أو قننه لتضاييق الجوار، أو يدّعي بعض على جاره اعتلال حائطه وخشية سقوطه، ويحتاج إلى الحكم عليه بهدمه ودفع ضرره عن جاره عند من يره، أو يحتاج إلى قسمة دار أو عرصة بين شريكين بحيث لا يقع معهما فساد في الدار ولا إهمال لمنفعتهما. وأمثال ذلك. ويخفى جميع ذلك إلا على أهل البصر بالبناء العرفين بأحواله المستدلين عليها بالمعاقد والتمط ومركز الخشب وميث

الحيطان واعتدالها وقسم المساكن على نسبة أوضاعها ومنافعها وتسريب مياه
في القنوات مجلوبة ومدفوعة بحيث لا تضر عما مرّت عليه من البيوت
والحيطان، وغير ذلك. فلهم بهذا كله البصر والخبرة التي ليست لغيرهم.
وهم مع ذلك يختلقون بالجودة والقصور في الأجيال باعتبار الدول
وقوتها. فإنا قدّمنا أن الصنائع وكمالها إنما هو بكمال الحضارة، وكثرتها بكثرة
الطالب لها. فلذلك عند ما تكون الدولة بدوية في أول أمرها تفتقر في أمر
لبناء أي غير قطرها، كما وقع للوليد بن عبد الملك حين أجمع بناء مسجد
المدينة والقدس ومسجده بالشام. فبعث إني ملك الروم بالقسطنطينية في
العمدة المهرة في البناء، فبعث إليه منهم بمن كمل له غرضه من تلك المساحد
وقد بصرف صاحب هذه الصناعة أشياء من الهندسة مثل نسوية الحيطان
بالور. وجرأ المياه بأخذ الارتفاع، وأمثال ذلك، فيحتاج إلى البصر شيء
من مسائله وكذلك في جر الأثقال بالهندام، فإن الأجرام العظيمة إذا شُيّدت
باحجارة كبيرة تعجز قُدْرُ الفعلة عن رفعها إلى مكانها من الخائط فيُنحِيلُ
لنُتْ مصاعفة قوة الحبل بإدخاله في المعالق من أنقاب مقدّرة على نسب
هندسية يصير الثقل عند معاناة الرفع حقيقاً، ونسَمَّى الآلة لذلك بالمِئْجَال
فيتم المراد من ذلك بغير كلفة وهذا إنما يتم بأصول هندسية معروفة متدولة
بين سُُسر. ومثلها كاد بناء الهياكل الماثلة لهذا العهد التي يحسب الناس أنها
من بناء الجاهلية وأن ألدانهم كانت على نسبتها في عظم الجثمان. وليس
كذلك. وإنما يتم لهم ذلك بالخيال الهندسية، كما ذكرناه. فتفهم ذلك.
والله يخلق ما يشاء.

[25] في صناعة النجارة

هذه الصناعة من ضرورات العمران، ومادتها خشب. وذلك أن الله سبحانه وتعالى جعل للادمي في كل مكوّن من المكوّنات منافع يكمل بها ضروراته، أو حاجاته، وكان منها الشجر، فإن له فيه من المنافع ما لا يحصرى هو معروف لكل أحد. ومن منافعها اتخاذها خشباً إذا ييسرت. وأور منافع خشب أن يكون وقوداً للنيران في معاشهم وعصياً للاتكاء والذود وغيرهم من ضروراتهم، ودعائم لما يخشى ميله من أثقالهم، ثم بعد ذلك منافع أخرى لأهل البدو والخضر.

وأما أهل البدو، فيتخذون منها العمود والأوتاد لخيامهم. وخذرج لظعناتهم، والرماح والقسي والسهام لسلاحهم. وأما أهل الخضر فالسقف لبيوتهم، والأغلاق لأبوابهم، والكراسي لجلوسهم. وكل واحدة من هذه، فلخشب مادة لها، ولا تصير إلى الصورة الخاصة بها إلا بالصناعة والصناعة المتكفلة بذلك المنحصة لكل واحد من صورها هي النجارة على اختلاف رتبها

فيحتاج صاحبها إلى تفصيل الخشب أولاً ما يحشب أصغر منه أو نالو ح ، ثم تركيب تلك المفصل بحسب لصورة مطبوعة فهو في كل ذلك بصعته يحاول بعداد تلك المفصل بالانتظام إلى أن يصير أعضاء لذلك الشكل منخصوص والنظام على هذه الصناعة هو السحر وهو ضروري في لعمران.

ثم إذا عظمت الحضرة وجاء الترف، وتأنق لندس فيما يتخذونه من كل صنف من سقف أو باب أو كرسي أو ماعون، حدث التأنق في صناعة ذلك واستجاده بغرائب من الصناعة كملية ليست من الضروري في شيء مثل لتخطيط في الأبواب والكراسي، ومثل تهينة لقطع من الخشب بصناعة خُرط يُحكّم برؤيه وتشكيلها ثم تُؤلف على نِسَبٍ مقدّرة وتُنحَم بالدهستير فتهبوا لمرئى العين ملتحمة وقد أخذ منها اختلاف الأشكال على تناسب، يصنع هذا في كل شكل من الخشب، فتجيء نق ما يكون، وكذلك في جميع ما يُحتاج إليه من الآلات المتخذة من الخشب من أي نوع كانت.

وكذلك قد يُحتاج إلى هذه الصناعة في إنشاء لسفن البحرية ذات الأتواح والدسر، وهي أجرام هندسية صُنعت على قلب حوت واعتبار سبحة في الماء بقودمه وكلّكته ليكون ذلك الشكل أغوّن لها في مصدمة الماء، وجُعِل لها عَوْض الحركة الحيوانية التي تلمس تحريك الرياح، وربما أُعِينت بحركة لمقاذيف كما في لأساطير.

وهذه الصناعة من أصدها محتاجة إلى جزء كبير من الهندسة في جميع صناعاتها، لأن إخراج الصور من القوة إلى الفعل على وجه الإحكام محتاج إلى معرفة التناسب في المقدير، ما عموماً أو خصوصاً، وتُناسب المقدير لا بد من رحوخ فيه إلى المهندس ولهذا كان أئمة الهندسة اليونانيين كهم أئمة في هذه الصناعة فكأن أوقليدس، صاحب كتاب الأصول في الهندسة مختاراً، وبها كان يُعرف، وكذلك أئمة اليونان، صاحب كتاب المخروطات، وميلاوش، وعبرهم

وفيما يُقال إن معلم هذه الصناعة في الخليفة هو نوح، عليه السلام. وبها
نُسب سعيبة النجاة التي بها كانت معجزته عند الطوفان. وهذا الخبر، وإن كان
مكنا، أعني كونه تخاذاً، إلا أن كونه أول من عملها لا دليل يشوبه عليه بُعد
الأماد. وبما معناه الإشارة إلى قدم النجارة. لأنه لم تصح حكاية عهد قبل حر
نوح عليه السلام، فجعل كأنه أول من تعلمها فتمهم أسرار الصنائع في
الخليفة.

والله الخلاق العليم^(١٥).

^١ متصع من هنا إلى آخر هذا الفصل لم يرد في [ب]

٣٣ - ٤٦ سورة الحجر (١٥)

[26] في صناعة الخياكة والخياطة

عسى أن المعتدلين من لبشر في معنى الإنسانية لا بد لهم من الفكر في الدفء كالفكر في البرد، ولا بد لذلك من إحكام لغرز حتى يصير ثوباً واحداً، وهو النسيج والخياكة.

فإن كانوا بادية فتصروا عبيد، وإن ملأوا إلى الحضرة، فصروا تدك المنسوجة قطعاً يقدرون منها ثوباً عسى البدن بشكله وتعدد أعضائه واختلاف نواحيه، ثم يلائمون بين تدك لقطع بالوصل حتى يصير ثوباً واحداً مقدراً عسى لبدن ويلبسونها، ولصناعة المنصولة لهذه الملاءمة هي الخياطة.

وهاتان الصناعتان ضروريتان في العمران إذ يحتاج إليه البشر من الدفء. فالأولى لنسيج الغزل من الصوف والقطن سدوّ في الطول وخاماً في العرض وحكماً لذلك لنسج بالالتحام شديداً، فتتبع منها قطع مقدرة فمنها الأكسية من الصوف للاشتداد، ومنها الشيب من القطن ولكتان لباس ولصناعة الشاية لتصدير المنسوجات عسى حيلاف لأشكر والعوائد، تفضل أولاً

هذه لفظة في معناه - لا يم - [أ] ولا في [ج] ولا في [د] ولا في [د]

منقراص قطعاً مناسبة للأعضاء الدينية، ثم تُلحم تلك القطع بالخياطة مُحكمة وصلاً أو حِكاً أو تنبيثاً أو تفتيحاً على حسب نوع الصناعة. وهذه المِثَبَة مختصة بالعمارة الحضري لما أن أهل البدو يستغنون عنها، وإنما يشتمون الأثواب شتمالاً. وإنما تفصيل الثياب وتقديرها وإحمامها بالخياطة ناس من مذهب الحضارة وقتونها.

ونفهم هذا في تحريم المخيط في الحج، لما أن مشروعية الحج مشتمة على نبذ العلائق الدنيوية كلها والرحوع إلى الله تعالى كما خلقنا أول مرة، حتى لا يُعلق العبد قلبه بشيء من عوائد ترفه، لا طيباً ولا نساء ولا مخيطاً ولا خفّاً، ولا يعرض لصيد ولا لشيء من عوائده التي تلوّنت بها نفسه وخلقه، مع أنه يفقدها بملوت ضرورة. وإنما يجيء كأنه وارد على المنحسر، ضارغاً بقبه، مخلصاً لربه. فكان جزاؤه إن تم له إخلاصه في ذلك أن يخرج من دنوبه كيوم ولدته أمه. سبحانه ما أرفقك بعبادك وأرحمك بهم في طيب هديتهم إليك!

وهذان الصناعتان قديمتان في الخليقة، لما أن الدفء ضروري للبشر في العمران المعتدل. وأما المنحرف إلى الحر، فلا يحتاج أهله إلى دفء. ولهذا يبغنا عن أهل الإقليم الأول من السودان أنهم عراة في الغالب. ولقدّم هذه الصنائع تنسبها العامة إلى إدريس، عليه السلام. وهو أقدم الأنبياء عليهم لسلام. وربما يسبوننها إلى هِرْمِس، وقد يقال إن هِرْمِس هو إدريس. والله الخلاق العليم^{١٤}.

^{١٤} قد سبهي جملة في [ب]
١٤١ رة ٨٦ سورة الحجز (١٥).

[27] في صناعة التوليد

وهي صناعة يُعرَف بها العمل في استخراج مولود الأدمي من بطن أمه من الفرق في إخراجها من رحمها وتهيئة أسباب ذلك، ثم ما يُصير بعد الخروج، على ما نذكر. وهي مختصة بالنساء في غالب الأمر، لما أُنهن لظواهرات بعضهن على عوارث بعض. وتسمّى القائمة على ذلك منهن القابدة، استعير فيه معنى الإغصاء والقبول، كُن النساء تعطيهن الجنين، وكأنها تقبله.

ودنك أن الجنين إذا استكمل خلقه في الرحم وطواره وبلغ إلى غايته والمدة التي قدّر الله لمكثه، وهي تسعة أشهر في أغلب، فيطلب الخروج بما جعل له فيه من نزوع لذلك، ويضيق عليه المنفذ، فيعسر. وربما مَزَق بعض جوارب الفرج بالضعف، وربما انقطع ما كان في الأغشية من الانصاق والالتصاح بالرحم. وهذه كلها آلام يشتد لها الوجع. وهو معنى الطلق. فتكون القابلة مُعينة في ذلك بعض لشيء بغمز الظهر وأورؤكيس وما يحاذي الرحم من الأسفل، يساوق بذلك فعل الدافعة في حراح الحيس وتسهيل ما يصعب منه بما يمكنه وعلى ما تهتدي إلى معرفة عسره ثم يد حرح حيس بقيت بيه وبين لرحم مؤصصة التي كان يتغذى منها متصلة من سرته بجاه. وتلك المؤصلة

عصو فضلي لتغذية المولود خاصة، فتقطعها القابضة من حيث لا يتعدى مكان لفصلة ولا يصير بجاءه ولا يرحم أمه، ثم تدعى مكان الجراحة منه سكي أو يتراه من وجوه الادماء ثم إن الجنين عند خروجه من ذلك المقعد لصيق، وهو رطب العظام، سهل الانعطاف والانشاء، فربما تتغير أشكال عصبه وأوضاعها لقرب التكوين ورطوبة المواد. فتتناوله القابضة بالغمز والإصلاح حتى يرجع كل عصو إلى مكانه الطبيعي ووضعه المقدّر له، ويرتد حلقه سويًا. ثم بعد ذلك تراجع النساء وتحاذيها بالغمز والملاينة لخروج أعشية الجنين، لأنها ربما تتأخر عن خروجه قليلاً، ويخشى عند ذلك أن تراجع المشيمة حاضها لطبيعية قبل استكمال خروج الأعشية، وهي فضلات، فتتغفن ويسري غفنها إلى الرحم، فيقع الهلاك. فتحاذي القابضة هذا وتحاول في إعانة لدفع إلى أن تخرج تلك الأعشية إن كانت قد تأخرت. ثم تراجع إلى المولود، فتمرخ أعضاءه بالأدهن والندور القابضة لتشدّها وتجفف رطوبات رحم، وتحنكه لرفع لتهته، وتُسقطه لاستمراخ بطون دماغه، وتُعرّعه باللعوق لدفع لسدد من معده وتجويّفها عن الالتصاق. ثم تدّوي النساء بعد ذلك من الموهن لديّ صديقه بملق وما حتى رحمها من ألم الانفصال، إذ المولود، وإن لم يكن عصو طبيعياً فحالة التكوين في الرحم صيرته بالانحجام كالعضو المنقص. فذلك كان في انفصاله ألم يقرب من ألم القطع. وتدّوي مع ذلك ما ينحق لفرح من جراحة التمزير عند الضغط في الخروج. وهذه كلها أدواء نجد هؤلاء القوابل أبصر بدوائها.

وكذلك ما يعرض لنموّلود مدة الرضاع من أدواء هي بدنه إلى حين انقضاء، يمددهن أدصر به من الضييب المأخر. وما ذلك إلا لأن الإنسان في سنّ حياته إنما هو بدن إنساني بالقوة فقط. فإذا حوّل انقضاء، صار بدن إنسانياً بالفعل، فكأن حاجته حينئذ إلى الضييب أشد.

فهذه الصناعة، كما تراه، صورية في العمران للنوع الإنساني، لا يتم كون شخصاه في العالَم دونه.

وقد عرّض لعصّ أشخص لوع لا سنعء عن هذه لصاعة بما سحق الله ذبّ لهم معجزة وحرقة لعادة، كما في حق لأسبء صبوء الله عبيهم، أو يابهم ومداية يئهم لها المولود ويُطر عبيهم فيتم وجودهم من دون هذه لصاعة. فأما شأن المعجزة من ذلك، فقد وقع كثيرًا، ومنه ما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم وُلد مختون مشرور واضعًا يديه على الأرض، شخص بصره إلى السماء. وكذلك شأن عيسى في المهد، وغير ذلك. وأما شأن لإلهام، فلا يُنكر. وإذا كانت الحيونات العجم تُخص بفرث من الإلهامات كالنحل وغيرها، فما ظنك بالإنسان المفضّل عبيها، وخصوصًا من اختص بكرامة الله. ثم لإلهام العام للمولودين في الإقبال على الشدي من أوضح شاهد على وجود الإلهام لهم. فشان لعناية الإلهية أعظم من أن يُحاط به.

ومن هنا يُفهم بطلان رأي الفارابي وحكماء لأندلس فيما احتجوا به لعدم انقراض الأنوع وسحالة قطع المكونت وخصوصًا في النوع الإنساني. وقلوب لو انقطعت أشخاصه لاستحل وجودها بعد ذلك، لتوقفه على وجود هذه الصناعة التي لا يتم كون الإنسان إلا بها. إذ لو قدرنا مولودًا دون هذه الصناعة وكفالتها إلى حين الانفصال لم يتم بقاؤه أصلًا. ووجود الصنائع دون الفكر ممتنع، لأنها ثمرته وتابعة له.

وتكف ابن سين في الرد على هذا الرأي لمخالفته إياه وذهابه إلى إمكان قطاع الأنواع وحراب عالم التكوين، ثم عوده ثانية لاقتضاءات فلكية وأوضاع غريبة تذر في لأحقاب نزعمه، فتقتضي تخمير طينة مناسبة لمزاجه حرارة مدسة، ويتم كونه إنسانًا. ثم يُقيض له حيوان يُخلق فيه الإلهام لتربته وحثو عه إلى أن يتم وجوده وفصائه وأصب في بيان ذلك في الرسالة لتي

سماها برسالة حي ابن يقظان⁽³⁵⁾. وهذا الاستدلال غير صحيح، وإن كان موافقه على انقطاع الأنواع، لكن من غير ما استدلل به. فإن دليله مبني على استناد لأفعال إلى العلّة الموجبة، ودليل القول بالفاعل المختار يردّ عليه. ولا وسطة على القول بالفاعل المختار بين الأفعال والقدرة القديمة، ولا حاجة إلى هذا التكلف. ثم لو سلّمناه جدلاً، فغاية ما ينبغي عليه طرد وجود هذا الشخص بخلق الإلهام لتربيته في الحيوان الأعجم، وما الضرورة الداعية لذلك؟ وإذا كان الإلهام يُخلق في الحيوانات الأعجم، فما المانع من خلقه للمولود نفسه، كما قرّرناه أولاً؟ وخلق الإلهام في شخص لمصالح نفسه أقرب من خلقه فيه لمصالح غيره. فكل المذهبيين شاهدان على أنفسهما بلبطلان في مناحيهما لما قرّره لك.

والله الخلاق العليم⁽³⁶⁾.

(35) لا يوجد شيء من هذا القبيل في رسالة حي ابن يقظان كما هي منشورة بـ ١٠٠٠ في طعة A F Mehren, *Fratés mystiques*, Leyde, 1889 vol I, ولا في طعة أ. أمين، القاهرة، ١٩٥٢ ومن محتمل أن يكون ابن خلدون قد استعمل مؤلفاً يعتمد على كتاب حي ابن يقظان لأن طبعه منه حجة على التعاريف وابن سينا، كما أشار إلى ذلك هري كرمان. انظر

Collection du millenaire d'Avicenne, No 25, Téhéran, 1952, II, 152-54.

(36) آية ٨٦ من سورة الحجر (١٥)

[28] في صناعة لطب وأنها محتاج إليها في الحواضر
والأمصار دون لبادية

هذه الصناعة ضرورية في مدن ولأمصاير إذ عُرِف من فائدتها. فإن ثمرتها
حفظ نصحَة للأصحاء ودفع المرض عن المرضى بالمدونة حتى يحصل لهم
البراء من دوائهم.

واعلم أن أصل الأمراض كلها إما هو من الأغذية، كما قد صنى الله عليه
وسم في الحديث الجامع نضب كما يُنقل بين أهل الصناعة وإن طعن فيه
لعماء، وهو قوله: 'المعدة بيت لداء' والحمية رأس لدواء. وأصل كل داء
ببردة^١. وأما قوله المعدة بيت لداء فظاهر. وأما قوله الحمية رأس
لدواء، فالحمية الجوع، وهو لاحتماء عن لصعامة ولمعنى أن الجوع هو
لدواء العظم الذي هو أصل الأدوية. وأما قوله أصل كل داء البردة فمعنى
البردة دخول الطعام على الصعامة في المعدة قبل أن يتم هضم الأول.

سقطت، وهو قوله [ب] و[ح]

١) سبب ذلك خدش في عيون الأسماء لا في صيغة في معنى وكذا في طبقات الأطباء
كما في حديثه وعنده سبب آخر في عيون الأسماء. د. شافعي، د. ب. ج. ص ١٠٠
ويفهم هو صفة من دواء وحسنه من دواء وهو في كل داء عار

وشرح هذا أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وحفظ حياته بالعذاء يستعمله بالأكل وينفذ فيه القوى الهاضمة والغاذية إلى أن يصير دماً ملائماً لآخره لسد من النجم والعظم. ثم تأخذه انامية، فيثقل تحت وعظمه، ومعنى ليهضم طبع الغذاء بالحرارة الغريزية فوراً بعد صور حتى يصير حرراً من لدن.

وتفسيره أن العذاء إذا حصل في النجم والأكتة الأشداف، أثرب فيه حرارة النجم صبخاً يسيراً، وقلبت مزاجه بعض الشيء كما تراه في اللقمة إذا تناولتها صعداً ثم تحدثها مضغاً، فتري مزاجها غير مزاج الطعام. ثم يحصل في المعدة، فتطبخه حرارة المعدة إلى أن يصير كيموساً، وهو صفو ذلك مضبوح. وترسله إلى الكبد، وترسل ما يرسب منه في المعى ثلثاً ينفذ إلى مخرجين. ثم تصبح حرارة الكبد ذلك الكيموس إلى أن يصير دماً عبيطاً وتطفو عليه رعوة من الطبخ، هي الصفراء وترسب منه أجزاء يابسة، هي السوداء. ويقصر الحار لغيرزي بعض الشيء عن طبخ الغليظ منه، فهو البئغم. ثم ترسبه كبد كسها في العروق والجداول. ويأخذها طبخ الحار الغريزي هناك. فيكون عن الدم الخائض بخار حار رطب يد الروح الحيوي. وتأخذ انامية مأخذها في الدم، فيكون لحماً، ثم غليظه عظاماً. ثم يرسل البدن ما يفصل عن حاجته من ذلك فضلات مختلفة من العرق واللعاب والمخاط والدمع. هذه صورة الغذاء وخروجه من القوة إلى الفعل خماً.

ثم أصل الأمراض معضها هي اخميات وسبها نخر غريزي قد يضعف عن تمام النضج في طبقه في كل صور من هذه. فيستى ذلك الغذاء دور نضج. وسببه عاناً كثرة العذاء في المعدة حتى يكون غيب على الحار لغيرزي، أو إدخال الطعام إلى المعدة قبل أن تسوفي ضج الأول، فشتغل به حار لغيرزي ويترك الأول بحالته أو يتورع عيهما، فيقتصر عن مدة طبخ

و لنضج. وترسله لمعدة كذلك إلى الكبد. فلا تفوق حرارة أيضا على إصاحه. وربما بقي في الكبد من لعداء لسبق فصله غير نصحته. ويرسل كبد جميع ذلك إلى لعروق غير نصح كما هو. فإذا أخذ البد حاجته لملائمة رسله مع الفصلات لأخرى من العروق والدمع واللعاب إن قتر عسى ذلك. وربما يعجز عن الكثير منه. فيبقى في العروق والكبد والمعدة ويتزايد مع الأيام. وكل ذي رطوبة من الممتزجات إذا لم يأخذه الطبع ونضج تعفن. فيتعفن ذلك الغذاء غير النضج، وهو يسمى بالخلط. وكل متعفن فيه حرارة غريبة، وتلك هي لمسماة في بدن الإنسان بالحُمى. واعتبر ذلك في الطعام إذا ترك حتى يتعفن، وفي الزيل إذا تعفن كيف تنبعث فيه الحرارة وتأخذ مأخذها. فهذا معنى الحميات في الأبدان، وهي رأس الأمراض وأصلها، كما وقع في الحديث.

ولهذه الحميات علاجات بقطع لغذاء عن المريض أسابيع معلومة. ثم يناوله الأغذية ثلاثية حتى يتم برؤه. وكذلك في حال الصحة له علاج في التحفظ من هذا المرض وغيره. وقد يكون ذلك لتعفن في عضو مخصوص، فيتولد عنه مرض في ذلك العضو، أو تحدث خراجات في البدن، إما في الأعضاء الرئيسية أو في غيرها. وقد يمرض العضو ويحدث عنه مرض القوى الموجودة له.

هذه كلها جماع الأمراض، وأصلها في الغالب من الأغذية. وهذا كله مدفوع إلى الطبيب.

ووقع هذه الأمراض في أهل الحضرة والمصار أكثر لخصب عيشهم، وكثرة ماكبهم، وقلة اقتصرهم على نوع واحد من الأغذية. وعدم توقيتهم لنسولها، وكثرة ما يحيطون بالأغذية من لتوابل والقول والمواكه رطبة ويسا في سبل العلاج بالطبخ. ولا يقتصرون في ذلك على نوع ولا أنواع وربما عدهم هي اللون الواحد من ألوان لطح أربعين نوعا من اللغات والحيوان، فيصير لعداء مزاج غريب. وربما يكون بعيدا عن ملائمة البدن وأجزائه.

ثم إن الأهوية في الأمصار تفسد بمخالطة الأبخرة العفنة من كثرة
 الفصالات. والأهوية مُنشطة للأرواح ومقوية بنشاطها لأثر الحار العريري في
 الهضوم. ثم الرياضة مفقودة لأهل الأمصار، إذ هم في العلب ودعوى
 سكون لا تأخذ منهم الرياضة شيئاً ولا تؤثر فيهم أثراً. فكان وقوع الأمراض
 كثير في المدن والأمصار، وعلى قدر وقوعه كانت حاجتهم إلى هذه الصناعة.
 فأمّا أهل البدو فأكلهم قليل في الغالب، والجوع أغلب عيهم لقلّة
 الحبوب حتى صار لهم ذلك عادة، وربما يقن أنها حيلة لاستمرارها. ثم لأدم
 قليلة لديهم أو مفقودة بالجملة، وعلاج الطبخ بالتوابل والفواكه إنما يدعو إليه
 ترف الحاضرة الذي هم عنه معزول. فيتناولون أغديتهم بسيطة بعيدة عما
 يخالفها، ويقرب مزاجها من ملاءمة البدن. وأمّا أهويتهم فقليلة العفن لقلة
 الرطوبات والعفونات إن كانوا أهيين، أو لاختلاف الأهوية إن كانوا ضواغن.
 ثم إن الرياضة موجودة فيهم من كثرة الحركة في ركض الخيل أو الصيد أو
 طلب الحاجات أو مهنة أنفسهم في حاجاتهم. فيحسن بذلك كله لهضم
 ويجود، ويفقد إدخال الطعام على الطعام. فتكون أمزجتهم أصح وأبعد عن
 الأمراض، فتقل حاجتهم إلى الطب. ولهذا لا يوجد الطبيب في البادية بوجه.
 وما ذلك إلا للاستغناء عنه، إذ لو احتيج إليه لوجد، لأنه يكون له بذلك في
 البدو معاش يدعو به إلى سكناه. سنة الله في عباده، ولن نجد لسنة الله
 تبديلاً⁽³⁸⁾.

(38) يه 62، سورة الأحزاب (33)

[29] في أن لخط والكتابة من عداد الصنائع الإنسانية

وهو رسوم وشكل حرفية تدل على الكلمات المسموعة اندالة على ما في
 نفس، فهو ثاني رتبة عن لدالة اللغوية، وهو صناعة شريفة، إذ الكتابة من
 خواص الإنسان التي تميز به عن الحيوان. وأيضاً فهي تُطلع على ما في
 الصنائر، وتتأذى بها الأعراس إلى لبس البعيد فتُقضى الحاجات وقد دفعت
 مؤنة المباشرة لها. ويُصنع بها على العلوم والمعارف وصحف الأولين وما
 كتبوه من علومهم وأخبارهم، فهي شريفة بجميع هذه الوجوه والمنافع،
 وخروجها في لإنسان من لقوة إلى لفعل ثم يكون بالتعليم

وعلى قدر الاجتماع ونعمان وانتفاحي في الكمالات والمطرب لذلك
 تكون جودة خط في المدينة، إذ هو من جملة الصنائع، وقد قدمت أن هذا
 شأنها ونها تابعة للعمارة، ولهذا يجد أكثر البدو قُصير ولا يكتبون.
 ومن قرأ منهم أو كتب، فيكون حصه قاصر وقراءته غير نافذة.

ومجد تعليمه لخط في لأصغر حارة عمرتها عن الحد سع وأسهل
 وأحسن طريقاً لاستحكام الصبغة فيها كما يحكى لنا عن مصر لهذا العهد،
 وأن به معنيين منتصين لتعليم الخط يقول على المتعلم قوايين وأحكاماً في
 وضع كل حرف، وبزبدون على ذلك الماشرة لتعليم وضعه، فتعتمد لديه رنة

لعلم و خمس في التعليم، ونأتي ملكته على أتم الوجوه. وإنما أتى هذا من كمال الصنائع ووفورها بكثرة العمران وانفساح الأعمال.

وليس الشأن في تعلم الخط بالأندلس والمغرب كذلك في نعلم كل حرف بافراده على قوانين يلقيها المعلم للمتعلم، وإنما تتعلم بمحاكاة الخط في هذه الكلمات حمئة وتكرر ذلك من المتعلم، ومطالعة المعلم له إلى أن تحصل له الإجادة وتتمكن في بنائه الملكة، فيسمى مُجيدًا.

وقد كان الخط العربي بالغًا مبالغه من الإحكام والانتقان والخودة في دولة التبايع لما بلغت من الحضارة والترف، وهو المسمى بالخط الحُميري. وننقل منهم إلى الحيرة لما كان بها من دولة آل المنذر، نساء التبايع في العصبية والمجذدين ملك العرب بأرض العراق. ولم يكن الخط عندهم من الإجادة كما كان عند السابعية لقصور ما بين الدولتين فكانت الحضارة وتوابعها من الصنائع وغيرها قاصرة عن ذلك. ومن الحيرة لقنه أهل الطائف وقريش فيما ذكر. يقال إن الذي تعلم الكتابة من الحيرة هو سفيان بن أمية، وقيل حرب بن أمية، وأخذها من أسلم بن سيدة^١. وهو قول ممكن، وأقرب ممن ذهب إلى أنهم تعلموها من إياد أهل العراق. لقول شاعرهم

قوم لهم ساحة العراق إذا ساروا جميعا والخط والقلم

قول بعيد، لأن إيادًا ولو نزلوا ساحة العراق فلم يزلوا على شأنهم من البدوة، والخط من الصنائع الحضارية. وإنما معنى قول الشاعر أنهم أقرب إلى

* هذه لفظة التي فيها لم ترد لا مي [ب] ولا مي [ج] ولا مي [د]

** أمية، عم سفيان بن حرب، وقيل [ب]

(٦٩) وردت هذه المعلومات عند كثير من المؤلفين. من جمعتهم أن اندم (الفهرست، بشرة فلوكن،

ص ٤). ونصوي (أدب الكتاب، ثقافته، ٩١٢٢/١٣٤١ ص ٣٠)، وابن خلكان (وفيات الأعيان،

صحة إحصان عباس، بيروت، ج ٣، ص ٣٤٤)

وكان لِحْمِيرُ كتابة تسمى المُسْتَد، حروفها منفصلة. وكانوا يمعون من تعليمها إلا بأذنهم. ومن حَمِيرُ تعلمت مُضر الكتابة العربية إلا أنهم لم يكونوا محيدس لها. شأن الصنائع إذا وقعت بالبدو، فلا تكون محكمة المذهب ولا مائة إلى الإتيان والتمسق لبون ما بين البدو والصناعة واستغناء البدو عنها في الأكثر. فكانت كتابة العرب بدوية مثل أو قريية من كتابتهم لهذا العهد، ونقول إن كتابتهم لهذا العهد أحسن صناعة لأن هؤلاء أقرب إلى الحضارة ومخالطة لأمصار والندون. وأما مُضَر، فكانوا أعرق في البدو وأبعد عن الحضرة من أهل اليمن والشام ومصر وأهل العراق. وكان الخط العربي لأو الإِسْلَام غير بالغ إلى الغاية من الإحكام والإتقان والإجادة ولا إلى التوسط لكان لعرب من البداوة والتوحش وبعدهم عن الصنائع.

وانظر ما وقع لأجل ذلك في رسم المصحف حيث كتبه الصحابة بخطوطهم وكانت غير مستحكمة في الإجادة، فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته أقيسة رسوم صناعة الخط عند أهلها. ثم اقتفى التابعون من السلف رسمهم فيها تبرُّكاً بما رسمه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخير الخلق من بعده المتلقون لوحيه من كتاب الله وكلامه، كما يقتفى لهذا العهد خط ولي أو عالم تبرُّكاً ويُنَبِّع رسمه خطاً أو صواباً. وأين نسبة ذلك من الصحابة وما كتبه ! فاتع ذلك وأثبت رسماً، وثبته العلماء بالرسم على موضعه

ولا تنفتح في ذلك إلى ما يزعمه بعض المغفلين من أنهم كانوا محكمين لصناعة الخط، وأن ما يُتَخَيَّل من مخالفة خطوطهم لأصول الرسم ليس كما يُتَحَيَّل، بل لكلها وجه. ويقولون في مثل زيادة الألف في "لا تُذبحنه" أنه تنبيه على أن الذبح لم يقع، وفي زيادة الياء في قوله "بأييد" أنه تنبيه على كمال القدرة الرمائية. وأمثال ذلك مما لا أصل له إلا التحكُّم المحض. وما حميهم على

* اقتضته رسوم [ب]

(41) أية 21 سورة النمل (27)، وآية 47، سورة النازعات (51)

ذلك إلا اعتقادهم أن في ذلك تنزيهاً للصحة عن توهم السفس في قبة إجادة الخط. وحسوا أن ذلك الخط كمال، فنزهوهم عن نقصه، ونسبوا إليهم كمال إجادته، وظلوا تعجيل ما حلف لإجادته من رسمه، وذلك ليس بصحيح.

واعلم أن الخط ليس بكمال في حقهم، إذ لخط من جملة الصنائع المدنية المعيشية، كما رأيته في ما مر. والكمال في لصنائع إضافية وليس بكمال مطلق، إذ لا يعود نقصه على الذات في الدين ولا في الخلخال. وإنما يعود على سبب المعاش وبحسب العمران ولتعودن عليه لأجل دلالة على ما في النفوس. وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم مبدئاً وكان ذلك كمالاً في حقه وبالنسبة إلى مقامه لشرفه وتنزهه عن لصنائع العمية التي هي أسباب المعاش ولعمران كلها. وليست الأمية كمالاً في حقت نحن، إذ هو منقطع إلى ربه، ونحن متعاونون على الحياة الدنيا شأن الصنائع كلها، حتى لعموم الاصطلاحية. فإن الكمال في حقه هو تنزهه عنها جملة بخلاف.

ثم لما جاء الملوك لعرب، وفتحوا الأمصار، وملكوا الممالك، ونزلوا البصرة والكوفة، واحتاجت لدولة إلى لكتب، استعمرو الخط وطبوا صناعته وتعلمه، وتداولوه، فترقت الإجادة فيه وسترحكم. وبلغ في الكوفة والبصرة رتبة الإتقان، لأنها كانت دون الغاية. والخط الكوفي معروف الرسم لهذا العهد.

ثم انتشرت العرب في الأقطار والممالك، وافتتحو إفريقيا والأندلس. واختط بنو العباس بعداد، وترقت الخطوط فيها إلى الغاية، استبحرت في العمران وكانت دار الإسلام ومركز الدولة لعربية. وخالفت أوضاع الخط بعدد أوضاعه الكوفة في الميسر إلى حادة الرسوم وجمال التزيين وحسن براء. واستحكم هذه المحافظة في الأعصر إلى أن رفع رايها بعداد

* منقطع من مائة وخمسة عشر سورة في رسمه، ولا في [ج]

(نو) عبي بن مقله الورير. ثم تلاه في ذلك علي بن هلال الكاتب، الشهير باسم السواب، ووقف سند تعليمها عليه في المائة الثالثة وما بعدها. وبُعدت رسوم خط السغدي وأوضاعه عن الكوفة حتى انتهى إلى المدينة ثم زادت لمخالفته بعد تلك العصور بتفتن الجهادية في إحكام رسمه وأوضاعه حتى انتهت إلى المتأخرين مثل ياقوت المستعصمي والولي عبي العجمي. ووقف سند تعليم الخط عليهم. وانتقل ذلك إلى مصر، وخالفت طريقة لعراق بعض الشيء، ولقنتها العجم هنالك، فظهرت مخالفة خط أهل مصر ومبينة.

وكان خط الإفريقي المعروف رسمه القديم لهذا العهد يقرب من أوضاع الخط المشرقي. وتُحيز ملك الأندلس بالأمويين، فتميزوا بأحوالهم من الحضارة والصنائع والخطوط، فتميز صنف خطهم الأندلسي كما هو معروف الرسم.

وطما بحر العمران والحضارة في الدول الإسلامية في كل قطر، وعظم الملك، ونفقت أسواق العلوم. وانتسخت الكتب وأُجيد كتبها وتجيدها، ومُنبت بها القصور والخزائن الملوكية بما لا كفاء له، وتنافس أهل الأقطار في ذلك وتناغوا فيه.

ثم لما انحل نظام الدولة الإسلامية وتنافست، تنافس ذلك أجمع، ودرست معالم بغداد بدروس الخلافة. فانتقل شأنها من الخط والكتاب، بل والعلوم، إلى مصر والقاهرة. فلم تزل أسواقها باقية لهذا العهد. ولخطها معتمون يرسمون للمتعلم الحروف بقوانين في وضعها وأشكالها متعارفة بينهم. فلا يلبث المتعلم أن يحكم أشكال تلك الحروف على تلك لأوضاع وقد لقنها حساً وحذق فيها دربة وكتاباً وأخذها قوانين عملية، فتجيء أحسن ما يكون.

وأما أهل الأندلس، فافترقوا في الأقطار عند تلاشي ملك العرب بها ومن حكامهم من البربر تغلبت عليهم أم النصرانية. فانتشروا في عدوه المعرب

وفريقية من لدن الدولة البتونوية إلى عهد عهد، وشاركوا أهل العمران ما
لديهم من لصائع، وتعلّقوا بأدب الدولة، فعبّ حطهم على خط الإفريقي
وعفا عليه، ونسي خط القيرون ومهدية بسبب عوائدهم وصنعتهم
وصارت خطوط أهل إفريقية كلها على الرسم الأندلسي سوس وما إليها
توقروا أهل الأندلس بها عند اجالية من شرق الأندلس. وبقي منه رسم ببلاد
جريد الذين لم يخالطو كتاب الأندلس ولا تمرّسوا بجوارهم، إذ لما كنو
يفدون على دار الملك بتونس. فصار خط أهل إفريقية من جنس خطوط أهل
الأندلس، حتى إذا تقصّ ظل الدولة لموحدية بعض لشيء وتراجع أمر
الحضارة والترف بترجع لعمران، نقص حينئذ حل الخط، وفسدت رسومه
وجُهل فيه وجه التعقيم بفساد الحضارة وتناقص لعمران. وبقيت فيه آثار خط
الأندلسي تشهد بما كان لهم من ذلك، لما قدّمناه من أن لصائع إذا رسحت
بالحضارة فيعسر محوؤها.

وحصل في دولة بني مرين بعد ذلك بالمرغرب الأقصى لون من خط
الأندلسي لقرب جوارهم وسقوط من خرج منهم إلى فاس قريباً واستعملهم
إياهم سائر الدولة. ونُسي عهد الخط فيم بعد عن سُدة الملك وداره، كأنه
يُعرف. فصارت خطوط بإفريقية والمغربين ماثلة إلى لرداءة، بعيدة عن
الجودة. وصارت الكتب إن نُسخت فلا فائدة تحصل لمتصفحها منها إلا
العناء والمشقة، لكثرة ما يقع فيها من لفساد والتصحيف، وتغيير لأشكال
الخطية عن الجودة حتى لا تكاد تُقرأ إلا بعد عسر. ووقع فيه ما وقع في سائر
نصائغ بنقص الحضارة وفساد الدول. ولنه يحكم لا معقب لحكمه^{١٠}.
ولأمتاذ أبي الحسن عبي بن هلال الكاتب لبغداد، الشهير بابن
لنواب، قصيدة من بحر لسيط عبي روي المرء، نذكر فيها صاعداً حص

^{١٠} بهاء، حتى [ب]

(١٠) قية ٤، سورة مرشد ١٣.

^{١١} مقطع من هذا بحر مرشد مصر نه - دلا في [ب] ولا في [ج]

وموادها من أحسن ما كتب في ذلك، رأيت إثباتها في هذا الكتاب من هذا الباب لينتفع بها من يريد تعلم هذه الصناعة. وأولها :

يا من يريد إجابة التحرير
إن كان عزمك في الكتابة صادقا
اعدد من الأقلام كل مثقف
وإذا عمدت لبريه فتوخه
انظر إلى طرفيه فاجعل بريه
واجعل لجلفته قواما عادلا
والشق وسطه ليبقى بريه
حتى إذا أتقنت ذلك كله
فاصرف لرأي القط عزمك كله
لا تظمن في أن أبوح بسره
لكن جملة ما أقول بأنه
والق دواتك بالدخان مدبرا
وأضف إليه مغرة قد صولت
حتى إذا ما خمرت فاعمد إلى
فاكبسه بعد القطع بالمعصركي
ثم اجعل التمثيل دأبك صابرا
ابدأ به في اللوح منتصيا له
لا تخرجن من الرديء تخطه
فالأمر يصعب ثم يرجع هينا
حتى إذا أدركت ما أملت
فاشكر إلهك واتبع رضوانه
وارغب لكفك أن تخط بنانها
فجميع فعل المرء يلقاه غدا

ويروم حسن الخط والتصوير
فارغب إلى مولاك في التيسير
صلب يصوغ صناعة التحبير
عند القياس بأوسط التقدير
من جانب التدقيق والتخصير
لا يخلو عن التطويل والتقصير
من جانبيه مشاكل التقدير
إتقان طب بالمراد خبير
فالقط فيه جملة التدبير
إني أضن بسره المستور
مابين تحريف إلى تدوير
بالخل أو بالحصرم المعصور
مع أصفر الزرنيع والكافور
الورق النقي الناعم المخبور
ينأى عن التشعيب والتغير
ما أدرك المأمول مثل صبور
عزما تجرده من التشمير
في أول التمثيل والتسطير
ولرب سهل جاء بعد عسير
أضحيت رب مسرة وحوور
إن الإله يجيب كل شكور
خير تخلفه بسدار عرور
عند التقاء كتابه المنشور

واعلم أنه الخط يبدأ عن النقول والكلام. كما أن النقول والكلام يبدأ عن النفس والصميم من المعاني. فلا بد لكل منهما أن يكون واضح الدلالة فإن الله تعالى خلق الإنسان علمه نبيلاً. وهو يشتمل على الأدلة كلها فالخط محدود كماله أن تكون دلالاته وصحة بداية حروفه لتواضعه، وإحادة وضعه ورسمها كل واحد على حدة، متميز عن الآخر إلا ما اصطلاح عليه الكتاب من إيصال حرف الكلمة لواحدة بعضها ببعض، سوى حروف اصطلاحاً على قطعها مثل الأنف المتقدمة في الكلمة، وكذا الرء والنزاي و لدال والذال وغيرها، بخلاف ما إذا كانت متأخرة، وهكذا إلى آخرها.

ثم إن المتأخرين من الكتاب اصطلاحوا على وصل كلمات بعضها ببعض، وحذف حروف معروفة عندهم لا يعرفها إلا أهل مصطلحهم، فتستعجم على غيرهم. وهؤلاء كتب دواوين السطون وسجلات القضاء، كأنهم انفردوا بهذا الاصطلاح عن غيرهم لكثرة موارد لكتابة عليهم وشهرة كتابتهم وإحاطة كثير من ذويهم بمصطلحهم. فإن كتبوا ذلك من لا خبرة له بمصطلحهم فينبغي أن يعدلوا عن ذلك إلى البيان ما استطعوه، وإلا كان بمثابة الخط الأعجمي لأنه بمنزلة واحدة في عدم التواضع عليه. وليس يُعذر في هذا القدر إلا كتاب لأعمال لسطانية في الأموال والجيش، لأنهم مطلوبون بكتمان ذلك عن الناس، فإنه من الأسرار لسطانية التي يجب إخفاؤها. فيبالغون في رسم اصطلاح خاص بهم، ويصير بمثابة المعنى، وهو اصطلاح على العبارة عن الحروف بكلمات من أسماء الطيب ولفوكة والطيور أو الأزهار، ووضع أشكال أخرى غير أشكال حروف المتعارفة، يصطليح عليها المتخاطبون لتأدية ما في ضمائرهم بالكلمات. وربما وضع الكتاب للعشور على ذلك، وإن لم يضعوه أولاً، قوانين عقبيس ستخرجوها لذلك عند ركنهم يستمونها. فتعنى. وللناس في ذلك دواوين مشهورة.

وله النعيم الحكيم.

[30] في صناعة الوراقة

كانت العناية قديماً بالدواوين العلمية والسجلات في نسخها وتجليدها وتصحيحها بالرواية والضبط، وكان سبب ذلك ما وقع من ضخامة الدولة وتوابع الحضارة. وقد ذهب ذلك لهذا العهد بذهاب الدول وتناقص عمران بعد أن كان منه في الملة الإسلامية بحر زاهر بالعراق والأندلس، وهو كله من توابع العمران واتساع نطاق الدول ونفاق أسواق ذلك لديها. فكثرت لتوليف العلمية والدواوين، وحرص الناس على تنقلها في الأفق والأعصار، فانتسخت وحللت. وجاءت صناعة الوراقين المعانين للانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر أمور الكتب والدواوين. واختصت بالمصنار لعظمة العمران.

وكانت السجلات أولاً لانتساخ العلوم وكتب الرسائل السلطانية ولإقطاعات والصكوك في الرقوق المهيأة بالصناعة من الجند لكثرة الرقة وقلة التوليف صدر الملة، كما تذكره، وقلة الرسائل السلطانية والصكوك مع

* صحيفه [ب]

ذلك. فاقصروا على الكتب في ررق تشریف للمكتوبات وميلا بها إلى
لصحة والإنجاز

ثم طم بحر التوثيق والتدوين، وكثر ترسيل السطاب وصكوكه، وضيق
نرق عن ذلك فأشرف لفضل بن يحيى بصناعة الكعد وصعده، وكتب فيه
رسائل السطاب وصكوكه وتخذ له من بعده صحفاً مكتوبتهم
السطابية والعمية. وبغت الإجادة في صناعته ما شاءت.

ثم وقفت عنده أهل العموم وهيم أهل الدول على ضبط الدواوين
العمية وتصحيحها بالرواية المسندة إلى مؤلفيها ووضعها، لأنه الشأن الأهم
من التصحيح والضبط. فبذلك تُسند الأقوال إلى قائلها ولفت إلى الحاكم بها
المجتهد في طريق استنباطها. وما لم يكن بصحيح المتن يسنادها إلى مدونيها
فلا يصح إسناد قول لهم ولا فتيا. وهكذا كان شأن أهل العموم وحملته في
العصور والأجيال والأفوق، حتى لقد قصرت فائدة الصناعة الحديثة في
الرواية على هذه فقط، إذ ثمرتها الكبرى من معرفة صحيح الأحاديث
وحسنها ومُسندها ومُرسنها ومقطوعها وموقوفها من موضوعها قد ذهبت
وتمخضت زبدة ذلك في الأمهات لمتلقة بالقبول عند الأمة، وصار القصد إلى
ذلك لغوًا من العمل. ولم ينق ثمرة لرواية والاشتغال بها إلا في تصحيح تلك
الأمهات الحديثة وسواها من كتب الفقه للفتيا وغير ذلك من الدواوين
ولتوالت العمية واتصل سندها بمؤلفيها ليصح النقل عنهم والإسناد إليهم.
وكانت هذه الرسوم بالمشرق ولأندلس معبدة الطرق واضحة المسائل.
وقد نجد الدواوين المنتسخة لذلك لعهد في أقطارهم على غاية لإتقان
والإحكام والصحة. ومنها لهد لعهد نايفي للناس في العالم أصول عتيقة
تشهد بنوع الغية لهم في ذلك وأهل الأفاق ينالونها إلى الأب، ويشدون
عديها يد الصانة.

ولقد ذهبت هذه الرسوم لهذا العهد حملة بالعرب وهم لا يقطع صناعة الخط واصسط والرواية منه بانتفاص عمرانه وبدوة أهله، وصدرت الأمهات والدواوين تُنسخ بالخط، للدوة يسحبها طلبة البربر صحائف مستعجمة برودة الخط وكثرة عساده وانصحيه فتستعق على متصفحها ولا يحصل منها فائدة إلا في الأقل النادر.

ويُضًا فقد دخل الخلل من ذلك في الفتية، فإن غالب الأقرب المعزوة غير مربية عن ثمة المذهب، وإنما تُتقَى من تلك الدواوين على ما هي عليه. وتبع ذلك أيضًا ما يتصدى إليه بعض ثمتهم من التلّيف لقلّة بصرهم بصنّعه وعدم لصنّائع الوافية بمقاصده. ونم يبق من هذا الرسم إلا إثارة بالاندلس خفية بالامحاء، وهي على الاضمحلال. فقد كاد المصنف أن ينقطع بالكنية من المغرب. والله غلب على أمره.

ويبلغنا لهذا العهد أن صناعة رواية قائمة بالشرق، وتصحيح الدواوين لم يرومه بذلك سهل على مبتغيه لنفاق أسواق العوم وانصنائع، كما نذكره بعد. إلا أن الخط الذي بقي من لإجادة في الانتساخ هناك، لما هو لعجبه وفي خطوطهم. وأما النسخ بمصر، ففسد كما فسد بالمغرب وشبهه. والله غلب على أمره.

١٠ مصعق من هذا على غير خصص به - وفي [ب]

[31] في صناعة الغناء

هذه الصناعة هي تلحين الأشعار الموزونة بتقطيع الأصوات على نسب
سُطمة معروفة توقع على كل صوت منها توقيعا عند قطعه، فتكون نغمة، ثم
تؤلف تلك النغم بعضها إلى بعض على نسب متعارفة، فينذ سماعها لأجل
انتساب وما يحدث عنه من الكيفية في تلك الأصوات.

وذلك أنه يتبين في علم الموسيقى أن الأصوات تتناسب ليكون صوت
صنف صوت، وربع آخر، وخمس آخر، وجزءاً من أحد عشر من آخر.
واختلاف هذه النسب عند تأديتها إلى السمع يخرجها عن البسطة إلى
تركيب، وليس كل تركيب منها ملذوذاً عند السمع، بل تراكيب خاصة هي
لتي حصرها أهل علم الموسيقى وتكلموا عليها، كما هو مذكور في موضعه.
وقد يساق ذلك التلحين في النغمات الغنائية بتقطيع أصوات أخرى من
الجمدات إما بالقرع أو النفخ في آلات تُتخذ لذلك، فتزيدها لذة عند
السمع. فمنها لهذا العهد بالمغرب أصناف منها المزمار، يسمونه الشبابة.

* بغيره شئ نشتدئ من هنالم ترد في [ب]

** نهاية الجملة في [ب]

وهي فصبة جوفاء بأبخاش في جوانبها معدودة، ينفخ فيها فنصوت ويخرج الصوت من جوفها على سداة من تلك الأبحاش. ويُقطع الصوت بوضع الأصابع من اليدين جميعاً على تلك الأبحاش وضعا متعارفاً حتى تحدث النسب بين الأصوات فيه وتتصل كذلك متناسبة. فيلتد السمع بإدراكها للتناسب الذي ذكرناه. ومن جنس هذه الآلة آلة الزمر التي تسمى الزلامي، وهي شكل القصبة، منحوتة الجانبين من الخشب، جوفاء من غير تدوير لأجل اتلافها من قطعتين، منفوذة كذلك بأبخاش معدودة ينفخ فيها بقصبة صغيرة توصل. فتنفذ النفخ بواسطتها إليها ونصوت بنغمة حادة، ويحري فيها من تقطيع الأصوات من تلك الأبحاش بالأصابع مثل ما يحري في الشابة ومن أحسن آلات الزمر لهذا العهد البوق وهو بوق من نحاس حويف في مقدار الذراع، يتسع إلى أن يكون انفراج مخرجه في مقدار دور الكعب. على شكل برّي القنم. ويُنفخ فيه بقصبة صغيرة تؤدي الريح من انهم إليه. فيخرج الصوت ثخيناً دويّاً. وفيه أبخاش أيضاً معدودة، وتُقطع بعمة منها كذلك بالأصابع على التناسب فيكون مدوذاً.

ومنها آلات الأوتار. وهي جوفاء كلها، إما على شكل قصعة من الكرة، كالبربط والرباب، أو على شكل مربع. كالكانون، نوضع الأوتار على سادتها مشدودة في رأسها إلى دساتر جائلة ليتأتى رخواها عند الحاجة إليه بدرتها. ثم تُقرع الأوتار إما بعود آخر أو بوتر مشدود بين طرفي قوس يمر عنيها بعد أن يُطلى بالشمع والكندر. ويُقطع الصوت فيه بتخفيف اليد في إمراره أو بنقله من وتر إلى وتر، واليد اليسرى مع ذلك في جميع آلات الأوتار توقع بأصابعها على أطراف الأوتار فيما يقرع أو يحك بالوتر، فتحدث الأصوات متناسبة مدوذة. وقد يكون القرع في الطسوت بانقصاب أو في الأعواد بعضها ببعض على توقع متناسب يحدث عنه التذاذ بالمسموع.

بأنساب (ب) في جميع مخطوطات الأخرى سوى (ب) [أ] في هذا النص كما نكتبه نحن
عوض كلمة أنساب أو نكتب.

ب) بيتاني شد الأوتار ورخواها بإدراكها (ب)

ونسب لك السبب في اللذة الناشئة عن الغناء. وذلك أن اللذة كما تفرّج في موضعه هي إدراك الملائم. والمحسوس إنما تدرك منه كيفية، فإذا كانت مناسبة للمدرك وملائمة، كانت ملذوذة. وإذا كانت منافية له، منافرة، كانت مؤلمة. فالملائم من الطعوم ما ناسب كقيته حاسة الذوق في مزاجها وكذا الملائم من الملموسات، وفي الروائح ما ناسب مزاج الروح القلبي السحاري، لأنه المدرك وإليه تؤديه الحاسة. ولهذا كانت الرياحين والأزهار العطرية أحسن رائحة وأشد ملاءمة للروح لغلبة الحرارة فيها التي هي مزاج لروح قلبي. وأما المراثيات والمسموعات، فالملائم فيها تناسب الأوضاع في أشكالها وكيفياتها، فهو أنسب عند النفس وأشد ملاءمة لها. فإذا كان المرئي متناسباً في شكله وتحاضبه التي له بحسب مادته بحيث لا يخرج مما تقتضيه مادته الخاصة من كمال المناسبة والوضع، وذلك هو معنى الجمال والحسن في كل مدرك، كان ذلك حينئذ مناسباً للنفس المدركة، فتلد إدراك ملائمتها. ولهذا تجد لعاشقين المستهشرين في المحبة يعبرون عن غاية محبتهم وعشقهم باعتزاز أرواحهم بروح المحبوب. ومعناه من وجه آخر أن الوجود يشترك بين الموحودات كما يقوله الحكماء، فتود أن تمتزج بما شهدت فيه الكمال لتتحد به.

ولما كان أنسب الأشياء إلى الإنسان وأقربها إلى أن يدرك الكمال في تناسب موضوعها هو شكله الإنساني، فكان إدراكه للجمال أحسن في تخطيطه وأصواته من المداير التي هي أقرب إلى فطرته، يبلهج كل إنسان بالحسن المرئي أو المسموع بمقتضى الفطرة. والحسن في المسموع أن تكون الأصوات متناسبة لا متنافرة. وذلك أن الأصوات لها كيفيات من الهمس

^{١٠} روح البحاري [ب]

المحبوب وفي هذا سر نفهسه إن كنت من أهله، وهو اتحاد المبدأ، وأن كل ما سوك إد نظرنه وتأمته رأيت بسبك وبسه اتحاداً في البداية يشهد لك بها اتحاداً كما في الكون ومعناه [ب]

^{١١} بـ حتر، في [ب] : لتتحد به. بل تروم النفس حينئذ الخروج من الوهم إلى الحقيقة التي هي اتحاد المبدأ والكون

والجهر والرحاوة والشدة والقلقلة والضغط وغير ذلك. والتناسب فيها هو الذي يوجب لها الحسن. فأولاً أن لا يخرج من الصوت إلى ضده دفعة، بل بتدريج، ثم يرجع كذلك. وكذلك إلى المثل، بل لا بد من توسط المغير بين الصوتين. وتأمل هذا من استقباح أهل اللسان التراكيب من الحروف المتنافرة أو المتقاربة المخارج، فإنه من بانه وثانيًا تناسبها بالأجزاء، كما مر أول لبب. فيخرج من الصوت إلى نصفه أو ثلثه أو جزء من كذا منه، على حسب ما يكون لتنقل مناسباً على ما حصره أهل صناعة الموسيقى. فإذا كانت الأصوات على تناسب في الكيفيات، كما ذكره أهل تلك الصناعة، كانت ملائمة ملدودة.

ومن هذا التناسب ما يكون بسيطاً ويكون الكثير من الناس مصمم على عيبه، لا يحتجور فيه إلى تعميم ولا صناعة، كما نجد المطبوعين على مؤررين شعرية وتوقيع الرقص وأمثال ذلك. وتسمى العامة هذه الفسيهات بالمصار. وكثير من القراء بهذه المثابة. يقرؤون القرآن، فيحيدون في تلاحين أصواتهم كأنها الزامير، فيضطربون بحسن مسافهم وتناسب نغماتهم.

ومن هذا التناسب ما يحدث بالتركيب، وليس كل الناس يستوي في معرفته، ولا كل الطوائع توافق صاحبها في العمل به إذا علم. وهذا هو لشحن الذي يتكلم به علم الموسيقى، كما نشرحه بعد ذكر العلوم.

وقد أكر مالك رضي الله عنه القراءة بالتلحين، وأحارها لشافعي رضي الله عنه. وليس المراد تلحين الموسيقى الصناعية، فإنه لا ينبغي أن يختلف في حطره، إذ صناعة الغناء مباينة للقرآن.

لأن القراءة والأداء يحتاج إلى مقدار من الصوت يتعين أداء الحروف به من حيث إشباع الحركات في مواضعها ومقدار المدة عند من يعطيه أو

* فالتناسب فيها أن لا يخرج [ب].

** بابه. فإذا [ب].

43 لا يخرج إلى جلدون موضوع موسيقى صمن العلوم. لأنه ذكرها في إحصائه للعلوم. انظر ج 2، ص 72

* هذه العشرة ثم يرد في [ب].

يقصّره، وأمثال ذلك والتلحين أيضًا يتبعين له مقدار من الصوت لا يتم إلا به من أجل التسبب الذي قلناه في حقيقة التلحين، واعتبار أحدهما قد يُجرّح الآخر إذا تعارضا. وتقديم تلاوة متعّين قرآنًا من تعبير الرواية المنقولة في القرآن. فلا يمكن اجتماع لتلحين والأداء المعتر في القرآن بوجه

ثم المراد من اختلافهم التلحين لبسيط سبي يهتدي إليه صاحب المضمون بطبعه، كما قدمناه. فيردّد أصواته ترديدًا على نسب يدركها العالم بالغناء وغيره. هذا هو محل الخلاف. ولظهر تنزيه القرآن من هذا، كما ذهب إليه لإمام رحمه الله، لأن القرآن هو محل خشوع بذكر الموت وما بعده، وليس مقدم لتلاذذ يدرك احسن من لأصوات. وهكذا كانت قراءة الصحابة كما في أخبارهم. فأما قوله صلى الله عليه وسلم: «لقد أوتي مزمارًا من مزامير آل داود»، فليس المراد به التردد والتلحين، وإنما معناه حسن الصوت وثناء القراءة والإبانة في مخرج حروف والنطق بها.

وإذا قد ذكرنا معنى الغناء، فاعلم أنه يحدث في العمران إذا توفّر وتجاوز حد لضروري إلى الحاجي، ثم إلى لكمالي وتفنّنوا فيه، فتحدث هذه لصناعة لأنها لا يستند عليها إلا من فرغ عن جميع حاجاته الضرورية والمهمة من المعيش والمنزل وغيره. فلا يضربها إلا الفارغون عن سائر أحوالهم تفتّد في مذاهب الملذّذات. وكان في سبط العجم قبل الملة منها بحرًا زاخرًا في أمصارهم ومدنهم. وكان موكلهم يتخذون ذلك ويولعون به، حتى لقد كان ملوك الفرس اهتمام بأهل هذه الصناعة ولهم مكان من دولتهم. وكانوا يحضرون مشاهدتهم ومجامعهم ويفنون فيها. وهذا شأن العجم لهذا العهد في كل أفق من أفقهم وعمكة من ممالكهم.

* خلاف ولا يسمى ذلك نوحه. كما دله مالك وانصاره (ب)

وأما العرب . فكان لهم أولاً فن الشعر ، يؤلفون فيه الكلام أجزاءً متسوية على تناسب بينها في عدة حروفها المتحركة والسكونية . ويُعَصِّدُونَ الكلام في تلك الأجزاء . تفصيلاً يكون كل جزء منها مستقلاً بالإفادة لا ينعطف على الآخر . ويسمونه البيت . فلانهم الطبع بالتجزئة أولاً . ثم تناسب الأجزاء في المقاطع والمبادئ . ثم بتأدية المعنى المقصود وتطبيق الكلام عليه . فيجوز به . وامتد من بين كلامهم بحظ من الشرف ليس لغيره لأجل اختصاصه بهذا التناسب وجعلوه ديواناً لأخبارهم وحكمهم وشرفهم . ومَحْكُتُ قُرَاطِهِمْ فِي إِصَابَةِ الْمَعْنَى وَإِجَادَةِ الْأَسَالِيبِ . واستمروا على ذلك .

وهذا التناسب الذي من أجل الأجزاء والمنحركات والسكن من الحروف قصرة من بحر تناسب الأصوات كما هو معروف في كتاب الموسيقى إلا أنهم لم يشعروا بما سواه . لأنهم حينئذ لم ينتحلوا علماً ولا عرفوا صناعة . وكانت البدوة أغنيتهم . ثم نعتى الخدأة منهم في حياء بينهم ولفتيان في قضاء حلواتهم . فرجعوا الأصوات وترنموا . وكانوا يسمون الترنم إذا كان بالشعر غناء . وإذا كان بالتهليل أو نوع انقراءة تغييراً . بالغين المعجمة والباء الموحدة . وعللها أبو إسحاق الزحاح بأنها تذكر بالغير . وهو الباقي . ثم بأحول الأحره . وربما ناسوا في غنائهم بين النعمات مناسبة بسيطة . كما ذكره ابن رشيق آخر كتاب العمدة وغيره . وكانوا يسمونه نسيد . وكان أكثر ما يكون منهم في الخفيف الذي يرقص عليه ويمشى بسف ومزمار . فيضطرب ويستحف الخلوم . وكانوا يسمون هذا 'الهنزح' . وهذا السيط كنه من التلاحين هو من أوائلها . ولا يبعد أن تنمض له الضباع من غير تعميم . شأن السيط كلها من الصنائع . ولم يزل هذا شأن العرب في مدونتهم ووحدهيتهم .

هذا نسبي حمدة في [أ]

هذا نسبي حمدة في [ب]

فمما جاء الإسلام و ستولوا على مملكت الدنيا و حاروا سبطان المعجم
وعلىوهم عليه و كانوا من لدوة و العصابة على الحل التي عرفت لهم، مع
عضرة الدين و شدته في ترك أحوال الفراع و ما ليس سمع في دين ولا
معش . فتهجر ذلك متبكم ، ولم يكن المنود عدهم إلا ترجيع القراءة و لترنم
بالشعر الذي كان ديدنهم و مذهبهم . فمما جاء الترف و غلب عليهم الرفه بما
حصل لهم من غنائم الأمم، صاروا إلى نضارة العيش ورقة احشية و استحلاء
لفراع . و افترق المغنون من الفرس و الروم ، فوقعوا إلى الحجاز و صاروا
موالي العرب ، و غنوا جميعاً بالعيدن و الطنابير و المعازف و المزامير . و سمع
العرب تلحينهم الأصوات ، فحننوا عليها أشعرهم . و ظهر بالمدينة نشيط
الفارسي ، و طويس ، و سائب خنير ، مولى عبد الله بن جعفر ، فسمعوا شعر
لعرب و لحنوه و أجدوا فيه ، و طار لهم ذكر . ثم أخذ عنهم مَعْبَد و طبخته ، و ابن
سُرَيْج⁴⁴ و أنظاره . و ما زالت صنعة الغناء تتدرج إلى أن كملت أيام بني
العباس عند إبراهيم بن المهدي و إبراهيم الموصلي و ابنه إسحق و ابنه حماد .
و كان من ذلك في دولتهم ببغداد ما تبعه خديث به و بمجالسه لهذا العهد .
و أمعنوا في اللهو و اللعب ، و اتخذت آلات الرقص في الملابس و القصبان
و الأشعر التي يترنم بها عليه ، و جعل صنف وحده . و اتخذت آلات أخرى
للقص تسمى بـ الكُرَّج ، و هي تماثيل خيل مسرجة من الخشب ، معنقة
بأطراف أقبية تلبسها النسوان ، و يحاكون بها امتطاء الخيل ، فيكرونها و يفرون
و يتناقفون ، و أمثال ذلك من للعب المعدة لنواظم و لأعراس و أيام الأعياد
و مجالس الفراغ و اللهو . و كثر ذلك ببغداد و أمصار العراق ، و انتشر منها فيما
سواها⁴⁵

44، اقرأ بن خلدون هذا الاسم . بن شرح

45 نظر في موضوع . راجع موسيقى عند العرب

وكان للموصنين غلام اسمه زَرْيَاب، أخذ عنهم الغناء فأجاد، وصرفوه إلى المغرب، غيرة به. فلحق بالحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل، أمير الأندلس، فبالغ في تكريمه، وركب للقاءه، وأسنى له الجوائز والإقطاعات واجرايات، وأحله من دولته وندمائه مكاناً⁽⁴⁶⁾. فأورث بالأندلس من صعدة العناء ما تناقلوه إلى أزمان الطوائف. وطما منها ياشبيلية بحر راحر، وتندقل منها بعد دهاب غضارتها إلى بلاد العدو يافريقية والمغرب، وانقسم إلى أمصارها. وبها الآن منها ضباة على تراجع عمراتها وتناقص دولها. وهذه الصناعة آخر ما يحصل من العمران من الصنائع، لأنها كمالية في غير وظيفة من الوظائف إلا وظيفة الفراغ والفرح. وهي أيضاً أول ما ينقطع من العمران عند اختلاله وتراجعه. والله الخلاق العليم⁽⁴⁷⁾.

46) في موقع وصل زرياب إلى الأندلس بعد وفاة الحكم في سنة 822، وكان الذي استقبله هو عبد الرحمن بن الحكم

47) آية 86 من سورة الحجر (15).

[32] في أن الصنائع تكسب صاحبها عقلا
وخصوصا الكتاب واحساب

قد ذكرنا في كتاب أن لنفس للطاقة للإنسان، مما توجد فيه بالقوة، وأن خروجها من القوة إلى الفعل، مما هو بتحدد العلوم والإدراكات من محسوسات أولاً، ثم ما يُكتسب بعدها بالقوة النظرية إلى أن تصبح إدراكاً بالفعل وعقلاً محضاً، فتكون ذاتاً روحانية، وتستكمل حينئذ وجودها. فوجب لذلك أن يكون كل نوع من لعمه وأنظر يفيد عقلاً مزيداً. والصنيع بذلك يحصل عنها وعن ملكتها قانون عملي مستفاد من تلك الملكة. فهذا كنت الحنكة في التجربة تفيد عقلاً، والملكات الصناعية تفيد عقلاً، والحضارة الكاملة تفيد عقلاً، لأنها مجتمعة من صنائع في شأن تدبير منزل ومعاشرة بناء الجنس وتحصيل الآداب في مخاضاتهم، ثم القيم بأمور الدين واعتبار ذبها وشرائعها. وهذه كلها قوانين تنتظم عموم فتحصل منها زيادة عقل. والكتابة من بين الصنائع أكثر إفادة بذلك، لأنها تشتمل على عموم وأطراف بحلاف صنائع. ويبيانه أن في الكتابة انتقالاً من صور الحروف الخطية إلى كُتبت المقصية في احبار، ومن كُتبت المقصية في الحبار إلى المعنى لسي

في النفس. وهو ينتقل أذا من دليل إلى دليل ما دام ملتبسا بالمكانة. ويتعود نفس ذلك دائماً فيحصل لها ملكة الانتقال من الأدلة إلى مسؤلات. وهو معنى انظر العقلي الذي نكتسب به 'معلوم' المجهولة فنكتسب بسبب ملكة من العقل تكون زيادة عقل، ويحصل به مزيد فطنة وكيس في الأمور بما تعودوه من ذلك الانتقال. ولذلك قال كِشْرِي في كتابه لما راهم ديو به . 'ي شياطين وجنون. قالوا: وذلك أصل اشتقاق النيران لأهل الكتابة.

ويُبحق بذلك الحساب. فإن في صناعة الحساب نوع تصرف في أعداد بأنضم والتفريق يحتاج فيه إلى استدلال كبير، ويبقى متعوداً لاستدلال والنظر، وهو معنى العقل.

والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون".

(١٨) سورة النحل ١٦١ + سورة ٧٨ - سورة المؤمنون ١٦١ - سورة ٦٦ - سورة ٥٥ - سورة ١٠٤ - سورة ٥٠
سورة ٦٧

الفصل السادس من الكتاب الأول

في العلوم وأصنافها، والتعليم وطرقه،
وما يعرض في ذلك كله من الأحوال

وفيه مقدمة ولواحق

* الفصل السادس في العلوم وأصنافها والتعليم وسائر طرقه وسائر وجوهه وما يعرض في ذلك كله من الأحوال، وفيه مقدمة ولواحق [ب]

المقدمة

في الفكر الإنساني الذي تميّز به البشر عن الحيوانات
واهتدى به لتحصيل معاشه والتعاون عليه بأبناء جنسه
والنظر في معوده وما جاءت به الرسل من عنده، فصار جميع
الحيوانات في طاعته وملكة قدرته، وفضله به على كثير من خلقه

[1] في الفكر الإنساني

عمم أن الله سبحانه ميز البشر عن سائر الحيوانات بالفكر الذي جمعه مبدئاً
كماله ونهاية فضله على الكائنات وشرفه. وذلك أن الإدراك، وهو شعور
المُدرِك في ذاته بما هو خارج عن ذاته، هو خاصٌّ بالحيوان فقط من بين سائر
الكائنات والموجودات. فالحيوانات تشعر بما هو خارج عن ذاتها بما ركب الله
فيها من الخواص الظاهرة: السمع، والبصر، والشم، والذوق، واللمس.

* مدخل الوحيز وتفصّل

في الفكر الإنساني

في أن هوال الحوادث النفسية إما تنم بالفكر

في العقل التجريبي وكيفية حدوثه

في علوم البشر وعلوم الملائكة

في علوم الأنبياء عليهم السلام و أن الإنسان حاش بالذات عالم بالكسب

به ترولاي [ب] ولاي [ج] هي هاتين الخطوطين يتبدئ الفصل السادس بمفصل في أن

العمم وانعميم طبيعي في العمران البشري الذي سقط في التروايات اللاحقة بصر جمعه خاصة

بلمقدمة، ج ٢، مفصل السادس

* فاصدر [خ]

وبيزيد الإنسان من بيها أنه يُدرك الخارج عن ذاته بالفكر ادي وراء حسته ودلت نُقوى جُعِلت له في بطون دماغه، يتربع بها صُورُ المحسوسات ويحول مدحه فيها، فيجرّد منها صُوراً أخرى. والفكر هو التصرف في تدث الصُور وراء الحسّ وحولال الدهن فيها بالاترع والتركيب. وهو معنى الأفتدة من قوله تعالى : جعل لكم السمع والأبصار والأفتدة".

ولأفتدة، جمع فؤاد، وهو هذا الفكر. وهو على مراتب :
الأولى تعقّل الأمور المترتبة في الخارج ترتيباً طبيعياً أو وضعياً ليقصد يقاها بقدرته. وهذا الفكر أكثره تصوّرات، وهو العقل التمييزي الذي به يُحصّل منافعه ومعاشه ويدفع مضره.

الثانية الفكر الذي يُفيد الآراء والآداب في معاملة أبناء جنسه وسياستهم. وأكثرها تصديقات تحصل بالتجربة شيئاً إلى أن تتم الفائدة منها. وهذا هو المسمّى بالعقل التجريبي.

الثالثة الفكر الذي يُفيد العلم أو الظن بمطلوب وراء الحسّ لا يتعلّق به عمل. وهذا هو العقل النظري. وهو تصوّرات وتصديقات تنتظم انتظاماً خاصاً على شروط خاصّة، فتُفيد معوماً آخر من جنسها في التصوّر أو التصديق. ثم ينتظم مع غيره، فيُفيد معلوماً آخر كذلك. وغاية إفادته تصوّر الوجود على ما هو عليه بأجذسه وفصوله وأسبابه وعلله. فيكمل الفكر بذلك في حقيقته، ويصير عقلاً محضاً ونفساً مدركة. وهو معنى الحقيقة للإنسانية.

(1) آية 78، سورة سحر (16)

[2] في أن عوامل الحوادث الفعلية إنما تتم بالفكر

علم أن عالم الكائنات يشتمل على ذوات محضة كالعناصر وأثرها والمكوّنات لثلاثة عنها النبي هي المعدن والنبات والحيوان - وهذه كلها متعقبات القدرة الإلهية - وعلى أفعال صادرة عن الحيوانات، واقعة بقصوده، متعقبة بالقدرة التي جعل الله لها عليها. فمنها منتظم مترتب، وهي الأفعال البشرية، ومنها غير منتظم ولا مترتب، وهي أفعال الحيوانات غير البشر. وذلك أن الفكر يُدرك الترتيب بين الحوادث بالطبع أو الوضع. فإذا قصد إيجاد شيء من الأشياء، فلأجل الترتيب بين الحوادث لا بدّ من التفطن بسببه أو عنته أو شرطه، وهي على الجملة مبادئه، إذ لا يوجد إلا ثانيًا عنها. ولا يمكن يقع المتقدم متأخرًا ولا المتأخر متقدمًا. وذلك المبدأ قد يكون له مبدأ آخر من تلك المبادئ لا يوجد إلا متأخرًا عنه. وقد يرتقي ذلك أو ينتهي. فإذا انتهى إلى آخر المبادئ في مرتبتين أو ثلاث أو أزيد، وشرع في العمل الذي يوجد به ذلك الشيء، بدأ بالمبدأ الأخير الذي انتهى إليه الفكر، فكان أول عمه. ثم تابع ما بعد إلى آخر المسببات التي كانت أول فكرته. مثلاً، لو فكر في اتخاذ سقف بيته، انتقل بذهنه إلى الحائط الذي يدعمه، ثم إلى الأساس الذي يقف عليه الحائط، فهو آخر الفكرة. ثم يبدأ في العمل بالأساس، ثم بالحائط، ثم

الأسقف، وهو آخر العمل وهذا معنى قولهم: أَوَّلُ العمل آخر الفكرة، وأَوَّلُ الفكرة آخر العمل فلا يتم فعل الإنسان في حارج إلا بالمعكر في هذه الترتبات تنوقف بعضها على بعض، ثم بشرع في فعلها، وأَوَّلُ هذا المعكر هو المستأجر الأخير، وهو آخرها في العمل وأَوَّلُها في العمل هو السبب الأول. وهو آخرها في الفكر، ولأجل نعشور على هذا الترتيب يحصل الانتظام في لأفعال البشرية:

وأما الأفعال حيوانية لغير لبشر، فليس فيها نظام لعدم المعكر الذي يعثر به الفاعل على الترتيب فيم يفسد، إذ الحيوانات إذا تدرك بالحواس، ومدركاتها متفرقة خلية من الربط، لأنه لا يكون إلا بالفكر. وما كانت حوادث المعتبرة في عالم الكائنات هي المنتظمة، وغير المنتظمة، غما هي تتبع لها، اندرجت حينئذ أفعال الحيوانات فيها وكانت مسخرة للبشر، واستولت أفعال بشر على عالم حوادث بما فيه، فكان كنه في طاعته وتسخيره. وهذا معنى الاستخلاص المشار إليه في قوله تعالى: "بني جاعل في الأرض خليفة".

فهذا الفكر هو الخاصة لبشرية التي تميز بها البشر عن غيره من الحيوان. وعلى قدر حصول الأسباب والمسببات في الفكر مرتبة تكون إنسانيته. فمن الناس من تتوالى له السببية في مرتبتين أو ثلاث، ومنهم من لا يتجاوزها، ومنهم من ينتهي إلى خمس أو ست، فتكون المرتبة أعلى. واعتبر ذلك بلاعب شطرنج، فإن في لاعبين من يتصور ثلاث حركات والخمس التي ترتيبها وضعي، ومنهم من يقصر عن ذلك لقصور ذهنه. وإن كان هذا المثال غير مطابق، لأن لعب الشطرنج بالمكة، ومعرفة الأسباب والمسببات بالطبع، لكنه مثال يحتدى به الناظر في تعقّل ما يورد عليه من القوعد.

ولله خلق الإنسان وفقضه على كثير من خلق تفضيلاً².

2 ساس هذه الأفكار حول علاقة بين عمل ومكر يرجع إلى أرسطو ثيس بخر على الخصوص
D. C. 404

4 - 4 من سورة حمزة 2

4 - 7 من سورة يس 11

[3] في العقل التجريبي وكيفية حدوثه

نكت تسمع في كتب الحكماء قولهم: "الإنسان مدني بالطبع"، يذكره في إنبات لنبوت وغيرها. والنسبة فيه إلى المدينة، وهي عندهم كناية عن الاجتماع البشري. ومعنى هذا القول أنه لا تمكن حياة المنفرد من البشر ولا يتم وجوده إلا مع أبناء جنسه، وذلك لما هو عليه من العجز عن استكمال وجوده وحيدته. فهو محتاج إلى المعاونة في جميع حاجاته أبداً بصعبه. وتلك المعاونة لا بد فيها من المعاوضة أولاً، ثم المشاركة وما بعدها. ورب تنضي المعاملة عند اتحاد الأغراض إلى المنازعة والمشاجرة. فتنشأ المنافرة والمؤلفة، والصداقة والعداوة، وتؤول إلى الحرب والسلام بين الأمم والقبائل. وليس ذلك على أي وجه اتفق كما بين الهمل من الحيوانات. بل البشر كما جعل الله فيهم من انتظام الأفعال وترتيبها بالفكر كما تقدم جعل ذلك مستظماً فيهم ويشترطه لايقده على وجود سياسية وقوانين حكمية يتكئون فيها عن التمسك بالمصالح، وعن الحسن إلى التقيح". بعد أن يميزوا الفساح والمفسده كما يشأ عن فعل ذلك عن تجربة صحيحة وعوائد معروفة بينهم فيعارفون لهمل من خبروا، ويظهر عليهم نتيجة الفكر في انتظام الأفعال ويعددها عن التمسك

هكذا في نصه. ولعل المراد من التقيح إلى الحسن

هذه المعنى التي يحصل بها ذلك لا تبعد عن الحس كل لعد ولا يتعمق فيها الناظر، من كنه نذكر بالتحربة وبها تستعد، لأنها معاني حزينة تتعق بالمحسوسات، وصدقها وكدها يطهر قريئاً في الواقع، فيستفيد طالها حصول العلم بها من ذلك، ويستفيد كل واحد من البشر القدر الذي يسر له منها، مقتصد له بالتجربة بين الوقائع في معاملة أبناء جنسه حتى يتعين له ما يجب وينبغي فعلاً وتركاً وتحصل بملاسته المذكة في معاملة أبناء جنسه. ومن تتبّع ذلك سائر عمره حصل له لعثور على كل قضية قضية ولا بد بما تسعه التجربة من الزمن. وقد يسهر الله على كثير من البشر تحصيل ذلك في أقرب من زمن تخصيها بالتجربة إذ قد فيها لأباء والمشيخة والأكابر ولقن عنهم ووعى تعليمهم، فيستغني عن طول المعاناة في تتبّع الوقائع واقتناص هذا المعنى من بينها، ومن فقد المعلم في ذلك ولتقييد فيه أو أعرض عن حسن استماعه واتباعه، طال عناؤه في التأذب بذلك. فيجري في غير مألوف، ويدركها على غير نسبة. فتوجد آدبه ومعاملاته سيئة الأوضاع، بادية الخلل، ويفسد حاله في معاشه بين أبناء جنسه. وهذا معنى القول لمشهور: من لم يؤذبه والداه أذبه الزمان. أي من لم يقن الأدب في معاملات البشر من والديه، وفي معنهما المشيخة والأكابر، ويتعلم ذلك منهم، رجع إلى تعلمه بالطبع من الوقائع على تولى الأيام، فيكون الزمان معلّمه ومؤذبه لضرورة ذلك بضرورة المعونة التي هي طبيعته.

وهذا هو العقل التجريبي، وهو يحصل بعد العقل التمييزي الذي تقع به الأفعال، كما قدّمناه، وبعد هذين مرتبة العقل النظري الذي تكفل بتفسيره أهل العلوم، فلا نحتاج إلى تفسيره في هذا الكتاب.

ولله جعل لكم السمع والأبصار وأفئدة، قليلاً ما تشكرون^{*}

* للبر والنهار [ج]

وهو تفسير سورة في شعر، إبراهيم بن مهدي كما ذكره ابن عديده في العقد المعريد (ج 1، ص 212)
6 نظر ص 138 أعلاه

[4] في علوم البشر وعلوم الملائكة

إننا نشهد في أنفسنا بالوحدان الصحيح وجود ثلاثة عوالم، أولها عالم الحسّ، ونعتبره بمدارك الحسّ الذي شاركنا فيه الحيوانات بالإدراك. ثم نعتبر الفكر الذي اختصّ به البشر، فنعلم منه وجود النفس الإنسانية علمًا ضروريًا يبين جنبئنا من مداركها العليميّة التي هي فوق مدارك الحسّ، فنراه عالمًا آخر فوق عالم الحسّ. ثم نستدلّ على عالم ثالث فوقنا بما نحسّ فينا من أثره التي تُنقى في أفئدتنا كالإرادات والوجهات نحو الحركات الفعلية، فنعلم أن هناك فاعلاً يبعثنا عليها من عالم فوق عالمنا، وهو عالم الأرواح والملائكة. وفيه ذوات مُدركة لوجود آثارها فينا، مع ما بيننا وبينها من المغايرة.

وربما يُستدلّ على هذا العالم الأعلى الروحاني وذوانه بالرويد وما نجد في النوم ويُنقى علينا فيه من الأمور التي نحن في غفلة عنها في اليقظة وتطابق الواقع في الصحة منها، فنعلم أنها حقّ ومن عالم الحقّ. وأما أضغاث الأحلام. فصوّر خياليّة يخزنها الإدراك في الباطن، ويحول فيها الفكر بعد العيّنة عن الحسّ. ولا نجد على هذا العالم الروحاني برهانًا أوضح من هذا معلميّه لذلك على الجملة، ولا ندرك له تفصيلًا.

ومايزعمه حكماء الإلهيوت في تفصيل ذواته وترنيها 'مسمّة' عندهم بالعقوب، فليس شيء من ذلك يقيي لاحتلال شرط البرهان سطري فيه، كما هو مقرر في كلامهم في منطق لأن من شرطه أن تكون قضياه أولية دائية، وهذه الدوات الروحانية مجهولة الدتت. فلا سبيل لبرهان فيها، ولا سبيل ما أدرك في تفصيل هذه العوالم إلا ما بنفسه من الشرعيات التي يوصفها لإيمان ويحكمها.

وأقعد هذه العوالم في مداركها عالم نشر، لأنه وجد في مشهود في مداركنا الحسية والروحانية، وشارك في عالم الحس مع حيوات، وفي عالم العقل والأرواح مع الملائكة لذين دواتهم من جنس دواته، وهي دوات مجردة عن الحسية والمادة وعقل صرف يتحد فيه العقل والعقل والمعقول، وكأنه ذات حقيقتها الإدراك والعقل. فعمومهم حاصله دائماً مطابقاً لمطعم معلوماتها لا يقع فيها حلل لثة وعنه الشر هو حصول صورة المعلوم في دواتهم بعد أن لا تكون حصة، فهو كنه مكتسب. والدات التي تحصر فيها صور المعلومات، وهي النفس، مادة هيولانية تنس صور الوجود بصور المعلومات الخاصة فيها شيئاً شيئاً حتى نستكمل، ويصح وجودها بموت في مدتها وصورته. فالمطوبات فيها مترددة بين الحقي والإثبات دائماً تصبب أحدهما بالوسط الربط بين الطرفين. فهذا حصل وصار مبعوماً افتقر إلى يد المصنقة وربما أوصفها لبرهان للصاعى، لكنه من وراء الحجاب، وليس كالمعديه التي هي عموم الملائكة وقد يكشف ذلك الحجاب، فيصير إلى منطقاً للعيان الإدراكي

فقد تبين أن الشر حهل بالطبع، يلتزّد لدي في عدمه، وعدمه بالكسب
والصناعة، لخصيه المضمون بمكره الشروط لصناعية وكشف حجاب
لدي شرب إليه، أي هو بالرياضة - لأذكر - تي فصلها صلاة تنهى عن
المحشاء والمسكر، وبانتزّه عن لمتنولات المهمة ورأسها الصوم، وبالوجهة
إلى الله جميع هو ه
وإنه علم الإنسان ما لم يعلم .

[5] في علوم الأنبياء عليهم السلام

ب. بحد هـ صصف من نشر تعريهم حاة، نهية حارحة عن منزع نشر وأحويهم. فتعب لوحه برتابة فيهم عى لشربة في تقوى لإدركه ونزوعية من الشهوة والعصب وسائر لأحوال البدية فتجدهم متبرهين عن لأحوال الشربة، لا في صبور ت منها، مقدس عى لأحوال المرتابة من لعدة والذكر له ما تقتضي معرفهم به، فحبرين عنه ما يوحى فيهم في تلك الحدة من هداية الأمة عى صريقة و حده وسن معهم فيهم لا ينسل فيهم كنه حنة فطرهم له عبيها

وقد تقدم سا الكلام في لوحى أو الكس في فصل المدركين لعب *
وبت هذلك أن الوجود كنه في عولمه البسيطة والمركة على ترتيب صبيعي من أعلاه و أسفلها متصلاً كنه اتصالاً لا ببحر، وأل اندوات لتي في آخر كل أفق من العوالم مستعدة لأن تنقب عى لد ت لتي تحورها من الأسفل والأعلى استعداد طبيعاً كما في العنصر الخمسمائة البسيطة، وكما هو في لخير و لكرم من حر أفق است مع الحبرون و تصدف من فح احبون.

وكم في لفرة التي ستجمع فيها لكيس وإدراك مع الإنسان، صاحب
الفكر والروية، وهذا الاستعداد الذي في جاني كل فُق من العوالم هو معنى
الانحلال فيها

وفوق العالم الشرقي عالم روحاني شهدت له الأثر في ما منه
يعطين من قوى الإدراك والإرادة فدوت ذلك العالم إدراك صرف وتعقل
محض، وهو علم الملائكة فوح من ذلك كنه أن يكون لنفس الإنسانية
استعداد للأسلحة من لشيرة إلى الملكة لتصير بالفعل من حسن الملكية وقتاً
من الأوقات وفي لحظة من المنعجات ثم تراجع بشرتها وقد تنقت في عالم
الملكية ما كنفت تنبعه إلى نساء حنساء من البشر وهذا هو معنى لوجي
وحطت للملائكة والأسياء كبهم مضطروب عليه كنه حيلة لهم، ويعاؤون
في ذلك الأسلاح من شدة والعطية ما هو معروف عنهم وعلمهم في
تلك الحالة عدم شهادة عيان لا يسلحه الحظاً ولزل ولا يقع فيه العصب
ولوهم من المطابقة فيه دية لزوال حجب العيب وخصوص لشهادة
الواضحة وعند معرفة هذه حاة إلى الشيرة لا يدرق علمهم الوصوح،
ستصحاته من تلك حالة لأوى ولما هم عليه من الزكاء المنصبي لهم إليها،
بتردد ذلك فيهم دناء إلى أن يكمل هداية الأمة نتي نعتو لها، كما في قوله
عالي إنما أن بشر مشكم يوحى إلي، عما أنحكم إليه واحد فاستقيموا إليه
واستغفروه^١

فاهم ذلك، وراجع ما قدمناه لك في الكتاب في أصداف المتريكين
للعيب يتضح لك شرحه وبيانه، فقد بسطناه هنا بسطاً شافياً
والله موفق

١. محمد سعيد عن حسن الفكرة في رسائل جواد انصاف - طر رسائل جواد انصاف، ج ١ ص ١٣٦
وم بعد

٢. مصر ج ١ ص ٤٧

٣. سورة من سورة فصل ٤١

٤. مصر ج ١ ص ١٧١

[6] في أن الإنسان جاهل بالذات، عالم بالكسب

قد بينا أول هذه لفصول أن لإنسان من حسن حيوانات، وأن له متره
عنه بالفكر الذي جعل له، يوقع به أفعاله على نظام، وهو العقل التمييزي،
أو يقتصر به اعلم للأراء والمصالح والمفسد من بناء جسده، وهو العقل
التحريبي، أو يحصل على تصور لوجودات عدت وشاهدًا على ما هي عليه،
وهو العقل النظري.

وهذا الفكر قد يحصل له بعد كمال حيوية فيه، ويبدأ من التمييز فهو
قبل التمييز حي من اعلم بالخمسة، معدود من الحيوانات، لاحق عمدته في
لتكوين من النطفة والعنقة والمصعة. وما حصل له بعد ذلك، فهو قد جعل
له من مدارك حسن والأفئدة التي هي الفكر قد تعاضت في الامتنان عليه
وجعل بكم اسمع والأفئدة. فهو في حالة الأولى قبل التمييز هبولى
فقط، جهه بجميع المعارف ثم يستكمل صورته بالاعلم الذي يكتسه بالاله،
فتكتمل ذته الإنسانية في وجوده

12 كما جاء في الآية مرة 9 من سورة حج 22

4 76، سورة سجن 1،

وإصغر قوله تعالى في مدداً لوهي على سبه قرآنهم ريث الذي خلق،
 حق لإسناد من خلق قرآنهم الأكرم، لذي عنه بلقلم. عدم لإسناد ما
 به بعدم^٩ أي كسبه من عدم ما لم يكن حاصله به عدد أن كان عنفة
 ومصعفة فقد كشف ما طبيعته ودته ما هو عنه من الجهل الذي ولعم
 الأكسبي، وشراب له لآلة الكريمة، تُقرَّر فيه الامتداد عليه بأور مراتب
 وجوده، وهي الإسسية، وحائتها انصورية ونكسية في أقر التنزيل ومدداً
 الوحي.

وكان الله عليماً حكيماً^{١٠}.

١٩ باب ٩ من سورة عبو ٩٨

(١٠) كما حده في عبيد من لأب من به من حمصه ٢ من سورة يس ٢٠

[7] في أن تعلم العدم من حملة الصنائع

ودلك أن الخدق في تعلمه وليقين فيه والاستيلاء عنه إى هو حصول
 ملكة في لائحة عدته وفوقه ووقوف على مسائله وستسايط فروع من
 أصوله وما به تحصل هذه الملكة لم يكن خدق في ذلك الفن حصلاً
 وهذه الملكة هي غير الفهم والوعي. لأ، أحد فهم المسألة لو احدى من الفن
 أو أحد مشتركاً من من شد في ذلك فن ومن هو متدئ فيه، وبين العاقي
 الذي لم يحصل علماً وبين لعالم لحرير و الملكة بما هي للعالم والشادي في
 الغنوب دور من سو،هما. فدلاً على أن هذه الملكة غير الفهم
 و الملكات كلها جسمانية، وسوء كنت في لسب أو في الدماغ من الفكر
 وغيره كالحسب. والجسمانيات كنها محسوسة، فتعتر إلى التعميم ولها
 كد لسب في انعم في كل علم أو صناعة يقتدر إلى مشاهير معلمين فيها
 معتبر عند أهل كل أقد وحيل

* فيه: [ح]

** لو حد ووعيتها مشرك [ب]

وبدلَ يُضدَّ على أن تعينه لعنه صعدة اختلاف الاصطلاحات فيه هكذا
إمام من الأئمة المشاهير اصطلاح في التعيين يختص به شأن يصنع كلها
فدلَّ على أن ذلك لاصطلاح ليس من اعنه، وهو لو كان من العنه لكان
واحدًا بعد جميعهم ألا ترى إني علمه الكلام كيف تحالف في تعليمه
اصطلاح المتقدمين وتأخرين وكذا أصول محقه وكذا عربية والمفه
وكذا كل عنه يُحتاج إلى مطاعنه تجد الاصطلاحات في نعمه متحالفه فدلَّ
على أنها صعدت في التعيين، علم واحد في نفسه

وإذا تقرر ذلك، وعنه أن سدد العلم بهد العهد قد كاد أن ينقطع عن أهل
مغرب كلهم باختلاف عمره وتناقص الدور فيه، وما يحدث عن ذلك من
نقص يصنع وفقدانها كما مر وذلك أن لقيرون وقُرُصه كنت حاصرني
المغرب والأندلس، واستحضر عمر بهما، كان فيهم لعنه ولصنع أسواق
رفقة وبحور راحة ورسح فيهم التعيين لامتد دعصورهم، وما كان فيهم من
حصارة فما حزن، ينقطع التعليم عن مغرب إلا قبلاً كان في دولة
موحدين عمر كثر مستغذ مهمما، ولم ترشح حصارة بمراكش لدهاء لدولة
الموحدية في أولها وقرب عهد انقراضها عندها، فم تنصل حوال الخصرة
فيها لا في لأقل

وبعد انقراض الدولة عمر كثر، رنجح إلى المشرق من طريقة العنصي نو
للقسم بن ريتون لعنه وأسط المدة لسبعة، فأدرك تمديد لإمام من
الخطيب، وأحد عنهم ولحق تعينهم وحد في لعقيات وقلبات، ورجع
إلى تونس بعلم كبير ونعمه حسن

وحاء على إثره من مشرق أبو عبد الله بن شُعيب لدكالي، كان ازنجح
إليه من المغرب، فأخذ عن مشحة مصر، ورجع إلى تونس واستقر بها، وكان
تعليمه مفيداً، فأخذ عنهما أهل تونس، وبصل سدد تعينهم في تمديد

حيلاً بعد حيل، حتى انتهى إلى القاصي محمد بن عبد السلام، شارح ابن الخاحب وتلميذه وانتقل من تونس إلى تلمسان في ابن الإمام وتلميذه، فإنه قرأ مع ابن عبد السلام على مشيخة واحدة وفي محاسن تأليفها وتتمد ابن عبد السلام تونس وابن الإمام تنمسان عهد العهد، إلا أنهم من القلة، بحيث يُحسنى انقطاع سدهم

ثم ارتحل من زاوية في حر المائة الساعة أبو علي ناصر ندين مشدائي إلى المشرق وأدرك تلميذ أبي عمرو بن حاجب وأحد عنهم ولقب تلميذهم. وقرأ مع شهاب الدين اقر في محاسن وحدة، وحدث في عقليات والفتيات، ورجع إلى المغرب بعلم كبير وتعليم مفيد، وبرز بحاية، واتصل بسند تعينه في طبعها وربب نتقل إلى تلمسان عمر المشدائي، من تلميذه، وأوطه وبث طريقته فيها وتلميذه لهذا العهد بحاية وتلمسان قليل، ووفق من اقبل.

وبقيت فس وسائر مصر المغرب حنوا من حسن التعليم من لدن اقر اص تعيم قرطبة والقيروان، ولم يتصل بسند تعيم فيهم، فعسر عليهم حصول الملكة وحدث في العموم. وأيسر طرق هذه الملكة فتق المسار بالحوارة والمنصرة في اسائل اعممية، فهو الذي يُقر شأها ويحصل مرامها فتجد طالب العلم منهم بعد دهات الكثير من أعمارهم في ملازمة محاسن العلمية سكوناً لا يطفق ولا يعضون، وعابيهم باحفظ أكثر من حاجة فلا يحصلون على طائل من ملكة انتصرف في العلم والتعليم ثم بعد تخصيص من ترى منهم أنه قد حصل، تجد ملكته قصيرة في عمه إن فاوص أو ض أو علم. وما أنهم لقصور إلا من قبل لتعليم وانقطاع سده. ولا يحفظهم نفع من حفظ سوى هم لشدة عذبتهم به وطنهم أنه المقصود من الملكة اعممية، وليس كذلك. وما يشهد بذلك في المغرب أن المدة المعتبرة لسكني

* بوس حيل [ب]

أشد ي وأدرك [ب]

طلبة العلم بمدارس عددهم ست عشرة سنة، وهي ثمان خمس سنين، وهذه لمدة مد رس على متعارف هي أقل ما يتأتى فيها صلب لعم حصول متعه من المنكة العنمة أو نبس من تحصيلها فصل أمده في المغرب هذه نعصور لأجل عسره من قلة حوذة في لتعليم خاصة، لا بما سوى ذلك وأما أهل الأندلس، فذهب رسم لتعليم من بينهم وذهبت عبايتهم بالعلوم تنقص عمر من لمسمين بها مد مئين من نسين ولم يؤ من رسم علم فيهم إلا من العربة و لأدب فنصرو عيه، واحفظ سد نعيمه بينهم فاحفظ بحمضه و ما الفقه بينهم، فرسه حو وثر بعد عين و ما العقليات، فلا ثر ولا عين وما دث لا لا تقص سد لتعليم فيها تنقص لعمران وتعتب عدو على عاقته، إلا قليلاً بسيف نحر، شعهم معاشهم أكثر من شعهم بما بعده، والله عالت على أمره

وأما المشرق، فم يفتع سد لتعليم فيه، بل أسوقه دقة وبحوره، حرة لاتصل لعمران لموقرة، وتصل سد فيه ورب كات لأمصار العظيمة التي كانت معدن اعلم قد حرت، مثل عداد و لصيرة والكوفة، إلا أن الله قد أدل منها بأمصار أعظم من ثلث وانتقل نعيم منها، إلى عراق لعلم بحر ساب وموراء نهر من مشرق، ثم إلى لاهرة وما يسها من المغرب فم تزو موقورة وعمرها متصلاً وسد تنعم بها فئت أهل مشرق على الجملة رشح في صباغة نعيم العلم، من وفي سائر لصنع حتى أنه يصح كثير من رحنة أهل المغرب إلى مشرق في طلب اعلم أو عتوهم على الخمة كمل من عقول من مغرب، وأل عوسهم المنطقة كمل بشرطتها من عوس أهل مغرب ويعتقدون لتدو بسد ويسهم في حقيقة الإنسانية لا يررون من كبشهم في عووم و صنائع و بس كدث، ولا ين قصر المشرق

١٦٦ هـ من موره يوسف (١)

* مغرب، وأهم أشد سامة وأعظم كسبا بغيرتهم لأول، و بـ [الإسبانية، و ششعور بذلك ويومعون به، ما أـ]

وانعوت تفاوت عهد المقدار الذي بقوت في الحقيقة لو وحدة البهم بلا لأقلية المنحرفة مثل الأول والسبع، فإن الأمزجة فيها منحرفة، ونعوس على سبيلها، كما مر. وبما الذي فضل به أهل المشرق أهل المغرب، فهو ما يحصل في النفس من أثر حصاره من العقل المربد، كما تقدم في الصنيع^٥ ونزيده لأن شرخاً وتحققاً

وذلك أن الحصر لهم دأب في أحوالهم من المعاش والمسكر والباء وأموال الدين والديب، وكذلك سائر عديدهم ومعدلاتهم وجمع تصرفاتهم فبهم في ذلك دأب يوقف عنده في جميع ما تناولوه ويتنسون به من أحد وبرك، حتى كأنها حدود لا تتعدى وهي مع ذلك صنيع تلقاها الآخر عن لأول منهم ولا شك أن كل صناعة مترتبة فيرجع منها إلى النفس أثر يكسبها عقلاً مزيداً تستعد به لقبول صناعة أخرى، وينتهي به لعمل سرعة الإدراك لمعارف وقد ينعد في تعبها الصنيع عن أهل مصر عبات لا تدرك مثل أنهم يعنمون خمر الإسيية وحيوانات العجم من الماشي والظئر مفردات من الكلام والأفعال يستعرب بدورها ويعجز أهل المغرب عن فهمها، فضلاً عن تعميمها.

وحسن الملكات في التعميم والصنيع وسائر لأحوال العادية يزيده لإسناد ذكاء في عقده وصناعة في فكره بكثرة الملكات الحاصلة للنفس، إذ قدّم أن النفس بما تشاء لإدراكات وما يرجع إليها من الملكات، فزد دون ذلك كَيْسًا ما يرجع إلى النفس من لآثر العممية، فيطيه العامي تفوت في الحقيقة الإنسانية وليس كذلك

^٥ بحية 'معرفه في [ب]

٥ ص ٣٦٦

^٦ والسكن [ب]

ألا ترى إلى الحصر مع أهل الندو كيف نحد احصري متحيا بالكاء، ممتك
من الكيس، حتى أن السوي ليطنه أنه قد فاته في حقيقة إسسته وعقه، وليس
كذلك وم ذلك لا لإحاده من مكات الصانع ولأداب في العوائد
والأحوال الخصرية ما لا يعرفه السوي فمم متلا الخصري من صنائع
ومكاتها وحسن تعليمها، ظن كل من قصر عن تلك المنكب أنها لكم في
عقه وأن موسى أهل الندو فاصرة فطرتها وحسنتها عن فطرها، وليس كذلك
في نحد في أهل الندو من هو في أعى رنة من لفهم والكم في عقه
وفطرتها، وري لذي صهر عى أهل الحصر من ذلك وهو روي نصائع
ولتعليم، فإن فهم ذرا ترجع إلى نفس، كما قدمه وكذا أهل مشرق
لما كانوا في التعبه و صنائع أوسع رنة وأعى قدم وكان أهل معرب أقرب
إلى السدوة لما قدمه في الفصل قبل هذا، ض المعنوي في ردي الرئي انه
لكن في حقيقة الإسيابه احتصوا به عن أهل المعرب وليس ذلك صحيح،
فتفهمه

ولله يزيد في الحق ما شاء .

(9)، مصر ص 312 علاه

(20) مشر من حده، عى ما قل في مد به فصل ص،

"احتصوا به وبالعوب فيه عن [ب]"

21 بة، سوه فطر (46)،

[8] في أن العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة

والسبب في ذلك أن تعمّ العمى، كما قلناه، من جملة الصنّيع. وقد كد قد قدمنا أن الصنّيع إنما تكثر في الأمصار. وعلى نسبة عمرانها في الكثرة والثقلّة والحضارة والترّف تكون نسبة الصنّيع في الجودة والكثرة، لأنه أمر زائد على المعاش. فمتى فضلت أعمال أهل العمران عن معاشهم انصرفت إلى ما وراء المعاش من التصرف في خاصية الإنسان، وهي العلوم والصنّاع. ومن تشوّف بفطرته إلى العلم ممّن شأ في القرى ولأمصار غير المتمتّنة، فلا يجد فيها التّعيم الذي هو صناعي لفقدان الصنّيع في أهل البدو، كما قدّمناه²². ولا بدّ له من الرحلة في طلبه في الأمصار المستبحرة، شأن الصنّيع في أهل البدو.

واعتبر ما قرّناه²³ بحال بغداد وقرطبة ولقيروان والبصرة والكوفة. لما كثر عمرانها صدر الإسلام واستوت فيها الحضارة. كيف زخرت فيها بحار العلوم، وتفتّحوا في صطلحات تعيم وأصناف لعلوم، وستسط المسائل

22 طر ص 282 أعلاه

23 بصر ص 39، وص 399 أعلاه

والعنود، حتى أربوا على المتقدمين وفاتوا المتأخرين. ولما تناقص عمرانها وندعز سكانها انطوى ذلك البساط جملة بما عليه، وفقد الدعم بها والتعليم، وانتقل إلى غيرها من أمصار الإسلام.

ونحن لهذا العهد نرى أن العلم والتعليم إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر، لأن عمرانها مستبحر، وحضارتها مستحكمة منذ آلاف من السنين فستحكمت فيها الصنائع وتفتنت، ومن جعلتها تعليم العلم. وأكد ذلك فيها وحفظه ما وقع لهذه العصور بها منذ مائتين من السنين في دولة الترك من أيام صلاح الدين بن أيوب وهلم جرا، وذلك أن أمراء الترك في دولتهم يخشون عدية سلطانهم على من يتخلفونه من ذريتهم لما له عليهم من الرق أو الولاء، ولذا يخشى من معاطب الملك وتكباته. فاستكثروا من بناء المدارس ولزوا ربطة، ووقفوا عليها الأوقاف المغلة، يجعلون فيها شركاً لولدهم ينظر عليها أو نصيب فيها، مع ما فيهم غالباً من الجشع إلى الخير والصلاح والتماس الأجور في المقاصد والأفعال. فكثرت الأوقاف لذلك، وعظمت المغلات والفوائد، وكثر طالب العلم ومعلمه بكثرة جراتهم منها، وارتحل إليها الناس في طلب العلم من العراق والمغرب، وبسقت أسواق العموم وزخرت بحرها²⁴.

والله يخلق ما يشاء²⁵.

²⁴ انظر في نفس الموضوع التعريف بابن خلدون وزحله عربا وشرقا، تحقيق محمد بن توب

نطيجي، القاهرة، 1370/1951، ص 279.

* بهية الجملة في [ب] يشاء ويختار.

²⁵ آية 47، سورة آل عمران (3).

[9] في أصناف العلوم الواقعة في العمران لهذا العهد

علم أن العلوم التي يحوض فيها البشر ويتداولونها في الأمصار تحصيلاً وتعيماً هي على صنفين : صنف طبيعي للإنسان يهتدي إليه بفكره، وصنف نقبي يأخذه عن وضعه.

والأول هي العلوم الحكمية لفلسفية، وهي التي يمكن أن يقف عليها الإنسان بطبيعة فكره ويهتدي بمداركه لبشرية إلى موضوعاتها ومسائنها وأنحاء براهينها ووجوه تعميمها، حتى يقفه نظره وبحثه على الصواب من الخطأ فيها من حيث هو إنسان ذو فكر.

والثاني هي العلوم النقلية لوضعية، وهي كلها مستندة إلى الخبر عن الوضع الشرعي، ولا مجال فيها للعقل إلا في إلحاق الفروع من مسائنها بالأصول، لأن الجزئيات الحادثة المتعاقبة لا تندرج تحت النقل الكلي بمجرد وضعه، فتحتاج إلى الإلحاق بوجه قياسي. إلا أن هذا القياس يتفرع عن الخبر بثبوت الحكم في الأصل، وهو نقلي، فرجع هذا القياس إلى الخبر لثبوت وضعه

* تعميمها [ب]

** إلى الوضع والخبر عن الوضع، ولا [ب]

وأصل هذه العلوم النقلية كلها هي الشرعيات من الكتاب والسنة التي هي مشروعة لنا من الله ورسوله، وما يتعلق بذلك من العلوم التي تُهَيِّئُنا للاستفادة منها. ثم يستتبع ذلك علوم اللسان العربي الذي هو لسان الملة وبه نزل القرآن. وأصناف هذه العلوم النقلية كثيرة، لأن المكلف يحب عليه أن يعلم أحكام الله المفروضة عليه وعلى أبناء جنسه، وهي مأخوذة من الكتاب والسنة بالنص أو بالإجماع أو بالإلحاق. فلا بد من النظر في الكتاب بين ألفاظه أولاً، وهذا هو علم التفسير. ثم يأسند نقله وروايته إلى النبي صلى الله عليه وسلم الذي جاء به من عند الله، واختلاف روايات القراء في قراءته، وهذا هو علم القراءات. ثم يأسند السنة إلى صاحبها والكلام في الرواية الذين لها ومعرفة أحوالهم وعدالتهم ليقع الوثوق بأخبارهم ويُعلم ما يجب العمل بمقتضاه من ذلك، وهذه هي علوم الحديث. ثم لا بد في استنباط هذه الأحكام من أصولها من وجه قانوني يفيدنا العلم بكيفية هذا الاستنباط، وهذا هو أصول الفقه. وبعد هذه تحصل الثمرة بمعرفة أحكام الله في أفعال المكلفين، وهذا هو الفقه. ثم إن التكاليف منها بدني ومنها قسبي، وهو المختص بالإيمان وما يجب أن يُعتقَدَ عما لا يُعتقَدُ، وهذه هي العقائد الإيمانية في الذات والصفات وأمور الخشوع والنعيم والعذاب والقدر. والحجج عن هذه بالأدلة العقلية هو علم الكلام. ثم النظر في القرآن والحديث لا بد أن تتقدّم العلوم اللسانية، لأنه متوقّف عليها، وهي أصناف، فمنها علم اللغة، وعلم النحو، وعلم البيان، وعلم الأدب، حسبما نتكلم عليها كلها.

وهذه العلوم النقلية كلها مختصّة بالملة الإسلامية وأهلها، وإن كانت كل ملة على الحملة لا بد فيها من مثل ذلك، فهي مشاركة لها في الجنس المعيد من حيث أنها علوم الشريعة المنزّلة من عند الله على صاحب الشريعة المنّاع لها

١- موسوعة [ب]

٢٠٠ يقع الوثوق بأخبارهم، وهذه [ب]

وَمَا عَلَى الْخُصُوصِ، مِمَّا بِيَدِ الْجَمِيعِ الْمَلَلِ، لَأَنَّهُ نَسَحَتْ لَهَا، وَكُنْ مَا قَدِمَ مِنْ عُلُومٍ لِلْمَلِكِ مَهْجُورَةٌ، وَالطَّرَفُ فِيهَا مَحْضُورٌ فَقَدْ بَهَى الشَّرْعُ عَنِ النَّظَرِ فِي الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ غَيْرِ الْقُرْآنِ، وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: 'لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكَلِّبُوهُمْ، وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّكُمْ، وَبِهَا وَإِلَيْكُمْ وَاحِدٌ²⁶، وَرَأَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي يَدِ عَمْرِو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَرَقَةً مِنَ التَّوْرَةِ، فَغَضِبَ حَتَّى تَبَيَّنَ الْغَضَبُ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ قَالَ: أَلَمْ أَتَكْبِرْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةٍ؟ وَاللَّهُ لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا مَا وَسَعَهُ إِلَّا اتَّبَعَنِي.

ثم إن هذه العلوم، الشرعية للنقية قد نفقت أسواقها في هذه الملة بما لا مزيد عليه، وانتهت فيها مدرك لناظرين إلى التي لا فوقها، وهُذبت الاصطلاحات، ورُتبت الفنون، فجاءت من وراء الغاية في الحسن والتنميق. وكان لكل فن رجل يُرْجَع إليهم فيه، وأوضاع يُستفاد منها التعليم. واختص المشرق من ذلك والمغرب بما هو مشهور منها حسبما ذكره، لأن عند تعديد هذه الفنون.

وقد كسدت لهذا العهد أسواق العلم بالمغرب لتناقص العمران فيه وانقطاع سند التعليم، كما قدمناه في لفصل قبله. وما أدري ما فعل الله بالمشرق، والظن به نفاق العلم فيه واتصل التعليم في العلوم وفي سائر الصنائع الضرورية والكمالية لكثرة العمران فيه والحضارة، ووجود الإعانة لطلاب لعلم بالجرارية من الأوقاف التي اتسعت بها أرزاقهم. والله مقدر الليل والنهار²⁷.

* الملل وباسمحه [س]

(26) به 46، سورة مَكُونَت 24

(27) به 2، سورة مَرَمَل 176

[10] علوم القرآن من التفسير والقراءات*

القرآن هو كلام الله المنزّل على نبيه، المكتوب بين دفتي المصحف. وهو متواتر بين الأمة، إلا أن الصحابة روّوه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على طرق مختلفة في بعض ألفاظه، وكيفيات الحروف في أدائها. وتُوقل ذلك واشتهر إلى أن استقرت منها سبع طرق معيّنة تواتر نقلها، يُضاً بأدائها واختصت بالانتساب إلى من اشتهر بروايتها من الجُم الغفير. فصارت هذه القراءات السبع أصولاً للقراءة. وربما زيد بعد ذلك قراءات أخر لحقت بالسبع، إلا أنها عند أئمة القراءة لا تقوى قوتها^{***} في النقل.

وهذه القراءات السبع معروفة في كتبها. وقد خالف بعض الناس في تواتر طرقها لأنها عندهم كيفيات للأداء^{***}، وهو غير منضبط. وليس ذلك عندهم بقادح في تواتر القرآن. وأباه الأكثر، وقالوا بتواترها. وقال آخرون بتواتر غير الأداء منها كالمَد والتسهيل لعدم الوقوف على كَيْفِيَّتِهِ بالسمع، وهو الصحيح. ولم^{****} يزل القراء يتداولون هذه القراءات وروايتها إلى أن كُتبت العلوم

* علوم التفسير والقراءات [ب]

** في ألفاظه [ب]

*** هنا تنهي الجملة في [ب]

**** هنا تنهي الجملة في [ب].

***** الأكثر. ولم [ب]

ودُّوت، فكنّيت فيما كُتِب من العلوم، وصارت صداعة محصورة وعلمًا منفردًا.

وتنقّبها الناس بالمشرق والأندلس في جيل بعد جيل إلى أن مئث بشرق الأندلس مُجاهد، من موالي العائرين، وكان معتبً بهذا الص من بين فنون القرآن لما أخذه به مولاه المنصور بن أبي عامر واجتهد في تعليمه وعرضه على من كان من أئمة القراء بحضرته، فكان سهمه في ذلك وافرًا. واختص مجاهد بعد ذلك بومارة دائية والجزائر الشرقية، فنفت بها سوق القراءة بما كان هو من أئمتها وبما كان له من العناية بسائر العلوم عمومًا وبالقراءة خصوصًا. فظهر لعهد أبي عمرو الداني، وبلغ الغاية فيها، ووقفت عليه معرفتها، وانتهت إلى روايته أسانيدها، وتعددت تواليقه فيها، وعوّل الناس عليها، وعدلوا عن غيره. واعتمدوا من بينها كتاب التيسير له.

ثم ظهر بعد ذلك فيما يليه من العصور والأجيال أبو القاسم ابن فيره، من أهل شاطبة. فعمد إلى تهذيب ما دونه أبو عمرو وتنخيصه. فنظم ذلك كله في قصيدة لغزٌ فيها أسماء القراء بحروف ابجد على ترتيب أحكمه ليتيسر عليه ما قصد من الاختصار، وليكون أسهل لحفظ لأجل نظمها. فاستوعب فيها الفن استيعابًا حسنًا، وعنى الدس بحفظها وتلقينها لولد المتعلمين.

وجرى العلم على ذلك في أمصار المغرب والأندلس، وربما أضيف إلى فن القرآت فن الرسم أيضًا، وهي أوضاع حروف القرآن في المصحف ورسومه الخطية، لأن فيه حروفًا كثيرة وقع رسمها على غير المعروف من قياس الخط كزيادة الياء في 'بأييد' (28)، وزيادة الألف في 'لا أدبجنه' (29) و'لا أوضعوا' (30)،

* بهذا العلم من بين علوم القرآن [ب]

** الغزء ليتيسر [ب]

(28)، أية 47، سورة لدريت (91)

(29)، آية 21، سورة اسمع (27)

(30)، آية 47، سورة اتوتة (9)

والوود في 'حزرو الظالمين'⁽³¹⁾، وحذف الألف في مواضع دون أخرى، وما رُسم فيه التاءات ممدودًا والأصل فيه مربوط على شكل الهاء، وغير ذلك. وقد مر تحليل هذا الرسم المصحفي عند الكلام في الخط⁽³²⁾. فلما جاءت هذه مخالفة لأرصاع الخط وقانونه احتيج إلى حصرها. فكتب فيها الناس أيضًا عند كتبهم في العلوم. وانتهت بالمغرب إلى أبي عمرو الداني المذكور، فكتب فيها كتبًا من أشهرها كتاب المقنع. وأخذ به الناس، وعزلوا عليه. ونظمه أبو القاسم الشاطبي في قصيدته الشهيرة على روي الراء، وولع الناس بحفظها. ثم كثر الخلاف في الرسم في كلمات وحروف أخرى ذكرها أبو داود سليمان بن نجاح، من موالي مجاهد، في كتبه، وهو تلميذ أبي عمرو الداني والمشهور بحمل علومه ورواية كتبه. ثم نقل بعده خلاف آخر، فنظم الخراز، من المتأخرين بالمغرب، أرجوزة أخرى زاد فيها على المقنع خلأ كثيرًا وعزاه لناقله. واشتهرت بالمغرب، واقتصر الناس على حفظها وهجروا بها كتب أبي داود وبني عمرو والشاطبي في الرسم.

[التفسير]

وأما التفسير، فاعلم أن القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم. وكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه. وكان ينزل جملاً جملاً وآيات آيات لبيان التوحيد والفروض الدينية بحسب الوقائع. ومنها ما هو في العقائد الإيمانية، ومنها ما هو في أحكام الجوارح، ومنها ما يتقدم، ومنها ما يتأخر ويكون ناسخاً له.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم هو المبين لذلك كما قال: "لئن لئس ما نزل إليهم"⁽³³⁾. فكان النبي صلى الله عليه وسلم يبين المجمعل، ويبيّر

(31) يه 29، سورة المائدة (5).

(32) نظر ص 315-316 أعلاه.

* أبي داود والشاطبي [ب].

(33) مة 44، سورة التحل (16).

الناسخ من المنسوخ، ويُعرفه أصحابه فعرفوه، وعرفوا سبب نزول الآيات ومقتضى إحال منها مقولاً عنه كما عُلِّم من قوله: "إدا جاء بصر الله والفتح" ^{٦٤} أنها نعي النبي صلى الله عليه وسلم، وأمثال ذلك.

وُنُقِل ذلك عن الصحابة رضوان الله عليهم، وتداول ذلك التابعون من بعدهم ونُقِل عنهم. ولم يزل ذلك متداولاً بين المصدر الأول والسلف حتى صدرت علومًا ودُونت لكتب. فكتب الكثير من ذلك، ونُقِل الآثار الواردة فيه عن الصحابة والتابعين. وانتهى ذلك إلى الطبري، والواقدي، والشعالي، وأمثالهم من المفسرين، فكتبوا فيه ما شاء الله أن يكتبوه من الآثار.

ثم صارت علوم اللسان صناعية من الكلام في موضوعات اللغة وأحكام الإعراب والبلاغة في التراكيب. فوضعت الدواوين في ذلك بعد أن كانت مكات للعرب لا يُرجع فيها إلى نقل ولا كتب. فتنويسي ذلك، وصارت تُنقَى من كتب أهل اللسان، فاحتيج إلى ذلك في تفسير القرآن لأنه بلسان العرب وعلى منهاج بلاغتهم.

وصار التفسير صنفين:

تفسير نقلي مستند إلى الآثار لمنقولة عن النسب، وهو معرفة الناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول، ومقاصد الآي، وكل ذلك لا يُعرف إلا بالنقل عن الصحابة والتابعين.

وقد جمع المتقدمون في ذلك وأوعبو ^{٦٥}.

إلا ^{٦٦} أن كتبهم ومنقولاتهم تشتمل على الغث والسمين، والمقبول والمردود. والسبب في ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم، وإنما

٦٤، ٦٥، سورة عصر (110).

٦٦ في القرآن. [ب]

** السور، وكل [ب]

*** بهذه الصيغة في [ب] وأوعبو، مثل مصري، والواقدي، والشعالي

**** معرفة بني تميم من هذا ثم ترد في [ب]

علب عليهم البداوة والامية. فاذا تشوقوا إلى معرفة شيء مما تشوف إليه النفوس الإنسانية في أسباب المكونات وبدء الخليفة وأسرار الوجود، فيسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ويستفيدونه منهم، وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى. وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ نادى مشيهم، ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب. ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية. فلما أسلموا بقوا على ما كن عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التي يحتاطون لها، مثل أخبار بدء الخليفة وما يرجع إلى الحدثن والملاحم، وأمثال ذلك. وهؤلاء مثل كعب الأحبار، ووهب بن منبّه، وعبد الله بن سلام، وأمثالهم. فامتألت التفسير من لنقولات عنهم في أمثال هذه الأغراض أخباراً موقوفة عليهم، وليست مما يرجع إلى الأحكام، فيتحرى فيها الصحة التي يحب بها العمل. وتساهل مفسرون في مثل ذلك، وملؤوا كتب التفسير بهذه النقولات، وأصلها كما قنناه، عن أهل التوراة الذين يسكنون البادية، ولا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلونه من ذلك. إلا أنهم بعد صيتهم وعظمت أقدارهم بما كانوا عليه من لمقامات في الدين والملة، فثُلّثت بالقبول من يومئذ.

فلما رجع الناس إلى التحقيق والتحصيل، وجاء أبو محمد بن عطية، من المتأخرين بالمغرب، ولخص تلك التفسير كلها، وتحرى ما هو أقرب إلى الصحة منها، ووضع ذلك في كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس حسن المنحى، رتبه القُرطبي في تلك الطريقة على مهاج واحد في كتب آخر مشهور بالمشرق.

والصنف الآخر من التفسير، وهو ما يرجع إلى اللسان من معرفة اللغة والبلاغة في تأدية المعنى بحسب المقاصد والأساليب. وهذا الصنف من التفسير قل أن ينفرد عن الأول، إذ الأول هو المقصود بالذات، وإي جاء هذا بعد أن صار اللسان وعلومه صناعات. نعم، يكون في بعض التفسير عالماً

١ ما تنهي الحملة في [ب].

ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفسير كتب الكشف للزَّمَخْشَرِي، من أهل حوازم العراق* إلا أن مؤلفه من أهل الاعتزاز في العقائد، فيأتي بالحجاج على مذاهبهم لعاسدة حيث يعرصر له في أي القرآن من طرق البلاغة، فصار بذلك للمحققين من أهل لسة انحراف عنه وتحديد للجمهور من مكانه، مع إقرارهم بفسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة. وإذا كان الناظر فيه واقعاً على المذاهب لسنية مُحسناً للحجاج عنها، فلا جرم أنه مأمون من غوائله، فليفتنم مطالعته لغرابة فنونه في اللسان. ولقد وصل إلينا في هذه العصور تأليف لبعض العراقيين، وهو شرف الدين الطَّيْبِي، من أهل تبريز، من عراق العجم، شرح فيه كتب الزَّمَخْشَرِي هذا، وتبّع ألفاظه، وتعرض لمذاهبه في الاعتزال وأدلته يزيّفها ويبيّن أن لبلاغة إنما تقع في الآية على ما يراه أهل السنة، لا على مذهب المعتزلة. فأحسن في ذلك ما شاء، مع إمتاعه** في سائر أمور البلاغة.

وفوق كل ذي علم عليم³⁵.

* أهل العراق [ب]

** تبعه [ب]

(35) آية 76، سورة يوسف (12).

[11] علوم الحديث*

وأما علوم الحديث، فهي كثيرة ومتنوعة. فإن منها ما ينظر في ناسخه ومنسوخه، وذلك بما ثبت في شريعتنا من جواز النسخ ووقوعه لطفً من الله بعباده وتخفيفاً عنهم باعتبار مصالحهم التي تكفل لهم بها. قال تعالى: 'ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها'.

ومعرفة النسخ والمنسوخ، وإن كان عامًا للقرآن والحديث، إلا أن الذي في القرآن منه اندرج في تفاسيره، وبقي ما كان خاصًا بالحديث راجعًا إلى علومه. فإذا تعارض الخبران بالنفي والإثبات، وتعدّر الجمع بينهما ببعض التأويل وعُلم تقدّم أحدهما نعين أن المتأخر ناسخ. وهو من أهم علوم الحديث وأصعبها. قال الزهري: "أعشى الفقهاء وأعجزهم أن يعرفوا ناسخ حديث رسول الله عليه وسلم من منسوخه". وكان للشافعي رضي الله عنه فيه قدم راسخة⁽³⁶⁾.

* يختلف بعض هذا الفصل في [ب] اختلافًا كبيرًا عن بعض الروايات اللاحقة. انظر الصيغة الخاصة للمقدمة، الجزء 5، ص 198 وما بعدها.

(36) انظر في نفس الموضوع مقدمة ابن الصلاح، فصل 34. (نشرة دار الكتب المصرية، 1978، 398، 1978، ص 139-140).

ومن علوم الحديث معرفة القوانين التي وضعها أئمة المحدثين لمعرفة الأسانيد والرواة وأسمائهم، وكيفيه أحد بعضهم عن بعض، وأحوالهم، وصفاتهم، وحتلاف اصطلاحاتهم وتحصيل ذلك أجمع واقع على وحوب العمل بخبر الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك بشرط أن يغيب على الظن صدقه، فيجب على المجتهد تحقيق الطرق التي تحصل ذلك الظن، وذلك بالنظر في أسانيد الحديث بمعرفة رواته بالعدالة والضبط والإتقان والبراءة من لسهو والغفلة بوصف عدول الأمة لهم بذلك، ثم تفاوت مراتبهم فيه، ثم كيفية رواية بعضهم عن بعض بسماع الراوي من الشيخ أو قراءته عنده أو سماعه يقرأ عنده وكتبة الشيخ له أو مذكولته أو إجازته

* المقطع مشتمل على هذه لفظة والعقودتين اللتين تبيها يحتج عن نص مخطوطني [ت] و[ج] الذي نوره اسمه .

ومن علوم الحديث النظر في الأسانيد ومعرفة ما يجب العمل به من الأحاديث بوقوعه على السند الكامل الشروط، لأن العمل إنما يجب بما يغيب على الظن صدقه من أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيجتهد في الطريق الذي يحصل ذلك الظن، وهو بمعرفة روة الحديث بالعدالة والضبط، وإنما ثبت ذلك بالنقل عن أعلام الذين يتعديهم وبراءتهم من الجرح والغفلة، ويكون لنا ذلك دليلاً على لقبول أو ترك.

وكذلك مرتب هؤلاء النقلة من لصحابة وتابعين وتفاوتهم في ذلك وتبيزهم فيه واحد واحد وكذلك الأسانيد تتفاوت باتصالها ونقطاعها بأن يكون الراوي لم يقع الروي الذي نقل عنه، وسلامتها من لعل الموهنة لها، وينتهي بالتفاوت إلى طرفين يحكم بقبول الأعلى ورد الأسفل، ويختص في المتوسط بحسب المنقول عن أئمة الشأن

ولهم في ذلك ألفاظ اصطلاحوا على وضعها لهذه الترتيب، مثل الصحيح، وحسن، والصحيح، والمرسل، والمنقطع، والمعض، والشاذ، والغريب، وغير ذلك من ألقابه امتداوة بينهم ورووا على كل واحد منها، ونقسم ما فيه من خلاف لأئمة الشأن أو الوفاق ثم النظري كيفية أحد الرواة بعضهم عن بعض بقراءة أو كتابة أو متالة أو إحارة، وتفاوت رتبها، وما للمعتمد في ذلك من خلاف بالتقوى والرد ثم أئمة ذلك بالكلام في العاط تقع في متود الحديث، من هريب أو مشكل أو تصحيف أو مفترق منها ويختلف، وما نسب ذلك

هذا معظم ما نظريه أهل الحديث وعلمه وكذا نحو بقية الحديث في عصور لسلف من لصحابة ولتابعين معروفة، كل عند أهل مله منهم الجرح، وسهم بالنصرة وانكوف من العراق، وسهم بالشام ومصر وأجمع معروفون مشهورون في أعصارهم وكانت طريقه أهل الحجاز في أعصارهم في الأسانيد أعنى من سواهم وأمن في الصحة، لاشتدادهم في شروط لنمل من تعد له والضبط، ونحفيهم عن قبول المجهول الحال في ذلك

في لصحة والقبول، منقول عنهم. وأعلى مراتب المقبول عندهم لصحيح، ثم الحسن، وأدنى مراتبها الضعيف. ويشتمل على المرسّل، والمنقطع، ونقص، وبطلان، والشاذ، والغريب، والمنكر. فمنها ما اختلفوا في رده، ومنها ما أجمعوا عليه. وكذلك شأنهم في الصحيح، فمنه ما أجمعوا على قبوله وصحته، ومنه ما اختلفوا فيه. وبينهم في تفسير هذه الألقاب اختلاف كثير. ثم اتبعوا ذلك بالكلام في ألفاظ تقع في متون الحديث، من غريب أو مشكل أو تصحيف أو مفترق أو مختلف.

ووضعوا لهذه الفصول كلها قانوناً كثيراً ببيان تلك المراتب والألقاب وسلامة الطرق عن دخول النقص فيها. وأول من وضع في هذا القانون من فحول أئمة الحديث أبو عبد الله الحاكم، وهو الذي هذبه وأظهر محاسنه، وتوايفه فيه مشهورة. ثم كتب أئمتهم فيه من بعده، وأشهر كتاب لمتأخرين كتب أبي عمرو بن الصلاح، كان في أوائل المائة السابعة. وتلاه محيي الدين النووي بمثل ذلك.

ولفن شريف في مغزاه، لأنه معرفة ما تحفظ به السنن المنقولة عن صاحب الشريعة حتى يتعين قبولها أو ردها. واعلم أن رواية السنة من الصحابة والتابعين معروفون في أمصار الإسلام، منهم بالحجاز وبالبحر وبالكوفة، ثم بالشام ومصر، مشهورون في أعصارهم. وكانت طريقة الحجاز من بينهم أعلى وأمتن في الصحة بتجافهم عن قبول المستورين المجهولة أحوالهم. وسيد الطريقة الحجازية بعد السلف الإمام مالك، عالم المدينة، ثم أصحابه مثل الإمام محمد بن إفريس الشافعي، وابن وهب. وابن بكير، والقنبري، ومحمد بن الحسن⁽³⁷⁾، ومن بعدهم الإمام أحمد، في آخرين من أمثالهم.

(37) لا شك أن نفعي به هذا هو محمد بن الحسن التواسطي المزني، الذي يقال أنه توفي سنة 187 803 (بصرى من حجر - تهذيب، ج 7، ص 109-110). وهناك إمكانيه أصعب من الأولى وهي أن يكون شريكه هو من رواية الذي كان حاسه 814/199 إلى جانب هذا، هناك عديد من المحدثين سمعهم محمد بن الحسن، لكنهم يسوا من المحدثين المذكورين.

* شافعي رضي الله عنه والقنبري وابن وهب ومن بعدهم الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه وأئمتهم [ج]

وكان عدم لشيعة في منه الأمر نقلاً صرفاً لا مطراً ولا رأياً ولا تعمقاً في
نفسه وشمر لها لسلف، وتجرؤ، الصحيح حتى أكمئوها وكتب ملك
رحمه الله كتاب الموطأ على طريقة الحارثيين، وأدعه أصولاً لأحكام من
الصحيح المتفق عليه، ورتبه على أبواب لفقه. ثم عني حفاظ بمعرفة طرق
الأحاديث وأسانيدها المختلفة، الحجارية والعرقية وغيرهما، وقد تشدد في
بعض الأحاديث وتعدده، ويتكرر الحديث في أبواب الفقه باختلاف المعاني
التي اشتمل عليها.

وجاء محمد بن إسماعيل البخاري، فأوسع نطاق الرواية، وخرج
أحاديث السنة على أبوابها في مسنده الصحيح، وجمع طرق الحارثيين
والعراقيين والشاميين، وعتمد منها ما أجمعوا عليه دون ما اختلفوا فيه،
وتكررت أحاديثه في الأبواب باختلاف معانيها، كما أشرنا إليه. فاشتمل على
سبعة آلاف حديث ومائتين¹⁸، تكررت منها ثلاثة آلاف، وفرق الطرق
والأسانيد عليها مختلفة في كل باب.

ثم جاء مسلم بن الحجاج القشيري، فألف مسنده الصحيح، اتبع فيه
البخاري في نقل المجمع على صحته وحذف المتكرر، وجمع الطرق
والأسانيد، فبوّه على أبواب الفقه وتراجمه. واستدرك الناس عليهما في
ستياعاب الصحيح، وجاءوا بما أغفلا عن شروطهما¹⁹.

* هذا ينتهي الجملة في [ج] و [ث]

** نهاية هذه في [ج] لفقه وربما يقع إسناده الحديث من طرق متعددة وعن رواة مختلفين وقد
يقع الحديث أيضاً في أبواب متعددة باختلاف المعاني التي اشتمل عليها

*** لـ 11، هام الحديث لعصره، فخرج [ج]

18: في مقدمته من صلاح 276 حديث (نوح، ص 1)

19: هذه شفره في [ج] وتراجمه ومع ذلك فهم يستوعبوا الصحيح كله وقد استدرك الناس
عليهم في ذلك

ثم كتب أبو داود السُّجِسْتَانِي وأبو عيسى التِّرْمِذِي وأبو عبد الرحمن النُّسَوِي³⁹ في السنن بأوسع من الصحيح، وقصدوا ما توفرت فيه شروط العمل إما من الرتبة العالية في الإسناد، وهي الصحيح، كما هو معروف، وإما من الذي دونه، كالحسن وغيره، ليكون ذلك إماماً للعمل بالسنة.

وهذه المسانيد المعتمدة في الملة، وهي أمهات كتب الحديث من السنة. وحقق بهذه الخمسة مسانيد أخرى، كمسند أبي داود، والطَّيَالِسِي، والْبَزَّاز، وعَبْدُ بن حُمَيْد، والذَّارِمِي، وأبي يعلى المَوْصِلِي، والإمام أحمد، قاصدين فيها المسندات عن الصحبة من غير أن تكون محتاجة بها. هكذا قال ابن الصلاح. وفي الرواية عن الإمام أحمد أنه كان يقول لأبيه عبد الله في كتابه المسند، وهو يشتمل على أحد وثلاثين ألف حديث، وعن جماعة من أصحابه أنهم قالوا: "قرأ علينا المسند وقال: "هذا كتاب انتقيته من سبع مائة ألف وخمسين ألف حديث. فما اختلف فيه المسلمون من الأحاديث النبوية ولم تجدوه فيه فليس الحجة"⁴⁰. فهذا يدل على أن جميع ما في مسنده يصح الاحتجاج به، عكس ما قاله ابن الصلاح. نقلته من مناقب الإمام أحمد⁴¹.

(39) يريد نسائي. وهو أحمد بن شعيب بن علي بن سنان، أبو عبد الرحمن النسائي النخعي، صاحب

كتب السنن. انظر ابن حجر، تهذيب، ج 1، ص 68

* نهاية الفقرة في [ج]: ليكون ذلك إماماً للسنة والعمل بها. [ج]

** لم يرد نص هذه الفقرة في [ح]، ومحد عروضة النص التالي:

وهذه هي المسانيد المشهورة في الملة. وهي أمهات كتب الحديث في السنة فإنها وإن تعددت فترجع إلى هذه في الأغلب ومعرفة هذه الشروط والاصطلاحات كلها هي علم الحديث وربما يفرد عنها انتاسخ والمنسوخ فيجعل فنا برأسه، وكذلك العريب. وللناس فيه توافيق مشهورة، ثم امتزجت والمجتمعت وقد ألف الناس في علوم الحديث واكثروا ومن فحول علمه وأثمنهم أبو عبد الله الحاكم وبوالبعه فيه مشهورة وهو الذي هذبه وأظهر عماسته. وأشهر كتب للمتناحris فيه كتاب أبي عمرو بن الصلاح، كان لهمد أوائل المائة السابعة وتلاه يحيى الدين السوري عث ذلك وصر شريف في منزه، لأنه معرفة ما يحفظ به السنن المنقولة عن صاحب الشريعة

(40) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي انظر نشره القاهرة، 1930/1349، ص 191 وما بعدها

وفد استطع لهذا العهد تخريج شيء من الأحاديث واستندر كهـ على المتقدمين، إذ العادة تشهد بأن هؤلاء الأئمة على تعددهم وتلاحق عصورهم وكفيتهم واجتهادهم لم يكونوا ليغفلوا شيئاً من السنة أو يتركوه حتى يعثر عليه المتأخر، وإنما تنصرف العناية لهذا العهد إلى تصحيح الأمهات المكتوبة وضبطها بالرواية وإسنادها إلى مؤلفيها لتتصل الأسانيد محكمة من مبدئها إلى منتهاها، ولم يزيدوا في ذلك على العناية بأكثر من هذه الأمهات الخمسة إلا الأقل.

فأما البخاري، وهو أعلاها رتبة، فاستصعب الناس شرحه واستغلقوا منحه من أجل ما يحتاج إليه من معرفة الطرق المتعددة ورجالها من أهل حجاز والشام والعراق، ومعرفة أحوالهم واختلاف الناس فيهم. وكذلك يحتاج إلى إمعان النظر في التفقه في التراجم، لأنه يترجم الترجمة ويورد فيها الحديث بسد أو طريق، ثم يترجم أخرى ويورد فيها ذلك الحديث بعينه لم تضمنه من المعنى الذي ترجم به الباب، وكذلك في ترجمه ترجمة إلى أن يتكرر الحديث في أبواب متفرقة^٢ بحسب معانيه واختلافها.

ومن النظر في تراجمه بيان المناسبة بين الترجمة والأحاديث التي في صمها فقد وقع له في كثير من تراجمه خفاء المناسبة بينها وبين الأحاديث التي في صمها. وطال كلام الناس في بيانها كما وقع في كتاب 'الفتن' في السبب الذي ترجم فيه بقوله: "باب تخريب البيت ذو السويقتين من الحبشة"^٤، ثم قال عن الله تعالى: "وإذا جعلنا البيت مثابة للناس ومنا^٥،

^٢ المتأخر، هذا بعيد عنهم، وإنما [ج]

^{**} ننقص من هنا إلى آخر الفقرة جزء كالتالي في [ج]: وصبطها بالرواية عن مصنفها والنظر في أسانيدها إلى مؤلفيها وعرض ذلك على ما تقرره علوم الحديث من الشروط والأحكام منتصلاً الأسانيد محكمة إلى منتهاها ولم يزيدوا في ذلك على العناية بأكثر من هذه الأمهات الخمسة إلا في القليل.

^{***} كثيرة [ج]

^{****} هذه الفقرة لم ترد في [ج]

(41) نظر Concordance, II, 160, III, 32b. ذكر البخاري هذا الحديث مرتين في باب 'الحج'، لكن لم يعمل ذلك في ترجمة معينة. ومن جهة أخرى، ثم يذكرها في كتاب 'الفتن' إلا أن الحديث مذکور في كتب 'الفتن' في صحيح مسلم.

(42) آية 125 من سورة البقرة (2)

ولم يزد على ذلك في الباب شيئاً. وخفى على الناس وجه المسألة بين هذه الترجمة وما في الباب. فمنهم من قال: 'كان المصنف رحمه الله يكتب التراجم في المسودة، ثم يكتب الأحاديث في كل ترجمة بحسب ما تيسر له، وتوفي قبل أن يستوفي حشو التراجم، فزوي الكتاب كذلك'. وسمعت من أصحاب القاضي ابن بكّار⁴³، قاضي عرناطة، واشتشهد في واقعة طريف سنة إحدى وأربعين وسبعمائة⁴⁴، وكان قائماً على صحيح البخاري، أنه أراد بالترجمة تفسير الآية بأن ذلك مشروع لا مقدر، لأن الإشكال جاء من تفسير جعلنا ب' قدرنا'. وإذا كان بمعنى "شرعنا" لم يكن لبس في تخريب ذي السوفيين بإياها. سمعت ذلك من شيخنا أبي البركات الملقب بعمه، وكان من أحلة تلميذه.

ومر شرح الكتاب ولم يستوف هذا كله فيه فلم يوف حق الشرح كبن حال، وابن المهلب، وابن التّين ونحوهم. ولقد سمعت كثيراً من شيوخنا رحمهم الله يقولون: "شرح كتاب البخاري ذين على الأمة"، يعنون أن أحدًا من علماء الأمة لم يوف ما وجب له من الشرح بذلك الاعتبار.

وأما صحيح مسلم، فكثرت عناية علماء المغرب به، وأكثبوا عليه، وأجمعوا على تفضيله على كتاب البخاري. وقال ابن الصلاح: "وإنما يفضل على كتاب البخاري بما وقع فيه من تجريده عما مزج به البخاري كتابه من غير لصحيح، لم يكتبه على شرطه، وأكثر ما وقع له في التراجم"⁴⁵.

وأما الإمام المازري، من فقهاء المالكية، عليه شرحاً وسماء: المعلم بفوائد مسلم. واشتمل على عيون من علم الحديث ومتين من الفقه. ثم أكمه القاضي عياض من بعده وكمه وسماء: إكمال المعلم. وتلاههم فحجي الدين النووي بشرح استوفي ما في الكتابين وزاد عليهما، وجاء شرحاً وإفياً.

(43) ريدور صحيح هو بن بكر، كما ورد في الإحاطة لاس اعطيط، ج 2، ص 125 وما بعده.

(44) و لصاب سنة 741

(45) بشر بن حمدون، ص 115، الصلاح، ص 115، النظر مقدمة ابن الصلاح، ج 1، ص 115.

وأما كتب السنن الأخرى الثلاثة، وفيها معظم مأخذ الفقهاء، فأكثر شرحها في كتب الفقه، إلا ما يختص بعلم الحديث فكتب الناس عليها واستوفوا من ذلك ما يحتاج إليه من علوم الحديث وموضوعاتها والمسانيد التي اشتملت على الأحاديث المعمول بها من السنة.

واعلم أن الأحاديث قد تميزت مراتبها لهذا العهد بين صحيح وحسن وضعيف ومعلول وغيرها، مميّزها أئمة الحديث وجهابذته وعرفوها، ولم يبق طريق في تصحيح ما لم يصح من قبل. ولقد كان الأئمة في الحديث يعرفون الأحاديث بطرقها وأسانيدها بحيث لو روي حديث بغير سنده وطريقه تفتنوا إلى أنه قد قُلب عن وضعه. ولقد وقع مثل ذلك للأمام محمد بن إسماعيل البخاري حين ورد على بغداد، وقصد المحدثون امتحانه فسألوه عن أحاديث قسرو أسانيدها، فقال: "لا أعرف هذه. ولكن، حدثني فلان"، ثم أتى بجميع تلك الأحاديث على الوضع الصحيح، ورد كل متن إلى سنده، فأقروا له بالإمامة⁴⁶.

واعلم أيضًا أن الأئمة المجتهدين تفاوتوا في الإكثار من هذه البضاعة والإقلال فأبو حنيفة رحمه الله يقال إنه إنما بلغت روايته إلى سبعة عشر حديثًا ونحوها إلى خمسين. ومالك رحمه الله صح عنده ما في كتاب الموطأ، وغابيتها ثلاثمائة حديث أو نحوها. وأحمد ابن حنبل رحمه الله في مسنده ثلاثون ألف حديث. والكل على ما أذاهم إليه اجتهداهم في ذلك. وقد يقول بعض المتعصبين المتعسفين: "إن منهم من كان قليل البضاعة في الحديث، ولهذا قلّت روايته". ولا سبيل إلى هذا المعتقد في كبار الأئمة، لأن الشريعة إنما تؤخذ من الكتاب والسنة، ومن كان قليل البضاعة من الحديث فبتعين عليه طلبه وروايته والجد في ذلك، ليأخذ الدين عن أصول صحيحة ويتلقى

(46) سطر في هذه الحكاية تاريخ بغداد للمعتمد البغدادي، ج 2، ص 20 وما بعدها

* نهاية الجملة في [ج]

** خمسون ألف [ج]. في [ح]. تصحيح فوق السطر. أربعون.

لأحكام عن صاحبها المبلغ لها عن الله. وإنما أقل منهم من أقل الرواية لأجل المطاعين التي تعترضه فيها والعلل التي يغمص في طرقها، سيما والجرح مقدّم عند الأكثر. فيؤديه الاجتهاد إلى ترك الأخذ بما يعرض مثل ذلك فيه من الأحاديث وطرق الأسانيد، ويكثر ذلك فتقل روايته لضعف الطرق. هذا مع أن أهل الحجاز أكثر رواية للحديث من أهل العراق، لأن المدينة دار الهجرة ومأوى الصحابة، ومن استقل منهم إلى العراق كان شغلهم بالجهاد أكثر. والإمام أبو حنيفة، إنما قُتت روايته لما شدد في شروط لرواية والتحمّل، فاستصعب وضعف الحديث إذا عارضه العقل القطعي، فاستصعبت روايته، فقل حديثه. لا أنه ترك روايته الحديث متعمداً، فحاشاه من ذلك. ويدل على أنه من كبار المجتهدين في علم الحديث اعتماد مذهبه بينهم والتعويل عليه واعتداله رداً وقبولاً. وأما غيره من المحدثين، وهم الجمهور، فتوسّعوا في لشروط، وكثر حديثهم. والكل عن اجتهاد. وقد توسع أصحابه من بعده في الشروط، وكثرت روايتهم. وروى الطحاوي فأكثر، وكتب مسنده، وهو حسن المدر. إلا أنه لا يعدل الصحيحين، لأن الشروط التي عتمدها البخاري ومسلم في كتابيهما مجمّع عليها بين الأمة كما قالوه، وشروط الطحاوي غير متفقّ عليها، كالرواية عن المستور الحال وغيره. فلهذا قدّم الصحيحان بل وكتب السنن المعروفة عليه لتأخر شرطه عن شروطهم. ومن أجل هذا قيل في الصحيحين بالإجماع على قبولهما من جهة الإجماع على صحة ما فيهما على الشروط المتفقّ عليها. فلا يأخذك رية في ذلك فلقوم حق الناس بالظن الجميل بهم والتماس المخارج الصحيحة لهم.

ثم من علوم الحديث تصريف هذا القانون في الكلام على الأحاديث وحداً واحداً في أبوابها وتراجمها في تفاسير هذه المسانيد كما فعله الحفاظ

* فاستصعبت وقلت من أجلها روايته [ج]
 ** انقطع من هنا إلى آخر الفصل له يرد في [ح]

أبو عمر بن عبد البر، وأبو محمد بن حَزْم، والقاضي عياض، ومحيي الدين النووي، وابن العَطَّار⁽⁴⁷⁾ من بعدهما، وكثير من أئمة المغاربة والمشاركة. وإن كان في كلامهم على تلك الأحاديث غير ذلك من فقه متونها ولغتها وإعرابها، إلا أن كلامهم في أسانيدھا بصناعة الحديث أوعب وأكثر. هذه أصناف علوم الحديث المتداولة بين أئمة الأعصار لهذا العهد. والله الهادي إلى الحق والمعين عليه.

(47) يبدو أنه علي بن إبراهيم (654-724 / 1256-1324) من تلاميذ النووي، كما أشار إلى ذلك فرانتز رورنثال. انظر *The Muqaddimah*, II, 463, n. 165.

انتهى طبع هذا الكتاب ببوينادي -مثنديا، الدار البيضاء

12 نوفمبر 2005

